قراءة جديدة

في تاريخ العثمانيين

التحالف الصليبي الماسوني الاستعماري وضرب الاتجاه الإسلامي



دكتور
زكريا سليمان بيومي



جدة - المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م



جدة - المملكة العربية السعودية - ص. ب. ٥٧٦. برقياً زادفكر
تلكس ٦٠١٢٠٩ شوركو اس جي تلفون: ٦٨٧٧٢٩٠ (٠٢) - ٦٨٧٧٤٢٢ (٠٢)



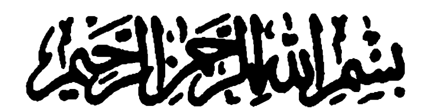
قراءة جديدة

في تاريخ العثمانيين

التحالف الصليبي الماسوني الاستعماري وضرب الاتجاه الإسلامي

دكتور
زكريا سليمان بيومي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
بجامعة المنصورة وكلية البنات بجدة




بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء .....

إلى الصادقين في عهدهم مع الله ....

إلى الذين يعيشون للمبادئ ولا يتعيشون بها

إلى المسلمين في كل بقاع الأرض .

مقدمة

لم تقف محاولات التشويه والهجوم التي تعرض لها تاريخ الدولة العثمانية على المؤرخين الأوروبيين واليهود وحدهم بل انجرف إلى هذا الاتجاه أغلب المؤرخين العرب بشتى انتماءاتهم واتجاهاتهم، وكذلك المؤرخون الأتراك أنفسهم الذين سعوا لإدانة فترة الخلافة العثمانية كسبيل لدعم التحول القومي العلماني في تركيا بعد الحرب العالمية الأولى.

ويرجع موقف المؤرخ الأوروبي إلى تأثره بنزعة الحقد والمرارة الموروثة لدور هذه الدولة على الساحة الأوروبية حيث استطاعت أن تسقط إحدى الإمبراطوريتين الأوروبيتين وهي الإمبراطورية البيزنطية وتتخذ من عاصمتها عاصمة لها ليتغير بعدها وجه التاريخ الأوروبي من القسطنطينية (العاصمة المسيحية الأرثوذكسية) إلى اسلامبول «استامبول» (أي دار الإسلام).

ولم يكتف الفاتح العثماني المسلم بهذا بل سعى إلى إسقاط الإمبراطورية المسيحية الثانية في روما، وأقسم على مواصلة الجهاد حتى يقدم الأكل لفرسه في مذبح الكنيسة الرومانية، وسادت فكرة السعي لاختراق وسط أوروبا حتى الوصول إلى الأندلس لإنقاذ المسلمين فيها، وعاشت أوروبا في هلع وفزع لم ينقذها منه سوى نبأ وفاة محمد الفاتح.

على أن الفلاّح أو الشارع الأوروبي لم يكن قد تعرف على شخصية

المسلم وهويته بشكل مباشر منذ الفتح الإسلامي الأول حتى مجيء الفاتح العثماني، ولم يكن يسمع عن المسلم طوال هذه القرون سوى من خلال صيحات رجال الدين المسيحي الداعية إلى حشد الأموال والمتطوعين لمهاجمة المسلمين «الكفرة» البرابرة، وكلما منيت هذه الحشود بالهزائم على يد المسلمين ازدادت موجة الكره والحقد على المسلمين فصوّروهم للأوروبي على أنهم قراصنة ومغتصبون لمقر الدين المسيحي ومهبط المسيح وهو بيت المقدس من أجل مكاسب سياسية ومادية نعمت بها عدة أسر ظلت قابعة على صدور المجتمع الأوروبي في الحكم فترة زمنية طويلة، ومكاسب حققها رجال الدين فأثروا ثراءً كبيراً ونصبوا حول أنفسهم هالة كبيرة اعتمدت في مجملها على الضلال والتضليل كانوا هم أول من اعترفوا بها وثاروا عليها.

ومع أن الشعب الأوروبي قد اعتبر ثورته على هذه الفئات، بعد أن اكتشف ضلالها وتضليلها، هو بداية عصر النهضة، وبداية مرحلة جديدة في تاريخه، إلا أنه لم يتخلص من تلك الرواسب الموروثة من هذه الفئات تجاه العالم الإسلامي بشكل عام وتجاه الدولة العثمانية بشكل خاص. وبقدر اندفاع قواته العسكرية المدعومة بحضارته المادية لتصفية الحساب مع الشرق عامة، والشرق الإسلامي خاصة، وتحقيق الأطماع على حساب شعوبه، كان اندفاع المؤرخين الأوروبيين لتشويه التاريخ الإسلامي عامة والدور الإسلامي للدولة العثمانية بصفة خاصة.

وشارك الكتّاب والمفكرون اليهود الأوروبيين في نزعتهم العدائية تجاه هذه الدولة بعد أن فشلت كافة مخططاتهم في اغتصاب أي من أراضي هذه الدولة لإقامة كيان سياسي لهم طوال أربعة قرون هي عمر هذه الخلافة، وبرغم كل عوامل الضعف بها أغلب هذه الفترة، في حين استطاع اليهود - بمعاونة الاستعمار الغربي ومن خلال المحافل الماسونية -

أن يحققوا أهدافهم على حساب الأنظمة القومية التي قامت في العالم العربي والتي أضفت على نفسها صفات كالتقدمية والتحضر واتهمت الخلافة التركية على طول تاريخها بالتخلف والرجعية والجمود وغير ذلك، واعتبرت المحافل الماسونية مسألة تشويه هذه الفترة التاريخية من أهم أهدافها.

أما المؤرخون المسلمون في المشرق العربي فقد ساروا في ركب الاتجاه المهاجم لفترة الخلافة العثمانية مدفوعين إلى ذلك بعديد من العوامل يأتي في مقدمتها إقدام الأتراك بزعامة «مصطفى أتاتورك» على إلغاء الخلافة الإسلامية في فبراير سنة ١٩٢٤م، وأعقب ذلك إقدام الحكومة العلمانية التركية بالتحول الكامل إلى المنهج العلماني في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على حساب الاتجاه الإسلامي الذي ظل سائداً في تركيا منذ قيام الدولة العثمانية، وانخراط هذه الحكومة في السياسة الأوروبية المعادية للمشرق العربي الإسلامي، واشتراكها في سلسلة الأحلاف العسكرية الأوروبية في أعقاب الحرب العالمية الثانية والتي لم تلق ارتياحاً لدى بعض الحكومات وكل الشعوب العربية. وكانت تركيا من أوائل الدول التي اعترفت بقيام الكيان السياسي الإسرائيلي في فلسطين سنة ١٩٤٨م، وكذلك تأييدها للعدوان الإسرائيلي الإنجليزي -الفرنسي على مصر سنة ١٩٥٦م، الأمر الذي أدى إلى قبول الاتجاه القومي العربي وانحسار الاتجاه الداعي للإطار الإسلامي بعمقه التاريخي الذي قادته تركيا فترة الخلافة العثمانية.

ويأتي عامل التبعية البحثية لمدرسة التاريخ العربي لمدارس التاريخ الغربية كعامل هام في الاتجاه نحو مهاجمة الخلافة العثمانية، ولا يرجع ذلك إلى سبق المدارس الغربية في ميدان الدراسات التاريخية فحسب بل يرجع كذلك إلى التقاء وجهات النظر بين المؤرخين الأوروبيين

والمؤرخين العرب حول تشويه تلك الفترة. فقد اتجه كثير من المؤرخين العرب، مبهورين بالحضارة الأوروبية، إلى إسناد كل ما هو مضيء في تاريخ بلادهم إلى بداية الاحتكاك بهذه الحضارة، واعتبروا بداية تاريخهم الحديث من وصول الحملة الفرنسية على مصر والشام وما أدت إليه من كسر جدار العزلة بين الشرق والغرب، وما أعقبها من قيام الدولة القومية في عهد محمد علي في مصر، وصحب ذلك اتجاههم لإدانة الفترة العثمانية التي عزلتهم عن أوروبا دون أن يقدّروا للخلافة العثمانية حمايتهم من الهجمة الأوروبية الشرسة.

ولقي هذا الاتجاه ترحيباً من قبل القوى الحاكمة في مصر آنذاك والتي كانت تسعى للاستقلال عن دولة الخلافة قبل وقوع مصر تحت الاحتلال البريطاني، كما استمر ذلك الترحيب بعد ذلك سواء من قبل السلطة الفعلية الممثلة في الاحتلال البريطاني أم من السلطة الشرعية الممثلة في الحكام من أبناء محمد علي.

واتجه كثير من المؤرخين والمفكرين في مصر والشام إلى تأصيل الإطار القومي وتعميقه من أمثال البستاني واليازجي وجورجي زيدان وأديب اسحاق وسليم نقاش وفرح أنطون وشبلي شميل وسلامة موسى وهنري كورييل وهليل شفارتز وغيرهم، ويلاحظ أن أغلبهم من النصارى واليهود، كما أنهم في أغلبهم إن لم يكونوا جميعاً من المنتمين إلى الحركة الماسونية التي تغلغلت في الشرق الإسلامي منذ عصر محمد علي، فقد رأوا في الإطار القومي أنه الإطار الصحيح الكفيل بدفع شعوب المنطقة إلى التخلص من الاستعمار الغربي، ومدفوعين إلى ذلك بإسهام هذا الإطار في دفع حركة النهضة والتحرر في أوروبا، دون محاولة فهم الاختلاف في طبيعة الشعبين أو اختلاف الظروف المحيطة بها، كما خضعوا لتوجيه المحافل الماسونية أكثر من خضوعهم لمطالب

شعوبهم وبخاصة في موقفها من الدين الذي يشكل الإطار الحقيقي للمسلم.

ولم يتغير هذا الاتجاه لدى المؤرخين العرب بشكل عام بعد قيام الثورة العسكرية في مصر سنة ١٩٥٢ م، حيث اتجهت الحكومة العسكرية في مصر منذ البداية، والتقت معها أغلب الحكومات العسكرية العربية، إلى دعم الإطار القومي المحلي أو العربي، كما أن أغلب هذه الحكومات قد ارتكزت على أسس أكثر علمانية في كافة الجوانب بما في ذلك الجانب الثقافي والفكري، فنظروا إلى الوجود العثماني في المشرق العربي على أنه كان غزواً واحتلالاً، وأسندوا إليه - بطابعه الإسلامي - كافة عوامل التخلف والضعف التي ألمت بالعالم العربي، واعتبروا كافة حركات الانشقاق والتمرد التي قامت إبان الفترة العثمانية، والتي دفعتها الأطماع الشخصية أو القوى الخارجية المعادية للخلافة الإسلامية، اعتبروها حركات استقلالية ذات طابع قومي كحركة علي بك الكبير في مصر وظاهر العمر في فلسطين وحركة المعنيين والشهابيين في لبنان والقرمانليين في ليبيا والحسينيين في تونس وغير ذلك، بغية تأصيل الاتجاه القومي الذي طرحوه. بل ودعاهم هذا التأصيل إلى اعتبار دور محمد علي في المنطقة العربية دوراً قومياً حاول خلاله توحيد العالم العربي، وأن فشله في ذلك يرجع فقط إلى أنه لم يكن عربي الهوية، ولم يفسروا ذلك من خلال غياب الإطار أو المفهوم القومي وغلبة الاتجاه الإسلامي في هذه الفترة، او على ضوء أطماعه الشخصية أو لارتباطه بالسياسة الاستعمارية التي دعمت وجوده، أو اشتراكه في المحافل الماسونية التي ساندته في ضرب القوى الإسلامية في المنطقة وتهيئتها بعد ذلك للاستعمار الغربي.

ولا شك أن بعض المفكرين والمؤرخين يهدفون من هذه الإثارة حول دور محمد علي محاولة تغطية مطروح كان الأجدر بالمؤرخين أن يطرحوه

وهو المطروح الإسلامي سواء لأن هذا المطروح يلتقي مع ميول شعوب المنطقة أم لأنه قد توافرت له عوامل النجاح التي لم يتوافر أي منها لما يطرح حول دور محمد علي، ويناقش هذا المطروح المدى الذي كان سيترتب على نجاح القوة السعودية الإسلامية في إعادة الوحدة الإسلامية بين شعوب المنطقة وأثر ذلك على تقلص نفوذ الاستعمار الغربي والأطماع اليهودية في المنطقة، وهذا المطروح سيدفع المؤرخين إلى تتبع مراحل التحالف بين الغرب الصليبي مع اليهود من خلال الحركة الماسونية مع القوى المحلية التي أمكن تطويعها من خلال أطماعها، وكيف التقوا جميعاً في طريق ضرب هذه القوة الإسلامية، ثم تلا ذلك دورهم في كبح جماح شعوب المنطقة وسلب حريتها وإقامة أنظمة حكم ديكتاتورية مدعومة بالسلاح الغربي الحديث وهو ما يمثله دور محمد علي.

وقد شارك المؤرخون السلفيون في المشرق العربي في الهجوم على الفترة العثمانية مدفوعين إلى ذلك بالرصيد العدائي الذي خلّفه دور الخلافة العثمانية من الدعوة السلفية في عديد من مراحلها، وكذلك لمساندة الخلافة للاتجاه الصوفي وبما يصاحبه من مظاهر تخل بالجوانب الأساسية للشريعة الإسلامية، فضلا عن أن دولة الخلافة في مراحلها الأخيرة قد سيطر عليها دعاة القومية الذين بعدوا بها عن الالتزام بالمنهج الإسلامي الذي ميّز تاريخها لفترات طويلة وفرض على كافة العناصر دوام الارتباط بها وتأييدها.

وساند المؤرخون الماركسيون هذا الاتجاه وهو مهاجمة الفترة العثمانية حيث اعتبروا فترة الخلافة العثمانية استمراراً لسيادة النظام الإقطاعي الذي تسيّد تاريخ العصور الوسطى السابقة، وأن العثمانيين لم يُحدثوا أي تغيير في وسائل أو قوى الإنتاج، وأن التاريخ الحديث يبدأ بظهور الطبقة البورجوازية ثم الرأسمالية التي أسهمت في إحـداث تغيير في

الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في بداية القرن التاسع عشر، والتقوا في ذلك مع المؤرخين الأوروبيين من أصحاب الاتجاه الليبرالي وكذلك مع أصحاب المنظور القومي.

وينبغي أن نشير هنا إلى دور بعض المؤرخين والمفكرين النصارى واليهود الذين لعبوا دوراً هاماً في الترويج للاتجاهين الغربي والماركسي على السواء من خلال التأليف والترجمة لمؤلفاتهم، والذي ساندته المحافل الماسونية، حيث انهم فيما طرحوه قد حاولوا أن يبتعدوا عن أي من الأطر الإسلامية الوحدوية مفضلين عليها الأطر القومية بمفهومها المحلي المحدود أو العربي أو حتى القارىء العربي في الجناحين الافريقي والآسيوي كمشروع الهلال الخصيب في الشام أو مشروع وحدة وادي النيل بين مصر والسودان، فضلا عن جهودهم الواضحة في إطار تنشيط وترويج الاتجاهات القومية المحدودة كالدعوة إلى الفرعونية في مصر وغير ذلك.

أما المؤرخون الأتراك الذين ظهروا في فترة التحول القومي في تركيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى فقد تحاملوا كثيراً على فترة الخلافة العثمانية سواء لمجاراة الاتجاه السياسي والفكري الذي ساد بلادهم خلال فترة التحول والذي سعى - كطبيعة كثير من الأنظمة - أن يُحمّل الفترة السابقة كافة جوانب الضعف والانهيار أو لتأثر الشعب التركي بالموقف الضعيف والمتخاذل الذي بدت عليه سلطة الخلافة التي أصبحت شكلية بعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩م - حين منيت بالهزائم المتكررة إبان الحرب العالمية الأولى وضياع كثير من أراضيها وتسليمها بتوقيع معاهدة سيفر سنة ١٩١٨م، والذي كان في حقيقته هزيمة لرجال تركيا الفتاة ونتيجة لسياستها، في حين استطاعت الحركة القومية بزعامة مصطفى كمال أن تنقذ تركيا من هذه الإهانة وتستعيد الكثير

من الأراضي التركية وتجبر اليونان والقوى التي تساندها ومن منظور ديني على توقيع معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ م، إلى جانب تأثر المفكرين الأتراك بالموقف العربي الذي ساند الحلفاء الغربيين إبان الحرب الأولى ضد دولة الخلافة وإعلان الثورة عليها سنة ١٩١٦ م.

ويبدو من خلال كل ذلك أن شباك الإدانة قد التقت برغم تفاوت الأسباب وتباينها على طريق تشويه المؤرخين لتاريخ الخلافة الإسلامية العثمانية، ولكون هذه المحاولات في أغلبها قد غلبت عليها الذاتية أكثر من الموضوعية، فقد أدى ذلك إلى ظهور رد فعل إسلامي لدى بعض المؤرخين المسلمين في ربع القرن الفائت لعل من أهمها وأبرزها تلك المحاولة التي قام بها المرحوم الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الشناوي والتي بدت في كتابه «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها».

وبرغم الجهد المبذول، والدافع الإسلامي المحاط بإطار من الموضوعية التي اتسم بها هذا العمل في أغلبه، إلا أنه لم يعالج كافة جوانب التاريخ العثماني من جهة وكذلك فقد غلب عليه الجانب الحماسي الذاتي على الناحية الموضوعية في معالجة بعض القضايا التي تخللته من جهة أخرى.

لذلك فإنه من الواجب على المؤرخين من أصحاب المنظور الإسلامي إعادة النظر في أهم الجوانب في تاريخ الخلافة العثمانية وفي تاريخنا الإسلامي في العصر الحديث أملا في التئام تلك الشروخ التي نتجت عن صياغة تاريخنا من منظور قومي خدم أعداءنا في المقام الأول حيث ارتكز هدفهم على تمزيق الشعوب الإسلامية (إيران - العرب - تركيا)، ثم تحولوا إلى إحياء قوميات محلية من خلال الاهتمام بالآثار القديمة من منظور قومي متعصب لا من منظور علمي عملا على إحياء الحضارات البائدة بأطرها العرقية كي تكون بديلا عن الإطار الإسلامي.

ولا ينبغي أن يخفى دور المحافل الماسونية في توجيه هذه الصياغة التاريخية الخبيثة والتي يقوم بها مجموعة من كتبة التاريخ من أدعياء المنهج الليبرالي والعلماني حيث تتجه كتاباتهم إلى إبراز دور العناصر الماسونية على الساحة التاريخية ووضعهم في دور المصلحين، متغافلين التباعد بينهم وبين الشعوب التي سطو على الحكم فيها، ومبررين سلوكهم الديكتاتوري وما ارتكبوه من حماقات على أنه كان ضرورة تتيح لهم القيام بالإصلاح، وهادفين لإثبات دور الحركة الماسونية في مساندة حركات التحرر. ومن هنا يبدو أن التاريخ علم مستهدف من قبل كل هذه القوى باعتباره - سلباً وإيجاباً - الوعاء الثقافي الأساسي في بناء هوية الشعوب.

ولا شك أن كثيرين من المؤرخين والمفكرين في العالم الإسلامي قد أدركوا أن الانحلال السياسي الذي نتج عن انهيار الدولة الإسلامية الموحدة والتي جسدت الولاء في نفوس تابعيها على مدار ألف سنة أو يزيد من خلال وحدة تراثها وتاريخها وتحوله إلى كيانات سياسية محدودة قد نتج عنه اهتزاز في ولاء الشعوب لهذه الكيانات برغم جهود القائمين عليها لإيجاد جذور لها لا يوازي ما كان لديهم من قبل تجاه دولة الخلافة. كما نتج عنه أيضاً انحلال اجتماعي وثقافي مـوازٍ للانحلال السياسي وبخاصة بعد أن أدركت الشعوب غرابة استناد الأنظمة القومية الجديدة إلى قوالب وافدة من الغرب الذي طالما بغضوه ولا يتوقعون منه خيراً لهم، كما وجدوا أن هذه الأطر والمقاييس الغربية - وبخاصة في الميادين السياسية والثقافية والاجتماعية - أقل من أن تتواءم مع احتياجاتهم الفعلية على نفس القدر الذي يحسونه تجاه دينهم الإسلامي والرصيد التاريخي في ظل نظام الخلافة.

ولعل من أهم الأمور المشجعة على إعادة النظر في هذه الحقبة

التاريخية حدوث تحول نسبي لبعض المفكرين الأتراك إلى الاتجاه الإسلامي الذي أتيحت له فرصة التعبير عن ذاته في أعقاب تحول نسبي مماثل في السياسة الحكومية التركية تجاه المشرق العربي في أعقاب الرواج الاقتصادي الذي ساد بعض البلدان العربية بعد اكتشاف البترول، حيث أسهم ذلك في عودة ظهور بعض العناصر الفكرية من أتباع الاتجاه الإسلامي في تركيا على الساحة السياسية والاجتماعية، فتكونت كلية «الٰهيات»، واعتنت السلطات التركية بإعادة ترتيب أرشيف وثائق الفترة العثمانية، وإن كان المستقبل القريب هو الذي سيوضح مدى موقف الحكومة التركية إزاء الاتجاه الإسلامي وعما إذا كانت ستجعله فقط رهينة للهدف الاقتصادي أو السياسي الحكومي أم لا؟، على أن هذا لا يقلل من تأثير الاتجاه الإسلامي في تركيا واستمرار نموه.

وفي النهاية آمل أن تخدم هذه المحاولة التي أسعى من خلالها إلى إثارة بعض الجوانب الهامة في تاريخ الخلافة العثمانية، فإذا بدا فيها قصور فهي طبيعة العمل البشري، ويكفي أنها محاولة على طريق الأمل في عودة الترابط الإسلامي الممتد على طول التاريخ الإسلامي كله، والذي لا يعترف بحدود أو جنس أو سلالة.

وإذا كان لنا أن ندرك أن مثل هذه المحاولات قد تصادف صعوبات متعددة سواء في طريقها إلى النشر أو الانتشار أم من إطار الالتزام المفروض في بعض الأحيان، فإن كل هذه الصعوبات وغيرها لا ينبغي أن تقعد الباحث المسلم عن مواصلة الاجتهاد بالرأي المسموع والمكتوب والمدعم بالأدلة، وحسبي أنني بذلت قصارى جهدي، وحسبما أتاحته المصادر والمراجع آملاً أن يسهم هذا البحث في إضافة الجديد لتاريخنا الإسلامي الحديث والمعاصر، وأن يصحح الكثير من الأحكام والمفاهيم الخاطئة في تاريخنا التي أريد لها أن تسود بقصد فقدان الثقة في

تراثنا وتاريخنا وقدرتنا وهي الأمور التي تشكل في مجموعها أساس هويتنا، فإذا ما فقدناها تحولنا إلى التبعية لهوية أخرى مستسلمين مهزومين ننتظر ما يفعله بنا أعداؤنا.

والله من وراء القصد خير الشاهدين.

جدة في ذي القعدة ١٤١٠ هـ   أ. د. زكريا سليمان بيومي

يونية ١٩٩٠ م

الفصل الأول

العثمانيون وبداية التاريخ الحديث في الشرق والغرب

العثمانيون وبداية التاريخ الحديث في الشرق والغرب

اتجه أغلب المؤرخين الى اعتبار تاريخ الدولة العثمانية امتداداً للعصور الوسطى، وأن التاريخ الحديث في أوروبا يبدأ بعصر النهضة، وفي المشرق العربي الإسلامي - منطقة الشرق الأوسط - يبدأ بوصول الحملة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر (١٧٩٨ م) على مصر والشام باعتبار أنها كسرت حاجز العزلة بين الشرق والغرب، وأنها بالتالي قد أسهمت في تطور ونهضة المنطقة وربطها بعجلة الحضارة الأوروبية.

ومع التسليم بوجاهة هذا الاتجاه إلا أنه لا يخلو في مضمونه من غرور خلقه التقدم الحضاري الأوروبي المشوب بنظرة كره وحقد موروثة للعالم الإسلامي وبخاصة مرحلة الوجود العثماني؛ حيث يسهل إدراك أن أغلب المؤرخين الأوروبيين قد حادوا عن الموضوعية في تناولهم لهذه الحقبة التي لم تقف عند حد كونها رد فعل للحروب الصليبية، بل أهان فيها الشرق الإسلامي الغرب المسيحي واقتطع جزءاً ضخماً من أراضيه وأسقط إحدى إمبراطوريتيه وسعى لإسقاط الأخيرة وكاد ينجح في هذا، وعاشت أوروبا فترة زمنية ليست بالقصيرة في رعب وفزع. وتبدو هذه النظرة بشكل عام في السعي والدعوة لهدم الكيانات القائمة على

الإسلام - والدين بوجه عام - حيث لم تعد في نظرهم، ولظروف تخص تطور الحياة في مجتمعهم، صالحة للاستمرار أو لإيجاد صيغة حضارية تربط المجتمعات الإسلامية بالركب الحضاري أو حتى لاستيعاب المعطيات الحضارية الأوروبية. وكأن الاتجاه في مجمله يحاول أن ينسب كل ما هو مضيء الى الحضارة الغربية ويسهم بالتالي في زعزعة ثقة الشعوب الإسلامية في عوامل ومقومات كانوا يعتبرونها ولفترة طويلة من أهم مقومات تكوينهم الثقافي والتاريخي.

وكرد فعل لهذا الاتجاه مال بعض الكتاب والمفكرين المسلمين إلى إعادة النظر في تاريخ الدولة العثمانية وبدء مرحلة التاريخ الحديث في الشرق الإسلامي بظهورها، ودعموا وجهة نظرهم بعديد من العوامل يصعب التقليل من أهميتها كحفاظها على الخلافة الإسلامية السنية لفترة جاوزت الأربعة قرون، وتوسيعها لرقعة العالم الإسلامي على حساب أوروبا حيث قضت على الإمبراطورية البيزنطية وحولت عاصمتها التاريخية (القسطنطينية) إلى عاصمة للخلافة الإسلامية، كما أوقفت الخطر الشيعي وحاصرته في فارس، وهو أمر وان بدا في مظهره نصراً للجناح السني - الذي تزعمته بعد ذلك - على الجناح الشيعي إلا أنه قد هيأ الفرصة للنضوج المبكر للمقومات القومية في فارس التي أصبح من أهمها وحدة المذهب (الشيعي) في حين تأخر نضوج هذه المقومات بالنسبة لكل من الأتراك والعرب في الجناح السني حتى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. كما وقفت ضد الهجوم الصليبي البرتغالي الذي كان يقصد المناطق الإسلامية المقدسة فحافظت بذلك على استمرار مقومات الوحدة بين الشعوب العربية لفترة طويلة ما زال العرب ينعمون برصيدها برغم تأخر ظهورها بفعل الاتحاد الديني (المذهبي) مع الأتراك.

على أن ذلك لا ينفي أن العثمانيين لم يكن لهم رصيد حضاري سابق لوجودهم في آسيا الصغرى واعتناقهم الإسلام كمنهج حضاري، وتأخر ظهور هويتهم الحضارية إلى ما بعد انتهاء مرحلة الفتوح حيث تفرغوا لاستيعاب باقي الرصيد الحضاري الإسلامي الذي كان قد تجمد منذ العصر العباسي الثاني. وكانت أوروبا في نفس الوقت قد استوعبت هذا الرصيد الذي وصلها عن طريق الأندلس وجنوب إيطاليا، ومن خلال حركة التبادل التجاري ونشاط الرحالة، وكذلك عن طريق بعض علماء بيزنطة الذين فروا أمام الفاتح التركي إلى غرب أوروبا، وكان البيزنطيون قد وقعوا تحت التأثير الحضاري الإسلامي منذ القرن الثالث عشر، وتمت من خلال هذه المصادر ترجمة الكثير من علوم الطب والفلك والرياضة والجغرافيا والفلسفة وغيرها.

وصهرت أوروبا هذا الرصيد الحضاري الهائل مع ما كانفيها من رصيد حضاري سابق من الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية وغيرهما في قالب جديد ميّزه عن كل هذه الحضارات السابقة، ورجحت كفة أوروبا الحضارية على كفة الرصيد الحضاري الإسلامي المتجمد بزعامة العثمانيين.

وكان من الممكن للعثمانيين أن يتأثروا بأي من الحضارات بيزنطية كانت أم إسلامية، لكن الحضارة البيزنطية كانت تعاني من الضعف والاضمحلال بحيث لم تتمكن من أن تسبق إلى التأثير، بل إن البيزنطيين أنفسهم وبخاصة في الأناضول قد تعرضوا لموجة الحضارة الإسلامية التي تمكنت من أن تطغى شيئاً فشيئاً على هويتهم الحضارية قبل أن يزول سلطانهم السياسي. وكانت الحضارة الفارسية أكثر تأثيراً على الأتراك في الأناضول من غيرها، فيذكر المؤرخ التركي «محمد فؤاد كوپريلي» أن الفارسية قد طغت على التركية حتى انصرف الأدباء

الأتراك عن لغتهم ووقعوا تحت تأثير الفارسية وهو أمر ظل واضحاً حتى تركيا الكمالية[1].

على أن ذلك لا يعني أن الأتراك العثمانيين لم يتأثروا ببعض جوانب الحضارة البيزنطية وبخاصة في العمارة وبعض جوانب الفن وبعض النواحي الاجتماعية فيما يخص العادات والتقاليد سواء تلك التي ورثها العثمانيون عن أسلافهم السلاجقة أم التي إحتفظت بها العناصر البيزنطية التي انصهرت في الكل العثماني باعتناق الإسلام أو بالاستقرار، لكن كل هذه المؤثرات الحضارية كانت ضعيفة بحيث لم تدفع عجلة الحضارة العثمانية بشكل يجعلها تلحق بالركب الحضاري الأوروبي، وظلت هذه الدولة والشعوب التي انضوت تحت لوائها بعيدة عن الاحتكاك الحضاري، عازفة - أو عاجزة - عن الاستفادة بمعطياته حتى اتسعت الهوة الحضارية بينها وبين أوروبا، وعادت أوروبا في شكل موجات استعمارية لتمزق الإمبراطورية العثمانية.

وبرغم كل هذا فلا بد من اعتبار مراحل ظهور الدولة العثمانية معلماً تاريخياً هاماً في بداية التاريخ الأوروبي الحديث، فقد كانت هذه الدولة منذ مراحل تكوينها الأولى وعلى مدى ثلاثة قرون دولة أوروبية، كما أسهم قيامها في آسيا الصغرى وقضاؤها على الامبراطورية البيزنطية في تغيير وجه التاريخ الأوروبي، وجعلها عنصراً من عناصر السياسة الأوروبية[2]. وأدت مراحل توسعها في أوروبا إلى الإسهام في استنهاض

---

(١) محمد فؤاد كوبريلي: قيام الدولة العثمانية، ت: د. أحمد السعيد سليمان، دار الكاتب العربي، القاهرة ب.ت. ص (ص- المقدمة).

(٢) د. نور الدين حاطوم: عصر النهضة الأوروبية، دار الفكر العربي- بيروت سنة ١٩٦٨م ص ٣٣٤.

الشعوب الأوروبية لمواجهة الخطر المحدق بهم استنهاضاً شمل كافة الجوانب، فالنجاح المستمر للعثمانيين الذين رفعوا راية الإسلام في حروبهم قد أدى إلى تصدع مكانة الكنيسة، وأسهم بالتالي في تصدع الهرم الاجتماعي في كثير من البلدان الأوروبية[٣]. وقد تأثرت بذلك أنظمة الحكم التي كانت تعتمد على ما يسمى بالتفويض الإلهي في الحكم، وهو امتداد للعصور الوسطى، وبدا فساد هذه الأنظمة أكثر وضوحاً لدى العوام والمفكرين بوجه خاص، وراحت أقلام المفكرين تهاجم الاستبداد بكل صوره بعد أن تحررت - نسبياً - من نفوذ الكنيسة. ومن هنا سلكت الثورة الفكرية في أوروبا اعتباراً من القرن السادس عشر مسارين الأول يلفظ الكنيسة ويعود إلى الفلسفات القديمة يونانية ورومانية، وقد برز في هذا المجال «فرانسوا رابليه» الذي كان راهباً ثم ثار على الرهبنة، وكان هذا مقدمة للمذاهب الفلسفية التي ثارت على دور الدين في المجتمعات الأوروبية كالعلمانية والليبرالية وغيرهما، والمسار الثاني هو محاولة إصلاح الكنيسة وإعادتها إلى نقائها الاول وقد ارتبط بحركة الإصلاح الديني، فلم يمض على سقوط القسطنطينية أقل من نصف قرن إلا وقامت العديد من حركات الإصلاح[٤].

وعلى الرغم من أن الشكل الظاهري للاتجاه العام في المسارين كان رجعياً إلا أنه كان يعبر عن مدى تحرر عقلية المفكر الأوروبي من سيطرة الكنيسة التي كانت تشكل حاجباً كثيفاً أمام محاولات النقد

---

(٣) عن دور العامل الديني بين بوهيميا والمجر في النصف الثاني من القرن الخامس عشر برغم توافر عوامل الاستقرار والقوة، انظر، فيشر: في أصول التاريخ الأوروبي الحديث، ت.د.زينب راشد وآخرين، ط٣ ص ٩٢.

(٤) د. نور الدين حاطوم: المرجع السابق ص ٦.

والتطور، وتعددت بالتالي ملامح الصراع معها والتي كانت هي نفسها ملامح ظهور النهضة الأوروبية.

كما أدت الهجمات العثمانية المتواصلة إلى هجرة الكثيرين من الأوروبيين من أهل المناطق المفتوحة إلى وسط وغرب وجنوبي أوروبا مما أسهم في تفجير بعض المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والتي كانت قد تفاقمت واستفحلت.

وأدى كذلك سقوط القسطنطينية إلى هجرة العديد من العلماء والمفكرين البيزنطيين واليونانيين إلى أوروبا الغربية حاملين معهم مخطوطاتهم وأبحاثهم الثمينة التي انبثقت منها دراسات جديدة أضاءت الطريق بظهور النهضة الأوروبية وحركة إحياء العلوم(٥).

وكذلك فإن تركيز الإمبراطور الروماني وكذا البابوية في روما ولفترة طويلة على الاستعداد لصد أو وقف الهجوم العثماني قد أدى إلى عدم تفرغ هذه القوى لمواجهة بعض المشكلات داخل المجتمع الأوروبي مما أسهم في تفاقمها واستفحالها واستقطابها للقوى الاجتماعية ودفعها إما للثورة أو لمساندة الحركات الاصلاحية كحركة الإصلاح الديني.

وبشكل عام فإن قيام الدولة العثمانية قد أدى - مع عوامل أخرى اقتصادية واجتماعية داخل المجتمع الأوروبي - إلى تحريك عجلة النهضة من خلال دفع الحركة الفكرية التي أصبحت أكثر جرأة بعد تهاوي النظم الاقطاعية المستبدة أمام الهجمات العثمانية وبعد سقوط الدعاوى الدينية التي كانت تقوم عليها هذه الأنظمة، فضلا عن تأثير هجرة العلماء اليونانيين على إثراء الحركة الفكرية في أوروبا الغربية، وكذلك تأثير

---

(٥) د. عبد الحميد البطريق وآخرون: التاريخ الأوروبي الحديث، دار الفكر العربي- القاهرة ص ١٣.

هجرة العديد من أبناء أوروبا الشرقية ومنطقة البلقان فراراً من الهجمات العثمانية وتوطين الأتراك فيها وما أدى إليه من تفجير الكثير من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في أوروبا الوسطى والغربية، وهذه العوامل تؤكد الدور الهام الذي لعبته الدولة العثمانية - إيجاباً كان أم سلباً - في تكوين أوروبا الحديثة بصفة خاصة.

ومن جهة أخرى فإن عودة الدولة العثمانية من أوروبا إلى المشرق العربي ومساندتها للقوى المجاهدة في شمالي أفريقيا ضد الهجمات الأسبانية والبرتغالية قد أدى إلى المحافظة على مقومات وحدة شعوب هذه المنطقة واستمرار ارتباطها بالمشرق العربي الإسلامي، كما أسهم من جهة أخرى في دفع الحركة التي اصطلح على تسميتها باسم حركة الكشوف الجغرافية بعد أن يئست أسبانيا من تحقيق أطماعها في الشمال الأفريقي، وفشلت البرتغال في السيطرة على الجزيرة العربية وطرق التجارة القديمة.

فمما لا شك فيه أن الدوافع الأولى لهذه الحركة كانت في أغلبها دوافع دينية، حيث بدت المراحل الأولى لها في أعقاب نشوة الانتصار المسيحي على المسلمين في الأندلس والتي يطلق عليها المؤرخون المسيحيون اسم حرب الاسترداد. وباركت البابوية في روما نزعة الاندفاع لتعقب المسلمين الذين عبروا إلى الشمال الأفريقي. وبدت ملامح هذا الاندفاع في بعض الآراء التي دعا إليها بعضهم من ضرورة إعادة العرب إلى الصحراء التي خرجوا منها في عصر صدر الإسلام، بل ونادى بعضهم بضرورة هدم المقدسات الإسلامية في مكة والمدينة.

ومهما حاول البعض أن يقلل من دور الدافع الديني لهذه الحركة فإن ما ساقوه من أسباب أخرى لا تقدم الدليل الكافي والمقنع لها فمنهم من ذكر أن من أهم الأسباب هو تقدم المعلومات الجغرافية في أوروبا وبخاصة التي تؤكد كروية الأرض، ومع أن هذه المعلومات كانت قد

طرحت فعلا إلا أنها كانت محصورة في قلة من المفكرين المغامرين في حين ظلت المعلومات القديمة هي السائدة بين جموع الشعب الأوروبي، ويبدو ذلك من خلال المحاولات المستمرة والكثيرة التي بذلها هؤلاء المفكرون لإقناع الحكام بجدوى رحلاتهم وصحة معلوماتهم في حين ظل المحيط الأطلسي في نظر العامة وحتى الحكام هو بحر الظلمات، وأنه يصل إلى درجة الغليان في بعض المناطق وأنه مليء بالجن والشياطين وغير ذلك. كما أن رحلة «فاسكو ديجاما» التي وصلت إلى الساحل الشرقي لأفريقيا والتقت بأحد الملاحين المسلمين وهو «أحمد بن ماجد» قد أكدت بداءة الأدوات الملاحية البرتغالية أمام الأدوات التي كانت بحوزة الملاح المسلم، كما أكد هذا الملاح في قيادته لهذه الرحلة إلى سواحل الهند قدرة الملاحين المسلمين وسبق معرفتهم للطرق الملاحية بشكل يفوق مقدرة ومعرفة الملاحين الأوروبيين.

وحتى لو جارينا المؤرخين من أصحاب المنظور الماركسي فيما طرحوه من أسباب لهذه الرحلات والتي يأتي من أهمها محاولة الدول الغربية كسر احتكار المسلمين لطرق التجارة بين الشرق والغرب فإنها تؤكد العامل الديني ولا تنفيه، كما أن الأسر البورجوازية التي تولت الإنفاق على هذه الرحلات بغية تحقيق أهداف اقتصادية لم تجد من بد لإقناع العامة من البحارة لارتياد هذه الرحلات سوى استخدام الدافع الديني الذي يبدو في حرص البابوية على حضور انطلاق هذه الرحلات وإطلاق أسماء قديسين من الذين ماتوا في حرب المسلمين في الأندلس على السفن، فضلا عن قيام البابا بوضع صليب في رقبة كل بحار، ودعوته لمتابعة الكفرة - أي المسلمين - ونشر دين المسيح أو الشهادة في سبيل ذلك.

ويتضح من ذلك أن عودة العثمانيين إلى الشرق قد أسهمت في أن تحافظ منطقة البحر المتوسط على تراث العصور الوسطى من الهجوم

الأوروبي الشرس، وأسهمت هذه الدولة بالتالي في دفع هذه الموجة إلى العالم الجديد أو البعيد من آسيا وأفريقيا وأمريكا(٦).

وفي نفس الوقت كان لقيام الدولة العثمانية أثر واضح على الأوضاع السياسية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية في العالم الإسلامي بشقيه الشيعي والسني، فضلا عن تفردها باحتواء مجموعة كبيرة من الأقليات الطائفية والجنسية لفترة قاربت الأربعة قرون دون أن تتفجر مشاكل ضخمة من جراء هذا الاحتواء إلا بعد محاولات إثارة هذه الأقليات من قبل القوى الغربية والتي ارتبطت فيما قامت به من دور بنشاط الاتجاه القومي وخدمة مصالحها المرتبطة بالاستعمار الأوروبي أكثر من تأثرها بعيوب نظام الحكم العثماني، من هنا فإن الاهتمام بتاريخ الدولة العثمانية يعد من أهم معالم التاريخ الحديث سواء في المشرق الإسلامي العربي أو الغرب الأوروبي المسيحي.

---

(٦) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني - دار الشروق - ص ٩.

الفصل الثاني

إسلام الأتراك العثمانيين
وأثره على بناء دولتهم وعلى دورهم في نشر الإسلام
في شرق أوربا

إسلام الأتراك العثمانيين
وأثره على بناء دولتهم وعلى دورهم في نشر الإسلام في شرق أوربا

ظلت ندرة الوثائق والمصادر ولفترة طويلة تشكل عاملا هاما في إحجام الباحثين عن محاولة توضيح كثير من الجوانب الغامضة التي ما زالت تكتنف تاريخ الدولة العثمانية. وقد أدى ذلك إلى قبول المؤرخين للكثير من الروايات الأسطورية التي كتبها المؤرخون العثمانيون الأوائل تحت أعين سلاطينها ووفق أهوائهم.

وإذا كانت حركة التحول التركي الحديثة إلى العلمانية قد أفرزت كتّاباً ومؤرخين حاولوا تأصيل القومية التركية، فحاولوا أن يضعفوا من دورهم الإسلامي، ومن أبرزهم محمد فؤاد كوپريلي، إلا أن الانتعاش الاقتصادي للبلاد العربية في أعقاب اكتشاف البترول قد أدى إلى اتجاه تركيا إلى العالم الإسلامي وبالتالي أدى الى عودة الكتابات التي تحاول تأصيل الدور الإسلامي للأتراك سواء من الأتراك أو من المسلمين العرب الذين نالوا تشجيع الأتراك وإن اختلفت دوافع كتاباتهم، فعادوا ليقبلوا العديد من الأساطير التي تحيط بنشأة التاريخ العثماني.

ومن بين هذه الأساطير التي اضطر المؤرخون لقبولها وأصبحت لاتساع تداولها حقيقة ثابتة، قضية إسلام العثمانيين التي ترد في

أسطورتين. الأولى تروي أن عثمان قضى ليلة في دار أحد الزهاد المسلمين وقبل أن ينام جاء صاحب البيت بكتاب فوضعه على رف فسأله عثمان ما هذا الكتاب؟ فأجاب انه القرآن الكريم، كلمة الله التي أنزلت للناس عن طريق النبي، وحمل عثمان الكتاب وأخذ يقرأ فيه حتى الصباح، ثم نام فرأى فيما يرى النائم كأن ملاكا بشره بأنه وذريته سيعلوا قدرهم لقاء احترام القرآن. والرواية الثانية أن عثمان طلب إلى الشيخ «إده بالى» أن يزوجه ابنته فرفض طوال عامين وفي إحدى الليالى رأى عثمان وهو نائم في بيت الشيخ كأن قمرا يخرج من صدر «إده بالي» ويقع في صدره هو، ثم تخرج من صرته شجرة يغطي ظلها الأرض كلها وفسر «إده بالي» الحلم بأن أسرة عثمان ستحكم العالم وزوجه ابنته[1].

وعلى الرغم من إدراك المؤرخين لعدم صدق هذه الروايات لأسطوريتها ولتشابه ذكرها عن كثير من مؤسسي الدول كالإمبراطور قسطنطين والسلطان محمود الغزنوي وغيرهما، إلا أن أيا منهم لم يجد مناصا من الاعتماد عليها[2].

وإذا جاز للمؤرخين أن يقبلوا مضطرين هذا الإسلام لمؤسس الدولة العثمانية، فلا ينبغي أن يقبلوا إسلاماً جماعياً لقبيلته لمجرد إسلامه، كما لا يجوز بعد قبول هذه الآراء إضفاء الصبغة الإسلامية على توسعات هذه

---

(١) محمد فؤاد كوبريلي: قيام الدولة العثمانية، ترجمة: د. أحمد السعيد سليمان ص ٦١، حسين لبيب: تاريخ الأتراك العثمانيين، القاهرة سنة ١٩١٧م، ص ٣ حيث يستطرد في ذكر قصة حب كانت بين عثمان وبين (مال خاتون) ابنة اده بالي. وتروي نفس الرواية عن أرطغرل والد عثمان وليست عن عثمان نفسه.

انظر: د. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها،جـ١ ص٣٧.

(٢) محمد فؤاد كوبريلي: المرجع السابق ص المقدمة.

الدولة وعلى أساليبها في الحكم ودورها في تأسيس دولة إسلامية وجهودها في نشر الإسلام وأهلها وأتباعهم حديثو عهد به وغير ذلك من الاستطرادات التي امتلأت بها الكتب.

وسواء أكان الأتراك العثمانيون من بين فصائل الترك التي وفدت مع السلاجقة إلى منطقة الأناضول منذ العصر العباسي الثاني أم أنهم قد اضطروا للهجرة تحت ضغط المغول من آسيا الوسطى حتى استقروا في شمال غرب الأناضول فإنهم قد اعتنقوا الإسلام مثلهم مثل السلاجقة إذا ما جارينا أصحاب الرأي الأول، أو أنهم قد تعرفوا عليه واعتنقه بعضهم خلال فترة الهجرة التي لم تكن قصيرة والتي كانت بين العناصر الفارسية المسلمة. بل إن الرأي الراجح أن الإسلام كان قد انتشر بينهم في منطقتهم الأصلية في آسيا الوسطى منذ القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) حيث تؤكد مصادر الأدب الفارسي عن انتشار جماعات الفتوة التي كانت تعتنق الإسلام بين الترك في آسيا الوسطى مثل جماعة العيّارين في جنوب منغوليا في هذه الفترة[١].

ويرى البعض أن الكثيرين من سكان آسيا الوسطى من الأتراك الذين كانوا يدينون بالديانة الشامانية والبوذية والمانوية قد ناسبهم ما في الإسلام من واقعية ونزوع إلى الحياة العسكرية والفتوة التي كانت تلتقي

---

(١) صدقة بن أبي قاسم: سمك العيّار. ترجمة د. محمد فتحي الريس القاهرة، ١٩٨٣م.

والعيارون هم جماعة من جماعات الفتوة اتصفت بطباع حميدة كالكرم والشجاعة والإقدام وغير ذلك وكانوا يجمعون ما يستطيعون بالقوة من الأغنياء ويوزعونها بمعيار عادل على الفقراء، وعرفت هذه الجماعات في الأناضول باسم الآخيين وسنتحدث عنها بعد ذلك في هذا البحث. وعن تحول آلاف من الترك من البوذية والمسيحية إلى الإسلام انظر: أرمينيوس فامبري: تاريخ بخارى. ترجمة: د.أحمد محمود الساداتي، القاهرة سنة ١٩٦٥م، ص ١٢٠.

مع طباع بيئتهم والتي تقابل فكرة الجهاد والجنة التي وعد الله بها شهداء الحرب. في حين يرى البعض الآخر أنه لا يوجد دليل على ذلك وان انتشار الإسلام في هذه المناطق قد تأثر بنزوح كثير من دراويش الصوفية إليها والذين كانوا يركزون في أسلوبهم لنشر الإسلام على التخويف من العذاب أكثر من تركيزهم على فكرة الجهاد وثواب الجنة، وبأسلوب غير مستفز لعقائدهم القديمة أو تقاليدهم الاجتماعية[1]. فبدأوا اعتناقه بشكل فردي قبيل القرن العاشر، وازداد عدد معتنقيه بعد نجاح المسلمين في دخول بلادهم، وبناء مجموعة من المساجد أسهمت في إسلام أغلبهم في القرن الحادي عشر[2].

ولما كانت هذه الدلائل تؤكد اعتناق الأتراك العثمانيين للإسلام قبل دخولهم الأناضول من جهة، في حين أعلن عثمان إسلامه على يد أحد شيوخ الصوفية المحليين في الأناضول من جهة أخرى فإننا ينبغي أن نفرق بين اعتناقهم للإسلام، وبين إعلانهم لهذا الاعتناق الذي كان من الواضح أنه يرتبط بأهداف سياسية لا دينية نوضحها فيما يلي:

أولا: إن «إده بالي» أو «أدب غالي» - حسبما يرد إسمه في المراجع العربية - الذي تزوج عثمان ابنته كان إلى جانب كونه شيخاً

---

(١) و. بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى. ترجمة: د. أحمد السعيد سليمان. ص ٦٩.

(٢) و. بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ٥٨، ٥٩؛ عبد الحق عدنان اديفار: تفاعل الفكر الإسلامي بالفكر الغربي في تركيا، بحث منشور في كتاب الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته سلسلة الألف كتاب، العدد (١١٦). ص ١٩١، ١٩٢. وحتى لو جارينا الأساطير لأدركنا أن قراءة عثمان للكتاب تعني أنه كان على علم بالثقافة العربية الإسلامية قبل مجيئه للأناضول حيث كان جديد عهد فيها. ولم تتح له الظروف فرصة تعلم هذه الثقافة. وانظر:

Kushner, David: The rise of Turkish Nationalism, 1876-1908, p. 2.

لإحـدى الطرق الصوفيـة شخصيـة مؤثرة عـلى مجموعـة من الآخيين من أصحاب الحرف الذين كانوا يعلنون حماسهم للجهاد وهم في حقيقة الأمر يسعون لرواج حرفهم، وكان عثمان يدرك أن هذه الجماعات ستعينه على تدعيم مكانته وتحقيق طموحه في السعي للاستقرار حيث لم يكن يستطيع أن يحقق ذلك بفرسان قبيلته وحدهم الذين لم يزد عددم على أربعمائة فارس، لذلك وجد عثمان أنه من الحكمة أن يعلن إسلامه على يد «أدب غالي» وأن يتزوج ابنته فكان هذا بمثابة عهد بينهما وأصبح عثمان يمثل القوة الحربية والسياسية في حين مثل الشيخ «أده بالي» القوة الدينية المدعمة له إلى جانب امداده بالمجاهدين.

ثانيا: إن عثمان قد أصبح حاكماً اقطاعيا منذ بداية وجوده في منطقة أسكود في شمال غربي الأناضول شأنه في ذلك شأن بقية أمراء السلاجقة، وأن فرسان قبيلته قد ظلوا على ولائهم له بصفته شيخ قبيلتهم وأن اعتناقهم الإسلام على منهج التصوف، كما كـان سائـدا في بقيـة الإمـارات السلجوقيـة وبقيـة المنـاطـق الإقطاعية في العالم الإسلامي لن يقلل من سلطته بل على العكس سيدعمها، ولهذا اتسمت سياسة العثمانيين منذ البداية بتشجيع التصوف وساعدت على انتشار طرقه حرصاً على تدعيم حركة الجهاد والحفاظ على سلامة النظام.

ثالثاً: إن إعلان عثمان لإسلامه، وأخذه بنظام الحكم الإسلامي أو محاولته صبغ حكمه به لم يكن ليقلل من سلطته المطلقة على قبيلته وأتباعه حيث كان شكل نظام الحكم الإسلامي الذي كان سائداً في هذه الفترة يلتقي مع نظام الحكم القبلي، وهو أمر دعا المؤرخ الإنجليزي توينبي لأن يؤكد بأن العثمانيين قد حُكموا

وحكموا الشعوب التي خضعت لهم بأسلوب بيئتهم الأولى في أواسط آسيا، وأدى اعتناقهم للإسلام لكسب الصفة الثيوقراطية التي لم تغير من هذا الأسلوب شيئاً[1].

رابعاً: إن هذا الإعلان لم يكن يغير من أسلوبه في السعي للتوسع والاستقلال بل على العكس سيضفي عليه صفة الجهاد والفتح بدلا عن السلب والنهب والقتل وغير ذلك.

خامساً: كان عثمان يريد بهذا الإعلان أن يؤمن ظهره من جهة الإمارات السلجوقية إذا ما وجه قوته للتوسع على حساب الدولة البيزنطية، فضلا عن أنه سيضفي على إمارته شيئاً من الشرعية إذا ما سعى للسيطرة على الإمارات السلجوقية الضعيفة، وهذا ما حدث بالفعل حين قام المغول بالقضاء على دولة الأتراك السلاجقة سنة ١٣٠٠م التي أعقبها وفاة الأمير علاء الدين سنة ١٣٠٧م فأعلن عثمان - كبقية الأمراء المحليين - استقلاله.

أما عن شكل الإسلام الذي اعتنقه الأتراك في آسيا الوسطى فكما سبق التوضيح قد تم قبولهم له على يد مشايخ ودراويش الصوفية، ولم يكن يعني قبولهم لهذا الدين تخلصهم أو تخليهم عن كثير من العادات والتقاليد والمعتقدات القديمة كالشامانية والبوذية والهندوكية والمانوية والزردشتية واليهودية والمسيحية. كما أن العناصر المحلية في الأناضول قد تأثرت بعديد من العقائد اختلطت فيها المعتقدات الشيعية التي تأثرت بها عناصر الأتراك الذين وفدوا عبر الأراضي الفارسية،

---

(١) د. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، جـ ١ ص ٥١، ص ٥٤.

والمعتقدات السنية التي حملتها العناصر العربية والتي حوت عدة اتجاهات، وأدى اختلاط هذه الاتجاهات إلى تكوين مزيج من المعتقدات أثرت في الإسلام الذي اعتنقه أهل هذه المنطقة عند مجيء العثمانيين[1]. وقد انتشرت بينهم العديد من الطرق الصوفيه ومن أهمها الطريقة المولوية أو الجلالية التي أسسها الشاعر الفارسي جلال الدين الرومي والرفاعية والخلوتية واليسوية والقلندرية التي أثرت في بعض الأتراك العثمانيين قبل وصولهم إلى الأناضول وذلك لكونها قد نشأت في منطقة خراسان وأثرت في أغلب المناطق المجاورة لها.

ولا يمكن الحسم بأن هذه الطريقة قد تأثرت بالمذهب الشيعي بشكل واضح لكنها قد أثارت الطرق الصوفية السنية لغرابة طقوسها، ولما دعت إليه من إباحية إلى جانب المظهر الشاذ لأتباعهم وهو ما دعا كثيرين من صوفية الأناضول أن يتهم أهلها بالزندقة أو بالهرطقة[2]. وقد ابتعد عنها العثمانيون وهجروها إلى طرق أخرى كالمولوية ثم البكتاشية بعد استقرارهم في الأناضول، ويبدو أن انتماء أغلبهم إلى هذه الطريقة في البداية ثم التحول عنها هو الذي دعا بعض الصوفية السنيين أن يعتبرهم وثنيين وهو الأساس الذي جعل مؤرخا مثل «جيبونز» لأن يراها فترة تحول من الوثنية إلى الإسلام[3].

---

(١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ص ١٥.

(٢) محمد فؤاد كوپريلي: قيام الدولة العثمانية ص ١٧١ ص ١٧٢؛ ابن العجمي، محمد بن حسن: خبايا الزوايا، محفوظ رقم «٧» مخطوط بمكتبة الحرم المكي، نسخ عبد الستار دهلوي سنة ١٣٢١ هـ ص ١٩٣، ١٩٤ حيث يذكر في ترجمته للشيخ حسين المجذوب الهندي (ت- ١٠٨٠هـ) الذي كان على الطريقة القلندرية أن أهل هذه الطريقة قد بنوا أمرهم على طيبة القلب بالحضور، وأكثرهم ما يستتر بتعاطي ما يستقبح كاللامتنية، وقد لا يشاهد منهم من يواظب الصلاة فضلا عن النوافل.

(٣) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ص ٣١.

واذا كان الأتراك العثمانيون قد تحولوا - كما سبق التوضيح - منذ بداية وجودهم في شمال غربي الأناضول عن طريقتهم الصوفية إلى طريقة محلية فان أشهر الطرق المحلية كالمولوية ثم البكتاشية كانت هي الأخرى أكثر إباحية. لكنها كانت لا تلقى نقدا من العناصر الصوفية المحلية[١]، ولهذا فإن هذا التحول كان بغرض كسب ود هذه العناصر المحلية أكثر منه سعياً للتميز بين الطرق وهو أمر يتضح من مساعدتهم لأهل طريقتهم الأولى «القلندرية» على الاستقرار وضمان حمايتهم وعدم الاعتداء عليهم، كما أن الشدة التي قوبلت بها هذه الطريقة من العناصر المحلية كانت ترجع في الأساس لتمردها على النظام الاجتماعي والأخلاقي أكثر من ميولها الإلحادية أو أفكارها الشيعية[٢].

وننتقل إلى نقطة أخرى وهي دور العناصر الإسلامية في تأسيس الكيان العثماني.

فمما لا شك فيه أن جماعات الدراويش الصوفية قد لعبت الدور الرئيسي في تأسيس هذا الكيان، وإذا كان المؤرخ التركي «محمد فؤاد كوپريلي» قد أكد بالأدلة على دور هذه العناصر في معرض رده على

---

(١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ص ٣١.

(٢) محمد فؤاد كوپريلي: المرجع السابق ص ١٧٣، ص ١٧٥، وكانت الطريقة المولوية أو الجلالية التي أسسها الشاعر الفارسي جلال الدين الرومي قد حوت الكثير من الأفكار الشيعية برغم أنها كانت طريقة سنية في العلن، ومن جهة أخرى فقد وجدت العديد من الاتجاهات الإباحية الإلحادية لدى بعض شيوخ الصوفية كالشيخ إبراهيم حاجي والشيخ طابدق وغيرهما وكان لكل شيخ أتباع كثيرون أسهموا مع الترك في تأسيس دولتهم. ويرى البعض أن العداء بين الترك والفرس لم يكن منذ بدايته مذهبياً (شيعه وسنة) ولكن كان عداء تاريخياً. انظر: د. حسين مجيب المصري: صلات العرب والفرس والترك، الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٤م، ص ٣٩١ وما بعدها، كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤٤...

المؤرخ الإنجليزي «جيبونز» الذي يرى أن العناصر المسيحية التي أسلمت هي التي كان لها الدور الرئيسي أكثر من العناصر الإسلامية وبخاصة في التنظيمات الإدارية الداخلية وكذلك عناصر الإنكشارية التي لعبت دوراً رئيسياً - في رأي جيبونز - في حركة التوسع وتكوين الإمبراطورية[1] إلا أن المؤرخ التركي قد فرق بين عناصر الدراويش وعناصر الآخيين وجعل لكل منها دوره المميز في حين أن هذه العناصر كانت من الصوفية أيضاً.

فحين استقر المقام بالأتراك العثمانيين، في منطقة اسكود في الشمال الغربي من الأناضول لم تكن هذه المنطقة خالية تماماً من السكان وإنما كان بها عناصر خليطة أغلبها من الأتراك وكان من بينها «إده بالي» الذي كان يتزعم مشايخ الطرق الصوفية[2]، كما أن العثمانيين قد سمحوا لكثيرين من العناصر الصوفية المهاجرة والتي لم تستوعبها الإمارات السلجوقية الأخرى بدخول منطقتهم بقصد معاونتهم على الاستقرار والتوسع، ومن هذه العناصر - المحلية والوافدة - تكون الشعب العثماني، وقد غلب على هذه العناصر أسلوب الفتوة الذي يتصل بطبيعة بيئتهم الأولى قبل هجرتهم وفرضته ظروف السعي للإستقرار والتوسع

---

(١) لا يمكن تصور نجاح تأسيس الكيان العثماني ثم تحمسه للإسلام أن يقوم على عناصر جديدة العهد بالإسلام أو دخلت في هذا الدين بالإكراه، وإذا كانت دوافع الاستقرار قد دعت عثمان لاستخدام أحد القادة البيزنطيين المرتدين عن المسيحية فلم تكن هذه ظاهرة عامة فضلاً عن أن عثمان قد استغل ارتداده من المسيحية وخبرته الحربية.

د. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق جـ ١ ص ٤١.

(٢) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية. ط ٨ سنة ١٩٧٩م ص ٤٠٨.

ومجاورة الدولة البيزنطية وسموا بالآخيين[١].

وكانت عناصر الآخيين قد ازدادت في الأناضول، وتكون منها العديد من طوائف الحرف والصناع، وقد أثارت هذه العناصر الرحالة المغربي ابن بطوطة حيث وصفهم بأنهم «لا يوجد في الدنيا مثلهم احتفالا بالغرباء والأخذ على يد الظلمة وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر، ووصف حياتهم بأنهم يخدمون بالنهار في طلب معايشهم ويشترون بما يكسبون الفواكه والطعام لهم ولضيوفهم ثم يغنون ويرقصون ويعودون إلى صناعتهم في اليوم التالي وهكذا، كما وصف زواياهم بأنها كانت «مفروشة بالبسط الرومية الحسان وبها كثير من ثريات الزجاج العراقي وفي المجلس خمسة من البياسيس» «منارة من نحاس» إلى غير ذلك[٢].

وقد انتشرت بينهم الطرق الصوفية بشكل جعل هناك التقاء بين وظيفة شيخ الحرفة وشيخ الطريقة[٣]، وقد وضع لهم العثمانيون أنظمة

---

(١) الآخيون تعني في رسائل الصوفية (أخوة أو إخوان) ويرى المستشرقون أنها لفظة تركية من لفظ (آقي) بمعنى السخي لكن الباحثين يرون أن جماعات الغزاة والفتيان والعيارين والآخيين جماعات واحدة تختلف أسماؤها بين البيئات وباختلاف العصور، انظر رأي:

Wittek, P.: The Rise of the Ottoman Empire, London, 1939, p. 16, 20, 35.

وانظر أيضا: محمد علاء منصور: جماعات الفتوة في العصرين السلجوقي والعثماني في مصادرها الفارسية، رسالة دكتوراه غير منشورة. آداب القاهرة سنة ١٩٨٢م ص ٦، ص ٦٩.

(٢) ابن بطوطة: تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - دار الكتاب اللبناني ص ١٩٠، ١٩١. ويلاحظ أن ابن بطوطة في مديحه للآخيين كان متأثراً بانتمائه الصوفي من جهة ولتأثره بالصراع المسيحي الإسلامي في بلاد المغرب من جهة أخرى.

(٣) د. أحمد أمين: الفتوة في الإسلام. القاهرة إبريل سنة ١٩٥٢م ص ٥٧، ٥٩ حيث يشبه هذه العناصر بنقابات العمال.

بين العامل وصاحب العمل قريبة من علاقة المريد بالشيخ[1] وقد ازداد عدد هذه العناصر الأمر الذي يؤكد ما ذهب إليه كوپريلي من أنهم لم يكونوا عزابا وإنما أقبلوا على الزواج، وأدت هذه الزيادة إلى تدرج سيطرتهم على النواحي التجارية والحرفية فأصبحوا من أصحاب الثروات وهو أمر أسهم في سيطرتهم على كثير من النواحي الإدارية في الدولة[2].

وإلى جانب هذه العناصر التي كانت تعيش في المدن، وكانت بمثابة بورجوازية صغيرة جاء دور الدراويش الوافدين تحت اسم الجهاد وهم يطلبون الاستقرار والعيش، وكان دورهم في الغالب في الريف حيث تملك الأتراك العثمانيون الاقطاعات وتكونت حول زواياهم العديد من القرى[3].

ولما كانت هذه الفئات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالطرق الصوفية، فإنها لم تهدد نفوذ النبلاء والإقطاعيين في الكيان العثماني كما كان في إمارات السلاجقة. لذلك نجد المزيد من تشجيع هؤلاء النبلاء لشعراء التصوف البارزين من أمثال «أحمد يسوي» مؤسس الطريقة اليسوية التي انتشرت في الأناضول في القرن الـ ١٣، وبالتالي فإن الطرق الصوفية قد شملت كافة شرائح المجتمع أرستقراطية وبورجوازية وعامة، وحافظت بذلك على النظام، كما أن الخلاف الذي كان بين الطرق كان في الأسلوب،

(١) محمد فؤاد كوپريلي: المرجع السابق ص ١٠٩، ص ١١٠ ويرجع المؤلف عدم ثورة هذه الطوائف لتلك الأنظمة أو ما أسماه بالمبادىء الأخلاقية، وحين اتسع نطاق هذه الطوائف خرجت منها جماعات قوية سميت بالإخوان، استطاعت السيطرة على مقدرات الدولة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وبخاصة بعد انضمام كافة الحرف إليها فضلا عن انتماء كثيرين من رجالات الدولة والعلماء والمشايخ.

(٢) د. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق جـ ١ ص٦٢، محمد فؤاد كوپريلي: المرجع السابق ص ١٦٠.

(٣) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ص ٢٩.

وكانت الطبقة الوسطى أكثر تقبلاً لعديد من اتجاهات الطرق كالرفاعية والمولوية وغير ذلك[1]. كما كانت أكثر الفئات حماسا لتأسيس الدولة وتوسعها ويرجع ذلك لقيامها باستثمار غنائم المجاهدين ولاتساع وزيادة حرفها وتجارتها في المدن المفتوحة[2]، ولهذا تكونت منها طلائع الفرسان في الجيش العثماني وبعض عناصر المشاة[3].

وكانت جماعات الدراويش في الريف مدفوعة للجهاد لتوسيع رقعة الأرض الزراعية لتحسين مستوى معيشتها ولاستقرارها إلى جانب حبها للفتوة والجهاد من أجل الدعوة للدين، ولذلك التقت كافة الشرائح على دفع الأتراك للاستقرار والتوسع على حساب الدولة البيزنطية وأسهمت هذه العناصر بالتالي في تأسيس الكيان العثماني[4]، كما أن هذه النتيجة تؤكد مقولة أن العثمانية كانت أساساً دينياً سياسياً وليست أساساً جنسياً.

---

(١) محمد فؤاد كوبريلي: المرجع السابق ص ١٦٦، ١٦٧، د. حسين مجيب المصري: صلات بين الغرب - الفرس - الترك ص ٤١٨.

(٢) كارل بروكلمان: المرجع السابق ص ٤٠٨.

(٣) محمد علاء منصور: المرجع السابق ص ٧٩، وقد عرفت فصائل جيش المشاة المشكلة منهم باسم (يايا).

(٤) لعبت جماعة الدراويش في الريف دوراً اجتماعياً بارزاً - وبخاصة في القرن الرابع عشر وتحول بعضهم إلى حرفيين وهم هراطقة الدراويش أو الأبدال وانتشرت بينهم الدعوة البابائية التي تمخضت عن الطريقة اليسوية منذ القرن الثاني عشر ثم انضموا إلى الطريقة البكتاشية. ويرجح أيضاً أن جماعات النساء (باجيان روم) كانت في أغلبها من الحرفيين الصوفيين في المدن أكثر منها من الريف، وشاركت بدورها في تأسيس الكيان العثماني، وظاهرة انضمام المرأة في الطرق الصوفية ظاهرة معروفة وطبيعية في كثير من بلاد العالم الإسلامي.

انظر: محمد علاء منصور: المرجع السابق ص ٧٥.

وانظر أيضاً: د. أحمد صبحي منصور: السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة - القاهرة سنة ١٩٨٣م. ص ٦٤ حيث يذكر عن اتصال أحمد اليسوي بالسيد أحمد الرفاعي وكذلك صلة الأبدال بالرفاعية.

جهود العثمانيين في نشر الإسلام في شرقي أوروبا

على الرغم من أن ظروف نشأة الكيان العثماني السياسية قد فرضت عليه ضرورة رفع راية الإسلام والتركيز على إبراز الطابع الديني له، إلا أن أيًّا من المراجع لم يشر إلى وجود مؤسسات للدعوة له وبالتالي لم تكن هناك وسائل واضحة لنشره في المناطق المفتوحة حتى القرن السادس عشر على الأقل.

ويرجع ذلك في المقام الأول إلى أن إسلامهم لم يكن واضح الهوية حيث جعلته الطرق الصوفية خليطا بين عديد من العقائد الموروثة، ولم يكن مذهباً جديداً يدعوهم لصبغ دولتهم به أو السعي لنشره وإنما اتبعوا النمط الديني الذي كان سائدا قبلهم والذي كانت العناصر المسيحية المحلية والمجاورة تعرفه وتحارب كياناته السياسية.

وإذا كان بعض الكتّاب المعاصرين للتوسع العثماني في البلقان قد أشار إلى وجود جماعة تسمى جماعة الدعوة إلى الدين، قامت بدور في نشر الإسلام في هذه المناطق وخاصة ألبانيا، فإن هذه الجماعة لم تكن تابعة للدولة ولكنها كانت عبارة عن جماعة من دراويش الطريقة البكتاشية هاجرت في أعقاب الجيوش واستقرت في هذه المناطق، كما

استقرت مجموعات أخرى منها في كثير من مناطق البلقان[1]. وإذا كانت قد حققت نجاحاً محدودا في تحويل بعض المسيحيين في هذه المناطق إلى الإسلام فإن ذلك لا يرجع إلى قوتها في الدعوة أو قدرة أبنائها على إقناع هذه الشعوب بالإسلام حيث إن «جموع الصوفيين لم يتلقوا دراسات علمية منتظمة أو محترمة» بقدر ما كان يرجع إلى ما احتوته تعاليمها من إباحية وانحلال شجعت كثيرين من هذه العناصر على قبول الدخول في حوزة الدولة والدين معا[2] ولم يكن للمساجد - من خلال الوعاظ - أي دور في هذا الميدان حيث لم يكن هؤلاء الوعاظ على مستوى علمي يمكنهم من هذه المهمة وكذلك المدارس التي أسسها العثمانيون والتي لم تكن تستوعب أبناء المسلمين[3].

على أن ذلك لا يعني تجريد سلاطين العثمانيين من حماس نسبي لنشر الإسلام وبخاصة بعد استقرار نظامهم السياسي، وبدأ ذلك الحماس في سياسة التسامح التي اتبعها أغلبهم مع العناصر المسيحية. أما في فترة وجودهم في الأناضول فقد انتشر الإسلام ببطء شديد لسيادة الديانة المسيحية من جانب وعدم وضوح سياسة التسامح التي اتبعها بعضهم من جانب آخر، وظلت هكذا حتى القرن الثالث عشر حيث تؤكد ذلك زيادة نسبة الجزية في ميزانية الدولة، كما أن حركة التتريك لم تسر سيرا موازيا لانتشار الإسلام حيث قبل بعض المسيحيين الإسلام، مع

---

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٢٠٧، د. محمد موفاكو: البكتاشية: مجلة العربي العدد ٢٢٠ مارس سنة ١٩٧٧ م.

(٢) محمد علاء منصور: المرجع السابق ص ٧٥، وعن ارتباط البكتاشية بالحركة الوطنية الألبانية انظر: د. محمد موفاكو: المرجع السابق ص ٦٤-٦٨، د. الشناوي - المرجع السابق جـ ١ ص ٤٤١.

(٣) د. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق جـ ١ ص ٤٤٧-٤٤٨.

الاحتفاظ بلغتهم، وقبل بعضهم اللغة مع احتفاظه بدينه، وهو أمر يدعو الكثيرين إلى استنباط التزام الأتراك - إلى حد كبير - بعدم الإكراه في الدين[1]، وهي سياسة وإن كانت نابعة من ضعف ثقافتهم الدينية أكثر من قناعتهم الدينية بها، إلا أنها تؤكد سماحتهم الدينية مع غير المسلمين.

ومن أبرز السلاطين الذين سلكوا سياسة السماحة مع الرعايا المسيحيين السلطان محمد الفاتح حيث أعلن نفسه حاميا للكنيسة الأغريقية وحرّم اضطهاد المسيحيين وأكد حقهم في التمتع بالامتيازات القديمة وسلم بطريركها الأسقفية ومنحه حق الفصل في قضايا رعاياه وجعله واحداً من كبار رجال دولته مما جعل الكثير من المسيحيين الإغريق يرحبون بسيادة الأتراك على الكاثوليك المراطقة[2] وإن كان هذا يفسر على أنه محاولة لاستجلاب ولاء هذه العناصر ومساهمتها في النظم الإدارية أكثر من الحرص على تغيير ديانتها.

وكانت الجزية ومجموع الضرائب التي فرضها العثمانيون على رعاياهم المسيحيين أقل بكثير من التزاماتهم تجاه الإقطاعيين في بعض فترات الحكم البيزنطي، ومنح الأتراك العمال الزراعيين المسيحيين حرية شخصية وإمكانية التمتع بنتاج عملهم على غير ما كانوا عليه في ظل الإقطاع البيزنطي حرصا على تدعيم النواحي الاقتصادية بشكل عام والجزية بشكل خاص، وحاول الأتراك من أجل هذا ترويج الحياة الاقتصادية فعبدوا الطرق وبنوا الكباري في بعض الموانىء الإغريقية مما كان له أكبر الأثر في رواج الصناعة والتجارة في الموانىء ومنحوا تجارها

---

(١) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١١٠.
(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ١٧٠.

حرية التجارة مع كافة الموانىء العثمانية الأخرى مما جعل الطبقة البورجوازية إلى جانب عامة المزارعيين تتحالف تحالفا كاملا مع الأتراك(١).

وحين منح العثمانيون امتيازات موسعة للمسلمين الذين كانوا ينخرطون في سلك الجندية أو في دواليب الدولة لم يتقيدوا بالجنسية التي ينتمي إليها المسلم مما أدى إلى تشجيع كثير من العناصر المسيحية على اعتناق الإسلام في القرى والكليات أو المدارس الكبيرة في المدن وفتحوا قصورهم لتعليم أصول الخدمة العامة وقبلوا في هذه المدارس رعاياهم من مسلمين ومسيحيين دون أدنى تفريق في المعاملة مما دفع كثيرين من الرعايا إلى تقبل الأوضاع الجديدة واعتنق بعضهم الإسلام(٢).

وسلك الأتراك سبلا أخرى لإغراء المسيحيين على اعتناق الإسلام كإغراء الزائرين بفتح بلادهم لهم، والاحتفال بمن يعلن اعتناقه للإسلام وإمداده بكل ما يعينه على الحياة والابتهال به في المساجد، والحرص على إظهار تمسكهم بالدين، والتواضع في أداء الشعائر وغير ذلك من الأساليب والمظاهر التي أغرت كثيرين من المسيحيين على اعتناق الإسلام(٣).

كما أن بعضهم قد سلك سياسة اللين في معاملة الرقيق من المسيحيين

---

(١) توماس أرنولد: الدعوة الى الإسلام ص ١٧٠.

(٢) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ٤٠ محمد فؤاد كوبريلي ص٢٧، ٢٨ حيث يذكر عن تأسيس مدارس للفقه في بروسه ونيقية وغيرها واستجلاب عناصر من الخارج، يرجح أن تكون عربية - لهذا الغرض مما كان له الأثر في اتساع الثقافة الإسلامية.

(٣) توماس أرنولد: المرجع السابق، ص ١٨٤، ١٨٥.

حيث كانوا يعتقونهم إذا ما ثبت إخلاصهم حتى ولو ظلوا على دينهم ويتولون رعايتهم وبخاصة كبار السن منهم بعد العتق فضلا عن حسن معاملة من يسلم منهم أو من يظل على دينه مما كان دافعا لهذا القطاع على اعتناق الإسلام[١].

وحين أقبل كثيرون من الأتراك على الزواج من مسيحيات حرمت الكنيسة دخولهن فيها مما حدا ببعضهن إلى اتباع دين أزواجهن، كما أن اللاتي بقين على المسيحية وقعن بتعميد أبنائهن في الكنيسة لم يلاقوا - في الغالب - معارضة من الأزواج مما خلق روحا من الود أثار إعجاب البعض فتشجع على الدخول في الإسلام[٢].

وحاول الكثيرون من العناصر المسيحية التي وجدت مصلحتها في اعتناق الإسلام إغراء ذويهم من المسيحيين على الإقبال على هذا الدين مما دفع بعض الكتاب المسيحيين لأن يعتبرهم قدوة سيئة دفعت عدداً كبيراً لتغيير ديانتهم، بل ومساعدة الدولة دون التقيد بتغيير الدين[٣].

كما اتبع بعض العثمانيين أسلوبا آخر كان ظاهره السعي لإيجاد توازن اجتماعي حيث قاموا بنقل عناصر إسلامية إلى أوروبا الشرقية ونقل عناصر من أوروبا الشرقية إلى الأناضول لكن ذلك ساعد على انتشار الإسلام بين هذه العناصر بشكل تدريجي[٤].

ويورد «نورمان بينز» أحد الأساليب - المنفردة في رأيه - التي

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٧، ٢٠٨.
(٣) المرجع السابق: ص ١٩٦، كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية، ت: بدر الدين القاسم ص ٢٧٤-٢٧٥.
(٤) كلود كاهن: المرجع السابق ص ٢٧٥.

سلكها بعض العثمانيين في سبيل نشر الإسلام حيث كانوا يرقصون ويغنون ويرددون في أصوات غير مفهومة أغاني - وتراتيل - محمد عليه الصلاة والسلام - وهي أساليب صوفية - فصرفوا الناس الموجودين في الكنيسة - التي كانوا أمامها - عن عبادتهم مما أدى إلى نمو شعور عدائي للإسلام، واعتبر ذلك - وهو أمر مبالغ فيه - أسلوباً عدائياً[1].

ولما شرع السلطان مراد الأول في اتباع سياسة الأفراج عن الأسرى إذا هم اعتنقوا الإسلام، أسهم في زيادة عدد المسلمين، لكنه مع ذلك كان إسهاماً محدوداً مما دفعه إلى التوسع في تأسيس جيش الإنكشارية[2].

ويرى البعض أن أسلوب الإنكشارية سوءة أساءت إلى سياسة التسامح الديني التي اتسم بها جانب من التاريخ العثماني وبخاصة في الفترة من القرن الثالث عشر وحتى السادس عشر[3]، كما يرى البعض الآخر أنها كانت وسيلة لتدعيم القوة العثمانية قبل أن تكون وسيلة لنشر الإسلام وبخاصة في فترات الضعف[4]، في حين كان يغلب عليها هدف السعي لنشر الإسلام في فترات القوة[5].

---

(١) نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة: د. حسين مؤنس وآخرين ص ٣٩٧.
(٢) محمد فؤاد كوبريلي: المرجع السابق ص ٨، ٩.
(٣) توماس أرنولد: المرجع السابق ص ١٧٥.
(٤) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق ص ٤١، ٤٣ لم يزد عددهم حتى عهد محمد الفاتح عن ١٢٠٠.
(٥) محمد فؤاد كوبريلي: المرجع السابق ص ٤٠٩ د. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١ ص١٧١، وقد تولى مشايخ البكتاشية تعليم هؤلاء الغلمان التعاليم الإسلامية، انظر: د. عبدالعزيز الشناوي: المرجع السابق ص٤٨٠، ٤٨١.

وقد بدأ الأخذ بهذه الوسيلة في عهد أورخان، وعرفت بنظام «الدوشرمة» فكان مندوبو السلطان يجوبون الأراضي المفتوحة لجمع الأطفال في سن السابعة ثم تدريبهم في مدارس تعد لهذا الغرض على اعتناق الإسلام والجندية والمهام الإدارية[1].

وعلى الرغم من التسليم - نسبياً - بتنافي ذلك مع الإنسانية إلا أن الأتراك لم يكونوا أول من ابتدع هذا النظام بل وجدت ظاهرة جمع الغلمان في الدولة البيزنطية، كما أن جمع الأتراك لهم كان في أغلبه نوعا من الإيواء بعد أن أصبح كثيرون منهم من اليتامى والمحتاجين بسبب الحرب، وكذلك كان بعض الآباء غير القادرين لا يمانع في تسليم أبنائهم لما كانوا يرونه من مكانة لجنود الإنكشارية في حين كان القادرون يستطيعون افتداء أبنائهم بشراء غيرهم حتى من بين أبناء المسلمين غير القادرين ويسلمونهم على أنهم من أبناء المسيحيين، كما أن كثيراً من المدن والجزر كانت معفاة من هذه الضريبة لاتفاقها على ذلك في معاهداتها مع الدولة أو لشرائها هذا الحق[2].

وكما لعبت العوامل الاقتصادية دوراً رئيسياً في انتشار الإسلام في نظام الإنكشارية لعبت دوراً آخر بين العامة الفقيرة في منطقة البلقان حيث لم تستطع جموع كبيرة منها على الوفاء بضريبة الرأس على الرغم من أنها كانت بسيطة ومحدودة، والتي كانت تجبي منهم مقابل الحماية والإعفاء من خدمة الجيش[3].

---

(١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٤١.

(٢) توماس أرنولد: المرجع السابق، ص ١٧٦، ١٧٧.

(٣) المرجع السابق: ص ١٨٠.

ومن العوامل الهامة التي ساعدت على انتشار الإسلام في البلقان تعسف الإقطاعيين المحليين في فرض الضرائب الباهظة التي زادت في بعض الأحيان عما كان يفرضه الأتراك، كما أن كبار رجال الدين من الإقطاعيين قد باعوا أسرار الكنيسة ووظائفها من جهة وسعوا لتوثيق علاقاتهم بالنظام التركي - بعد الغزو - من جهة أخرى. وحرصا من هذه الطبقات على النظام الذي ينعمون فيه بنصيب وافر من الثراء والمكانة أبدى كثيرون منهم الميل لاعتناق الإسلام[1].

كما أسهم الصراع المذهبي بين الطوائف المسيحية في دفع جموع كثيرة من المضطهدين لاعتناق الإسلام وبخاصة الجماعات الثائرة على النمط الكنسي القديم كبقايا هراطقة البوليشية، وكذلك الذين اتبعوا مبادىء المصلح الديني السويسري كلفن والذين لجأوا إلى الأراضي التابعة للدولة العثمانية، ووصل أحدهم إلى كرسي البطريركية في القسطنطينية، وكان لهؤلاء دور في محاربة الصور والتماثيل وطرح رؤيا في القضاء والقدر والوحدانية، وأدى هذا إلى تهيئة العقول وتقريبها إلى بعض المبادىء الإسلامية مما سهل عملية اعتناق بعضهم الإسلام ومن بينهم بعض الرهبان والقساوسة.

وقد توسع الأتراك في المنح والعطايا والتقدير لرجال الدين الذين أقبلوا على الإسلام كي يسهموا بدورهم في دفع العامة إلى هذا الاتجاه[2]. وأبدى كثيرون منهم إخلاصا شديداً للسلطان العثماني فيما بعد

---

(١) المرجع السابق: ص ١٨٧، ص ٢٢٢ - ٢٢٤، بل وساعد بعضهم على نشره مستغلين ما كان لهم من نفوذ.

(٢) توماس أرنولد: المرجع السابق ص ١٨٧، ٢٢٢، وقد ذكر نقلا عن ياقوت الحموي - أن بعضهم - وخاصة العرب - قد أرسلوا إلى حلب للتعرف على التعاليم الإسلامية.

لدرجة أن أحد بطاركة القسطنطينية قد أقنع السلطان بأن الرعايا المخلصين له من المسيحيين هم فقط الذين يتحدثون اليونانية مما دفع السلطان لإصدار فرمان بعدم التحدث بغير اليونانية وتحول على أثر ذلك القرار قرابة أربعة آلاف إلى الإسلام[1].

وأدى إهمال بعض رجال الكنيسة عن متابعة القضايا الاجتماعية - وبخاصة في ألبانيا - إلى عدم اكتراث العامة بتعاليم الكنيسة فأقاموا عقود الزواج بعيدا عنها كما كان عند المسلمين، فحرمتهم الكنيسة من دخولها مما أدى إلى تهيؤ الكثيرين منهم لاعتناق الإسلام[2].

ونخلص من هذا إلى أن إعلان الأتراك العثمانيين للإسلام كانت أهدافه سياسة لا دينية، وأن العناصر الإسلامية التي ساندت الأتراك في تكوين كيانهم السياسي قد حققت العديد من المصالح خلال هذه الفترة مما دعاها لدوام المساندة. كما أن سيادة هذه المصالح والحرص على تدعيم النظام واستمراره - الذي كان يتخذ الإسلام وسيلة - بعكس الفتح الإسلامي على يد العرب - قد أدى إلى انتشار محدود ومشوه للإسلام في شرقي أوروبا وبالتالي لم يكن يتناسب مع فترة الحكم الطويلة التي زادت على أربعة قرون، وأن هذه الأسباب نفسها هي التي دعت لانحسار المد الإسلامي في هذه المناطق إلى حدود ضيقة بعد زوال الحكم التركي.

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٤-١٩٦، وكان هذا في القرن /١٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢١٣، ٢١٦، ٢١٩. وكان بعضهم يقبل على عادة تعدد الزوجات والزواج من تركيات مما سهل عملية اعتناقهم للإسلام.

الفصل الثالث

الوجود العثماني في المشرق العربي
بين الإحتلال والفتح

الوجود العثماني في المشرق العربي بين الإحتلال والفتح

في الوقت الذي اتجه فيه أغلب الكتّاب والمؤرخين من أصحاب المنظور القومي إلى اعتبار التدخل العثماني في المشرق العربي في مطلع القرن السادس عشر غزوا واحتلالا اتجه بعض المؤرخين من أصحاب المنظور الإسلامي إلى اعتباره فتحاً. ومع أن مفهوم أو مصطلح الفتح لم يستخدم من قبل إلا في دخول جيش إسلامي لأراضٍ غير إسلامية إلا أنهم رأوا أن التدخل العثماني لم يكن دافعه التوسع أو السيطرة وإنما كان ضرورياً لحماية المسلمين من مخطط غربي صليبي قادته البرتغال، وأنه لولا هذا التدخل وهذه الحماية لتغيَّر وجه التاريخ الإسلامي في هذه المنطقة، ولفقدت ترابطها واستمرار تراثها الذي يعد من أهم مقومات وحدتها المعاصرة.

وساق المؤرخون القوميون وغيرهم العديد من الأسباب التي تؤكد - أو تبرر - وجهة نظرهم فذكروا أن الفتح العثماني على الساحة الأوروبية كان قد وصل إلى مرحلة من التشبع أو إلى أقصى مدى يستطيعه، وأن القوات العثمانية قد أصبحت في موقف دفاعي لا في موقف هجومي مما دعاها الى التوقف عن مواصلة الزحف على هذه الساحة[1]. واستتبع

---

(١) د. محمد أنيس: الدولة العثمانية والمشرق العربي ص ١٠٢.

ذلك بالضرورة - من وجهة نظرهم - عودة ثقل هذه القوات إلى الساحة الشرقية للتصدي للمشكلات الحدودية مع الصفويين والمماليك، ثم رأت أن الفرصة سانحة أمامها لتحقيق الأطماع التي راودت بعض السلاطين العثمانيين والمتمثلة في تكوين إمبراطورية مترامية الأطراف حول البحر المتوسط وحتى يصبح بحيرة عثمانية(٢).

ويرى هذا الفريق من المؤرخين أنه قد تهيأت بعض الأسباب التي أسهمت في صبغ الدور العثماني بالصبغة الإسلامية يأتي في مقدمتها تصديهم للأطماع البرتغالية في البحر الأحمر وبحر العرب، إلى جانب ردع الخطر الشيعي وحصاره في إيران، فضلا عن نجاحهم في وقف نشاط فرسان القديس يوحنا في البحر المتوسط(٣)، وأنه بغض النظر عن دافعهم في التصدي لهذه القوى إلا أن موقفهم تجاهها كان ضرورياً لتحقيق أهدافهم في التوسع في الشرق العربي، وأنهم قد نجحوا في استثمار هذا النجاح باسم الدين الذي أسهم في خضوع هذه المنطقة لهم على مدى أربعة قرون أو يزيد.

وبداية فإن هناك أدلة عديدة تؤكد أن وقف العثمانيين لفتوحاتهم في أوروبا في عهد السلطان سليم الأول وعودتهم إلى الشرق ترجع في المقام الأول إلى عامل رئيسي هو التصدي للهجوم الصليبي البرتغالي على الأراضي والمقدسات الإسلامية في المشرق العربي، وحصار نشاط فرسان القديس يوحنا في البحر الأبيض المتوسط، وكذلك وقف الخطر الشيعي

---

(٢) د. رأفت الشيخ: تاريخ العرب الحديث ص ٣٧؛ د. ليلى عبد اللطيف: تاريخ مؤرخي مصر والشام في العصر العثماني ص ١٠.

(٣) د. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية، جـ ٢ ص ٦٩٨؛ د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ص ٨٢؛ د. عبد الكريم غرايبة: تاريخ العرب الحديث ص ٣٦.

الصفوي الذي استشرى وأصبح يشكل خطراً عليهم، في حين أن العوامل الأخرى المتمثلة في ضعف القوات العثمانية على الساحة الأوروبية أو وصولها إلى مرحلة التشبع على هذه الساحة، وكذلك رغبة العثمانيين في تكوين إمبراطورية مترامية الأطراف يكون جناحها الشرقي هو المشرق العربي لا تستند إلى دليل تاريخي.

فقد اندفع الأسبان والبرتغاليون بروح دينية صليبية متعصبة ضد الشرق الإسلامي حيث أغرتهم انتصاراتهم الدينية على المسلمين في الأندلس ونجاحهم في طرد المسلمين منها، ولقي اتجاههم هذا تأييداً من البابوية في روما بنفس القدر الذي أثارت به حماسهم طوال حربهم في الأندلس(٤). ونجحت القوات الأسبانية والبرتغالية في احتلال العديد من المراكز والموانىء الساحلية في الشمال الأفريقي مثل سبتة ومليلة وطنجة وأصيلا ووهران وغيرها، ووضعت خططها للإجهاز على بقية هذا الساحل ثم الوثوب منه إلى مصر والجزيرة العربية، وارتفعت الشعارات الحماسية الداعية إلى العمل على إعادة المسلمين إلى صحراء العرب التي انطلقوا منها، بل وذهبت هذه الشعارات إلى حد المناداة بنبش قبر النبي (ﷺ) في المدينة وهدم الكعبة وإنهاء الوجود الإسلامي من أساسه(٥)، لكن هذه المخططات قد واجهت صعوبات شديدة بسبب حركة الجهاد الإسلامي المتمثلة في دور الأخوين عروج وخير الدين بربروسا في البحر المتوسط، وقد لقيت هذه الحركة دعماً قوياً من الدولة العثمانية مما أسهم في استمرار صمودها وتقويتها واستعادتها لعدة مراكز من القوات

---

(٤) د. صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي ص ١٤، د. شوقي الجمل: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ص ١٣٢.

(٥) د. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق ص ٦٩٨، د. أحمد عبد الرحيم: المرجع السابق ص ٨٧، د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص ١٥.

الأسبانية والبرتغالية وهو ما سنلقي عليه الضوء في فصل مقبل من هذا البحث.

وأدى هذا - مع عوامل أخرى - إلى تحويل مسار الدور الأسباني إلى الغرب بدوافعه الاقتصادية والدينية عبر المحيط الأطلسي، ودفع الدور البرتغالي الى الالتفاف حول أفريقيا للوصول إلى الشرق الإسلامي، وهو ما اصطلح على تسميته باسم حركة الكشوف الجغرافية.

وقد تأكدت حقيقة الدور البرتغالي من خلال عديد من المسلمين واليهود الفارين من الأندلس حيث قدموا للسلطان العثماني الخطط التي وضعها البرتغاليون لتنفيذ مخططاتهم العدائية ضد المقدسات الإسلامية مدعمة بالخرائط، وتضمنت هذه المخططات ما يشير إلى تقارب صفوي برتغالي يوضح أطماع الصفويين في المشرق العربي واتجاههم المعادي للدولة العثمانية(٦).

ومما زاد من تأكد العثمانيين من صدق هذه المخططات مسيرة الأحداث نفسها؛ ففي الوقت الذي تدخلت فيه القوات الصفوية واحتلت العراق سنة ١٥٠٨م، ثم ازداد نفوذهم في الشام والحجاز، كان البرتغاليون قد بدأوا بالفعل في تنفيذ مخططاتهم فاصطدموا بالمماليك وهزموهم في معركة ديو البحرية سنة ١٥٠٩م(٧). وبعد عدة أشهر من هذه المعركة تمكن شريف مكة الشريف بركات من القبض على ثلاثة من الجواسيس البرتغاليين داخل مكة سنة ١٥١٠م، وتعرف الشريف منهم على ما يؤكد عزم بلادهم على الاعتداء على هذه المناطق، فأرسلهم إلى

---

(٦) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق ص ٨٢، ٨٣.

(٧) د. أحمد عبد الرحيم: المرجع السابق ص ٧٩، د. بدر الدين الخصوصي: تاريخ الخليج العربي ص ١٤.

السلطان المملوكي في مصر قنصوه الغوري كي يقف بنفسه على حقيقة الأمر(٨).

وفي هذه الفترة كان البرتغاليون قد وصلوا الى مداخل البحر الأحمر، وحاولوا الاستيلاء على عدن ولكنهم لم ينجحوا في ذلك فاستولوا على جزيرة سومطرة سنة ١٥٠٦ م، واستعملوا العنف والحرق ضد السفن والمدن الإسلامية، ولم تنجح القوى المملوكية في مواجهة هذا الخطر(٩). وحاول البرتغاليون احتلال ميناء جدة والوصول الى المدن المقدسة فجهزوا حملة بحرية لذلك لكن عاصفة شديدة قد منعت هذه الحملة من الوصول الى المنطقة(١٠).

وفي جهة الشمال الأفريقي تمكن الأسبان من احتلال ليبيا وتكوين العديد من الدويلات الصغيرة سنة ١٥١٠ م(١١)، وتوالت انتصاراتهم برغم حركة الجهاد الإسلامي، وازداد دور فرسان القديس يوحنا في البحر المتوسط، وقد أدت هذه الأمور الى استنجاد الكثيرين من شعوب هذه المنطقة بسلطان الدولة العثمانية باعتبارها أقوى الدول الإسلامية لدرجة دعت قاضي بجاية وغيره من الفقهاء فيها أن يكتبوا إلى السلطان العثماني قائلين «إن بلادنا لك أو للذئب»(١٢).

---

(٨) د. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق ص ٦٩٨.

(٩) قطب الدين النهروالي: أخبار مكة المشرفة ص ٢٨٤.؛ د. فاروق عثمان أباظة: عدن- السياسة البريطانية في البحر الأحمر ص ٣٧.؛ د. سعد زغلول عبد ربه: البرتغاليون والبحر الأحمر ص ٢٠٩.

(١٠) د. سعد زغلول: المرجع السابق ص ٢١٢.؛ د. جمال زكريا قاسم: الصراعات المحلية والدولية في البحر الأحمر ص ٢٣٣.

(١١) أهدى الأسبان هذه المناطق لفرسان القديس يوحنا سنة ١٥٣٥ م وظلت بأيديهم حتى استردها العثمانيون سنة ١٥٥١ م، د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص ٢٧.

(١٢) د. عبد الكريم غرايبة: المرجع السابق ص ٣٦.

ولم يكن أمام السلطان العثماني كممثل لدولة اعتبرت نفسها دولة إسلامية لا تقل عن الدولة الإسلامية الأولى التي أقامها العرب[١٣]، وأقامت كيانها السياسي الأول وكذلك كافة مراحل تطوره باسم الإسلام وتحت رايته إلا أن يوقف جهوده - مؤقتاً - في التوسع على الساحة الأوروبية ويسرع إلى الشرق لترقب تطورات الموقف والإعداد لمواجهته.

ومع أن هذه العوامل التي تعرض لها المشرق العربي الإسلامي كانت دافعاً - أو مبرراً - قوياً ومقنعاً للتدخل العثماني وبخاصة بعد هزيمة المماليك سنة ١٥٠٩ م، إلا أن العثمانيين لم يخططوا لذلك أو يسعوا له، فقد بادر السلطان العثماني بمساندة الأسطول المملوكي بأسطول عثماني شاركهم في التصدي لهجوم من فرسان القديس يوحنا تسانده قوات برتغالية بالقرب من الاسكندرية سنة ١٥١٠ م[١٤]. كما قام العثمانيون بإرسال معونة عسكرية من المدافع والبارود والمؤن البحرية إلى المماليك سنة ١٥١١ م، وأرسلوا كذلك العديد من بناة السفن والبحارة للمساعدة في إعادة بناء الأسطول المملوكي الذي تحطم في ديو البحرية، وكان الهدف الرئيسي من ذلك هو تعضيد موقفهم للتصدي للمخططات البرتغالية[١٥].

ولم يقف الأمر بالسلطان العثماني عند هذا الحد، إدراكاً منه لخطورة الموقف، بل إنه قبل عرضاً مملوكياً بعقد حلف رسمي بينهما سنة ١٥١٣ م يقضي بالتنسيق بينهما لمواجهة الخطرين البرتغالي والصفوي[١٦].

---

(١٣) د. عمر عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي ١٥١٧-١٩٢٢م ص ٥١؛ د. أحمد فؤاد متولي: الفتح العثماني للشام ومصر، ص ٧٨.

(١٤) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ١٠٩.

(١٥) ابن إياس (محمد بن أحمد): بدائع الزهور، جـ ٤ ص ١٩٦؛ د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق ٨٠، ٨٣؛ د. سعد زغلول عبد ربه: المرجع السابق ص ٢١٠.

(١٦) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق ص ٨٠؛ ابن إياس: المرجع السابق ص ٣٠٨، ٣١٠، ٣١١.

ولا شك أن ذلك التحالف قد أسهم في اطمئنان العثمانيين تجاه المماليك، وجعلهم يوجهون جهودهم للجبهة الفارسية التي كانت قد ازدادت خطورتها، فقد فتح الشاه «اسماعيل الصفوي» بلاده لعديد من الثائرين والمتمردين على السلطان العثماني، وأمدهم بالعتاد والسلاح لمحاربة القوات العثمانية من جهة وليكونوا في مقدمة جيشه حين حدوث صدام كان متوقعاً بينه وبين القوات العثمانية من ناحية أخرى

ومن الأمور التي دعت الشاه «اسماعيل الصفوي» لأن يوجه سياسته إلى العثمانيين في الشمال دون الاهتمام بالمناطق الجنوبية والغربية في الخليج العربي، وهو اتجاه اتسمت به سياسته منذ بداية عهده، أن البرتغاليين قد أبدوا توددا كاملا له بشكل طمأنه على سلامة أراضيه، وكان البرتغاليون يهدفون من وراء توددهم للصفويين أن تتاح لهم فرصة تحقيق أهدفاهم في إيجاد مراكز لهم في الخليج العربي، وكانوا يدركون أنهم إذا لم يكسبوا ود الصفويين فإن تعاون قوتهم مع القوى المحلية في الخليج العربي قد يؤدي إلى فشل البرتغاليين في تحقيق أهدافهم ولا سيما أن مشروعاتهم في إيجاد مراكز نفوذ في البحر الأحمر قد منيت بالفشل إلى حد كبير.

وتبدو سياسة البرتغال الرامية إلى التحالف مع الفرس في رسالة أرسلها «البوكيرك» إلى الشاه «اسماعيل الصفوي» جاء فيها: «إني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو القطيف أو البصرة، وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له كل ما يريد»[١٧].

(١٧) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ،ص ١٧. ؛ بدر الدين الخصوصي: المرجع السابق ص١٨.

وقد تضمن مشروع التحالف البرتغالي الصفوي تقسيم المشرق العربي إلى مناطق نفوذ بينهما حيث اقترح أن يحتل الصفويون مصر والبرتغاليون فلسطين[١٨].

ومن جهة أخرى كان الصفويون قد حاولوا عن طريق بعض العناصر الشيعية الموالية لهم والمنتشرة في الأناضول القيام بثورة داخلية ضد الحكم العثماني السني، وبالفعل تمكنوا من إشعال ثورة بزعامة «شاه قولي» في نهاية عهد بايزيد الثاني أخمدها ابنه سليم الأول في بداية توليه الحكم، وقد أدى ذلك إلى اتخاذ سليم سياسة تتسم بالحذر تجاه العناصر الشيعية الموجودة في بلاده، وسعى لمحاصرة نشاطهم واضطهاد بعضهم اضطهاداً وصل إلى حد القتل. ورد الصفويون على ذلك بإقامة مذابح جماعية للعناصر السنية الموجودة في بلادهم، ثم التحرش بالقوات العثمانية على الحدود، وأدى ذلك إلى التقاء قوات الدولتين في سهل جالديران سنة ١٥١٤م وانتهت المعركة بانتصار القوات العثمانية انتصارا ساحقاً احتلت على أثره العاصمة الفارسية لبعض الوقت[١٩]، وقد دعت هذه الأحداث في مجملها لأن يحمّل المؤرخ «أرنولد توينبي» الجانب الصفوي مسئولية الصدام بين هاتين القوتين الإسلاميتين[٢٠].

وقد أدت هذه الهزيمة إلى قبول الشاه «اسماعيل الصفوي» لعقد اتفاقية هرمز مع البرتغاليين أقر فيها الجانب الصفوي استيلاء البرتغاليين على هرمز في مقابل مساعدته على غزو البحرين والقطيف إلى

---

(١٨) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص ١٧.

(١٩) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ١٠٦، د. أحمد فؤاد متولي: الفتح العثماني للشام ومصر ص ٧٩.

(٢٠) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ١٠٧.

جانب تعهدهم بمساندته ضد القوات العثمانية[٢١]، وأن يتنازل للبرتغاليين عن ميناء «جوادر» على ساحل بلوشستان مقابل فتح «جوا» للتجار الفرس[٢٢].

وإذا كنا نتفق مع الدكتور «محمد أنيس» في رفضه الأخذ بنظرية «أرنولد توينبي» القائلة بأن إدراك الصفويين والعثمانيين لعدم قدرة أي منهما لإحداث هزيمة كاملة بالآخر تؤدي إلى سيطرة أحدهما على أراضي الآخر وإخضاعه لسيادته، وأن ذلك الإدراك قد أسهم في انتقال الصراع بينهما إلى المناطق المجاورة في المشرق العربي وسعي كل منهما للسيطرة عليها وهو أمر أدى إلى مهاجمة العثمانيين للشام ومصر والحجاز، حيث كان بإمكان القوات العثمانية هزيمة القوات الصفوية هزيمة كاملة وإخضاع الأراضي الفارسية لسيطرتها بعد معركة جالديران، إلا أننا نختلف مع «الدكتور أنيس» في تفسير أسباب التدخل العثماني في الأراضي التي كانت خاضعة للمماليك حيث فسر ذلك برغبة العثمانيين في التوسع على حساب هذه الأراضي من ناحية وإلى التسابق العثماني البرتغالي على الاستيلاء على مفاتيح البحار العربية وهي البحر الأحمر والخليج العربي من ناحية أخرى.

فبقدر ما كان موقف العثمانيين تجاه الصفويين موقفاً دفاعياً - في الغالب - وليس موقفاً هجومياً كما اتضح من مسيرة الأحداث، فإن موقف العثمانيين تجاه المماليك كان كذلك. فقد سبق أن أوضحنا قيام العثمانيين بمساندة المماليك وإمدادهم بالعتاد والسلاح لتقوية موقفهم أمام البرتغاليين، ومساندتهم للأسطول المملوكي في البحر الأحمر والعمل على

---

(٢١) د. بدر الدين الخصوصي: المرجع السابق ص ٢٠ ويلاحظ أن القطيف كانت تعني إقليم الأحساء كله.

(٢٢) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص ١٨.

إعادة بنائه، وكذلك الوقوف إلى جانبهم في البحر المتوسط أمام فرسان القديس يوحنا، ثم قبول التحالف معهم لمواجهة الخطر البرتغالي المتزايد. ولا شك أن هذه المواقف من قبل العثمانيين تجاه المماليك تدعو لعدم قبول الرأي القائل برغبة العثمانيين في التوسع على حساب المماليك، فليس من المعقول أن يمد العثمانيون المماليك بمعونات ضخمة وبخاصة المعونات العسكرية وهم يبيتون النية أو يخططون للتوسع في أراضيهم.

وتؤكد العلاقات العثمانية المملوكية هذه الحقيقة، فعلى الرغم من حدوث بعض المعارك بين الجانبين على الحدود الشمالية للمماليك في بلاد الشام إلا أنها لم تحتدم إلى حد التهديد بحدوث حرب شاملة بينهما، وإن كانت قد أسهمت في أن يخيم شعور بعدم الثقة بينهما الأمر الذي أدى إلى تعثر مفاوضات الصلح سنة ١٤٩١م. ومع أن السلطان المملوكي «قايتباي» قد ساورته مخاوف من احتمال قيام حرب واسعة بينه وبين العثمانيين سواء لإدراكه ما كان عليه العثمانيون من قوة أو لانشغال جزء هام من قواته في مواجهة البرتغاليين، إلا أن السلطان العثماني «بايزيد الثاني» قد بدّد له هذه المخاوف حيث قام بإرسال رسول من قبله إلى السلطان المملوكي سنة ١٤٩١م ومعه مفاتيح القلاع التي استولى عليها العثمانيون على الحدود.

وقد لقي هذا الأمر ترحيباً لدى السلطان المملوكي فقام بإطلاق سراح الأسرى العثمانيين، وأسهمت هذه الأمور في عقد صلح بينهما في نفس السنة (١٤٩١م)، وظل هذا الصلح سارياً حتى نهاية عهد السلطان بايزيد الثاني سنة ١٥١٢م، وأكدت هذه الأحداث عدم وجود نية للتوسع لدى العثمانيين على حساب الأراضي المملوكية[٢٣].

---

(٢٣) د. عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق ص ٤٨، ٤٩. د. أحمد فؤاد متولي: المرجع السابق ص ٤٠.

على أن الخلاف بين العثمانيين والمماليك على عهد «سليم الأول» «وقنصوه الغوري» يتحمل المماليك جانباً كبيراً منه، فقد بدأ ذلك الخلاف بسبب استيلاء العثمانيين على إحدى الإمارات الموجودة على الحدود المملوكية في بلاد الشام سنة ١٥١٥ م، وكانت هذه الإمارة برغم استقلالها، ووجود صلة قرابة بين حاكمها وبين السلطان العثماني، تحت السيادة الاسمية للمماليك. ويرجع السبب الرئيس في استيلاء العثمانيين على هذه الإمارة وقتل حاكمها هو موقفه المعادي للقوات العثمانية أثناء مرورها في طريقها لملاقاة القوات الصفوية، فقد رفض تزويدها بالإمدادت وتقديم أي مساعدة لها، ومنع أتباعه أن يبيعوا لهذه القوات المأكل أو يمدوهم بالمياه وغير ذلك[٢٤].

وعلى الرغم من قيام السلطان العثماني بإبلاغ السلطان التركي بما تم تجاه هذه الإمارة وموضحاً له الأسباب التي دعته للاستيلاء عليها مبدياً حرصه على ألا يؤدي ذلك إلى إثارة الخلاف بينهما، إلا أن القوة التي ظهرت بها القوات العثمانية أمام الصفويين وهزيمتها لهم قد أثارت مخاوف السلطان المملوكي وهو ما عبر عنه ابن إياس بقوله: «وقد ملك ابن عثمان غالب بلاد الصوفي من ممالك الشرق فلم يرسم السلطان بدق الكوسات لهذا الخبر وكذلك الأمراء أخذوا حذرهم من ابن عثمان وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث منه بعد ذلك إلى جهة بلاد السلطان المملوكي».

وبدأ السلطان الغوري في اتباع سياسة تتسم بالعداء تجاه العثمانيين، وحدد ابن إياس هذه السياسة بمحاولة المماليك إثارة بعض

---

(٢٤) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص ٧٠، د. أحمد فؤاد متولي: المرجع السابق ص ٦٣ حيث يذكر أن السلطان سليم قد اعتبر إيواء الثائرين عليه تصرفاً عدائياً من قبل المماليك.

القادة على العثمانيين في إمارة الحدود التي سيطروا عليها، كما آوى الغوري أحد أبناء الأمير أحمد «العثماني» الذي قتله السلطان سليم وهو «قاسم العثماني» واتخذه أداة لتهديد العثمانيين، وفوق ذلك قام بالاتصال بالشاه «اسماعيل الصفوي» وأكد له وقوف القوات المملوكية إلى جانبه في أي جولة قادمة للقتال بينه وبين العثمانيين[٢٥].

وعلى أثر تحرك القوات العثمانية تجاه الأراضي الفارسية سنة ١٥١٦م تحرك الغوري على رأس قوات مملوكية حتى وصل بها إلى الحدود العثمانية وهدد القوات العثمانية المرابطة على الحدود، فأرسل السلطان سليم العثماني رسلا يعرضون الصلح على «السلطان الغوري» وسلموه رسالة من «السلطان سليم» تحتوي على عبارات التودد والاحترام، فقبل الغوري الصلح وقرر إرسال سفراء لهذا الغرض للسلطان العثماني[٢٦].

ومع أن أعمال السلطان المملوكي وبخاصة تحالفه مع الصفويين قد أثارت السلطان العثماني وجعلته يرتاب في موقف المماليك، وأن الصلح بينهما بالتالي، وكما توحي مسيرة الأحداث، كان لمجرد كسب الوقت حتى تنتهي من أعمالها أمام الصفويين وحتى لا تصطدم بالقوتين الصفوية والمملوكية في وقت واحد، إلا أن الرغبة في التوسع على حساب الأراضي المملوكية لم تدر بخلد السلطان سليم. ففي أعقاب الصدام الذي حدث بينه وبين المماليك في موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦م أدرك سليم أنه قد نجح باستيلائه على الشام في القضاء على التحالف الصفوي

---

(٢٥) د. عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق ص ٧٢، ٧٣.
(٢٦) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق ص ٨٣.

المملوكي[٢٧]، وأبدى رغبته في عدم استمرار القتال مكتفياً بسيطرته على الشام كي تصبح حائلاً بينه وبين هجوم مملوكي جديد أو بين عودة التحالف الصفوي المملوكي الذي يعد من أهم أسباب صدامه مع المماليك كما ذكر ابن أبي السرور البكري[٢٨].

لكن السلطان العثماني على الرغم من ذلك أراد أن يضمن ولاء المماليك في مصر له، وألا يعودوا لمحالفة الصفويين، فكتب إلى «طومانباي» السلطان المملوكي الذي تولى بعد موت الغوري يطلب منه أن يجعل الخطبة والسكة باسمه، وقيل إنه طلب منه أن يمثل أمامه لتأكيد ذلك وفي نفس الوقت طمأنه على سلامته ودولته باسمه، ولكن السلطان المملوكي رفض ذلك وبدأ في الاستعداد لجولة جديدة مع العثمانيين دون أن يرد على رسائل سليم المتكررة مما جعل سليم الأول يستعد لإرسال قواته إليه حتى يفرغ للقوات الصفوية ولمقاومة الأطماع البرتغالية[٢٩].

وعند وصول القوات العثمانية إلى مصر، وقبل وقوع الحرب بينها وبين القوات المملوكية أرسل السلطان المملوكي «طومانباي» يعرض الصلح على السلطان العثماني مشترطاً عليه أن يسحب جيشه ويخرج من مصر مقابل أن تكون الخطبة والسكة باسمه، وقبل «السلطان سليم»

---

(٢٧) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص ٧٧.؛ د. أحمد فؤاد متولي: المرجع السابق ص ٨٢.

(٢٨) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ١١٢؛ د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص٧٣.

(٢٩) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ١١٢، د. أحمد فؤاد متولي: المرجع السابق ص١٦٩، ١٧٦. ويذكر أن سليم الأول قد استفزه عدم رد طومانباي على رسائله مما جعله يلجأ إلى التهديد في رسائله الأخيرة.

هـذا العرض وأرسل رسالـة من كبـار رجـال الـدين للتفـاوض مـع طومانباي، لكن بعض معارضي «طومانباي» من المماليك هاجموا سفراء السلطان العثماني وطاردوهم فأدرك سليم أنه موقف «طومانباي»، وأن هذا العرض خدعة حتى يأخذ فرصة للاستعداد وأقدم على الحرب(٣٠).

ويذكر المؤرخ «أحمد بن زنبل الرمال» قول السلطان «سليم الأول» «لطومانباي» بعد هزيمة الأخير في معركة الريدانية وقبل أن يعدم «والله ما كان قصدي أذيتك، ونويت الرجوع من حلب، ولو أطعتني من الأول وجعلت السكة والخطبة باسمي ما جئت لك ولا دست أرضك»(٣١).

ويتضح من خلال استعراض الصراع الصفوي العثماني وكذلك الصراع المملوكي العثماني أن الصفويين والمماليك، كلاً على حدة، هم الذين بدأوا بالتحرش بالقوات العثمانية، وأن الدولة العثمانية كانت مضطرة للدخول في حرب مع كل منهما، وبالتالي فإن نية التوسع في الشرق لم تكن هدفاً سياسياً لدى أي من السلاطين العثمانيين قبل وقوع هذه الأحداث أو أثناءها. وإذا كانت التهديدات الصفوية المتكررة للعثمانيين من بين الأسباب التي دعتهم للعودة إلى الساحة الشرقية فإن الخطر البرتغالي على البحر الأحمر والمناطق المقدسة الإسلامية، وكذلك خطر فرسان القديس يوحنا في البحر المتوسط كان على رأس الأسباب التي دعت السلطان العثماني لأن يوقف فتوحاته العسكرية على الساحة الأوروبية ويعود إلى الشرق، فتحالف مع القوات المملوكية لهذا الغرض في البداية، ثم تحمل العبء الكامل في مقاومة هذه الأخطار بعد سقوط الحكم المملوكي(٣٢).

---

(٣٠) د. عمر عبد العزيز عمر: المرجع السابق ص ٨٠.
(٣١) د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص ٣٨.
(٣٢) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ١٣٠.

ونستدل على ذلك بما قاله السلطان سليم الأول العثماني لطومانباي آخر سلاطين المماليك بعد أن هزمه في معركة الريدانية: «أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأعصار والأمصار، وأنا كنت متوجهاً إلى جهاد الرافضة «ويعني بهم الصفويين» والفجار «ويعني بهم البرتغاليين وفرسان القديس يوحنا»، فلما بغى أميركم الغوري وجاء بالعساكر الى حلب واتفق مع الرافضة واختار أن يمشي إلى مملكتي التي هي مورث آبائي وأجدادي، فلما تحققت تركت الرافضة ومشيت إليه»، والذي يدعونا للأخذ والاستدلال بقول السلطان العثماني هو أنه كان قد انتصر ولم يكن في حاجة إلى أن يظهر خلاف ما يبطن أو غير ذلك[٣٣].

وقد ظل طابع الجهاد هو الطابع الذي يميز الدور العثماني تجاه البرتغاليين. فحينما استغاث بعض المسلمين في الهند بالسلطان العثماني سنة ١٥٣٧ م استجاب السلطان لهم فأرسل إلى واليه في مصر «سليمان باشا الخادم» يقول: «عليك يا بك البكوات بمصر سليمان باشا أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه بتجهيز حقيبتك وحاجتك وإعداد العدة بالسويس للجهاد في سبيل الله، حتى إذا تهيأ لك إعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جيش كاف فعليك أن تخرج إلى الهند وتستولي وتحافظ على تلك الأجزاء، فإنك إذا قطعت الطريق وحاصرت السبيل المؤدية إلى مكة والمدينة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون وأزلت رايتهم من البحر»[٣٤].

أما الرأي القائل بأن الفتح العثماني على الساحة الأوروبية قد توقف ووصل إلى أقصى مدى يمكن أن يصله، وأن القوات العثمانية على هذه

---

(٣٣) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص ٨٠، ٨١. ويلاحظ بأن السلطان العثماني قد اعتبر موقفه تجاه كل من الصفويين والبرتغاليين جهاداً.

(٣٤) د. بدر الدين الخصوصي: المرجع السابق ص ٢٥.

الجبهة قد أصبحت في وضع الدفاع لا في وضع الهجوم ولهذا كان من الضروري أن تتجه إلى الساحة الشرقية فهو رأي لا يستند إلى دليل تاريخي. فتثبت الأحداث التي دارت على هذه الساحة في عهد السلطان سليمان القانوني عدم صواب هذا الرأي، فقد استطاعت القوات العثمانية الاستيلاء على عدة أراضٍ حتى استولت على بلجراد سنة ١٥٢١ م، وحينما عاودت المجر إعلان التمرد على العثمانيين قامت القوات العثمانية والتقت مع القوات الأوروبية المتحالفة فيها وسحقتها في معركة موهاكز سنة ١٥٢٦ م، وأصبح الطريق في وسط أوروبا وحتى ڤيينا مفتوحاً أمام القوات العثمانية، كما استولت القوات العثمانية على العاصمة المجرية «بودا» وضاحيتها «بست».

وأعد السلطان «سليمان القانوني» حملة عسكرية للسيطرة على ڤيينا سنة ١٥٢٩ م وكادت أن تستولي عليها لولا عوامل مناخية، حيث حل فصل الشتاء واشتد البرد على القوات العثمانية مما اضطرها لفك حصارها للمدينة.

وفي جبهة البحر المتوسط تمكنت القوات العثمانية من الاستيلاء على جزيرة رودس التي كانت معقلاً لقوات فرسان القديس يوحنا، وعلى بعض مناطق في إيطاليا، كما منحت فرنسا - التي تحالفت مع الدولة العثمانية لفترة محدودة - جزيرة طولون للقوات العثمانية لاتخاذها قاعدة بحرية.

وهكذا يتضح أن الدافع الرئيسي لعودة العثمانيين إلى الشرق كان دافعاً دينياً ولم يكن دافعاً سياسياً أو توسعياً، وكان أساسه الرغبة في حماية العالم الإسلامي من هجوم صليبي استعماري في المقام الأول، وحماية الجناح السني في المشرق الإسلامي من هجوم شيعي في المقام الثاني. وبالتالي فإن الوجود العثماني في المشرق العربي الإسلامي يعد فتحاً باسم

الدين وليس غزوا واحتلالاً كما ذهب كثيرون من المؤرخين[٣٥]، وكما ورد في الميثاق الوطني الذي أصدرته الحكومة المصرية سنة ١٩٦٢ م والذي ذكرت فيه «أنه احتلال باسم الدين وأن الدين منه براء».

(٣٥) د. أحمد فؤاد متولي: المرجع السابق ص ١٢٤. حيث يذكر أن السلطان سليم قد عقد مجلساً خاصاً قبل فتح مصر للاستفسار عن شرعية ذلك فأجابه أعضاء المجلس بشرعية التحرك إلى مصر وشن حرب عليها لأن أهلها قطاع طرق، والحرب والقتال معهم غزو وجهاد، وقاتلهم غـازٍ ومرابط والمقتول على أيديهم شهيد ومجاهد.

الفصل الرابع

العثمانيون وحركة الجهاد البحري
في الشمال الإفريقي في القرن السادس عشر

العثمانيون وحركة الجهاد البحري في الشمال الإفريقي في القرن السادس عشر

كان من آثار الطرد الجماعي للمسلمين من الأندلس ونزوح أعداد كبيرة منهم إلى الشمال الأفريقي حدوث العديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في ولايات الشمال الأفريقي. ولما كان من بين المسلمين النازحين إلى هذه المناطق أعداد وفيرة من البحارة، فكان من الضروري أن تبحث عن الوسائل الملائمة لاستقرارها، إلا أن بعض العوامل قد توافرت لتدفع بأعداد من هؤلاء البحارة إلى طريق الجهاد ضد القوى المسيحية في البحر المتوسط. ويأتي في مقدمة هذه العوامل الروح الدينية التي سادت ما سمي بحرب الاسترداد قبل خروجهم من الأندلس، واستمرار هذه الروح بعد ذلك في متابعة القوات الأسبانية والبرتغالية للعناصر الإسلامية في الشمال الأفريقي. وقد ظلت حركات المقاومة الإسلامية حركات فردية غير منظمة سهل للقوات المهاجمة القضاء عليها الأمر الذي أدى إلى تجمع هذه القوى وراء إحدى حركات الجهاد البارزة والتي قادها الأخوين خير الدين وعروج بربروسا، حيث ارتبط دورها بالجهاد الإسلامي والدور الوطني في هذه المنطقة في مطلع التاريخ الحديث.

وقد اعتمدت هذه القوة في مقاومتها أسلوب الكر والفر في البحر وذلك لعدم قدرتها على الدخول في حرب نظامية ضد القوى المسيحية من الأسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا، وقد حقق هؤلاء المجاهدون نجاحا أثار قلق القوى المعادية، ومع ذلك فقد اضطرت إلى طلب معونات عثمانية ثم سعت في النهاية إلى الانضمام الى الدولة العثمانية.

وقد حاول المؤرخون الأوروبيون التشكيك في طبيعة الحركة ووصفوا دورها بالقرصنة، وكذلك التشكيك في أصل أهم قادتها وهما خير الدين وأخوه عروج الأمر الذي يفرض ضرورة إلقاء الضوء على دور الأخوين وأصلهما، وأثر هذه الحركة على الدور الصليبي في البحر المتوسط في القرن السادس عشر.

أصلهما:

ينتمي الأخوان عروج وخير الدين بربروسا إلى أسرة مسلمة، فهما وأخوان آخران هما إسحاق ومحمد إلياس أبناء يعقوب بن يوسف وهو تركي من بقايا الفاتحين المسلمين الأتراك الذين استقروا في جزيرة مدللي إحدى جزر الأرخبيل[1]. وأمهم سيدة مسلمة أندلسية كان لها تأثيرها في تحويل وجهتهم في نشاطهم شطر بلاد الأندلس التي كانت تئن في ذلك الوقت من بطش الأسبان والبرتغاليين[2]. ومن الدلائل التي يسوقها المؤرخون لتأكيد أصلهم الإسلامي:

---

(١) أحمد توفيق مدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ص ١٥٥. وعن مولد عروج وأخيه انظر: د. صلاح العقاد: المغرب في بداية العصور الحديثة ص ٣٧.

(٢) يذكر بعض المؤرخين أن يعقوب بن يوسف كان مسيحيا وأسلم وأن الأم كانت أرملة لراهب أسباني ويرى آخرون أنهما كانا من أروام جزيرة مدللي إحدى جزر الروم ثم أسلموا ودخلوا في خدمة السلطان محمد الحفصي صاحب تونس: انظر: محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ص٩٥ ومنهم من يرى أنهم.

أولا: ما ذكره المؤرخ الجزائري «أحمد توفيق مدني» مستندا على أثرين ما زالا موجودين في الجزائر أولها رخامة منقوشة كانت موضوعة على باب حصن شرشال، وثانيهما رخامة كانت على باب مسجد الشواس بالعاصمة الجزائرية، وقد نقش على الرخامة الأولى: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله، هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركي في خلافة الأمير الحاكم بأمر الله المجاهد في سبيل الله «أوروج بن يعقوب» بإذنه بتاريخ أربعة وعشرين بعد تسعمائة (١٥١٨ م). ونقش على الرخامة الثانية: «إسم «أوروج بن أبي يوسف يعقوب التركي». وهناك ثالثة مسجل عليها بعض ما شيده خير الدين في الجزائر سنة ١٥٢٠م[٣].

ثانيا: ان اسم «عروج - أوروج» مأخوذ من حادثة الإسراء والمعراج التي يرجح أنه ولد ليلتها، وأن الترك ينطقونه «أوروج» ثم عرب إلى «عروج»[٤].

ثالثا: أن ما ذكر عن الدور الذي لعبه الأخوان يؤكد حرصهما على الجهاد في سبيل الله وهو مقاومة القرصنة المسيحية في البحر المتوسط وكذلك مقاومة أطماع أسبانيا والبرتغال في الممالك الإسلامية في شمالي أفريقيا.

وقبل إلقاء الضوء على هذا الدور ينبغي أن نوضح أن القرصنة في القرن السادس عشر كانت تختلف كل الاختلاف عن اللصوصية والسلب

---

(٣) أحمد توفيق مدني: المرجع السابق ص ١٦٠، ١٦١.

(٤) اسم «عروج» بفتح العين وتشديد الراء خطأ والأصل أن تضم العين والراء، انظر: محمد فريد بك: المرجع السابق ص٩٥.

فهي كالكمائن البحرية التي يعدها كل خصم لسفن أعدائه لمنع الصادرات والواردات والاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه بقصد الإضرار بعدوهم، وهي بهذا تقترب من مفهوم الحصار الاقتصادي البحري في الحروب المعاصرة(٥).

وكان لهذه الأعمال نظمها وقوانينها، فقد كانت تنتهي بانتهاء الحرب أو العداء، كما كانت تراعي المعاهدات والقوانين المعمول بها بين الدول. كما أن من يتتبع ظهور أعمال القرصنة عند المسلمين فسيجد أنها قد بدأت في الأندلس، وكانت رد فعل لأعمال القرصنة الأوروبية التي صبغت عملها ضد الممالك الإسلامية بالصبغة الدينية(٦)، ثم انتقلت مراكز القرصنة الإسلامية إلى شمالي أفريقيا في شرشال ووهران والجزائر ودلي وبجاية في أعقاب طرد المسلمين من الأندلس، وقد قويت بفعل انضمام القراصنة المسلمين الفارين من الأندلس والعارفين بالملاحة وفنونها والمدربين على صناعة السفن(٧).

دور الأخوين في الجهاد ضد الغزو الأوروبي:

اتجه الأخوان عروج وخير الدين إلى الجهاد البحري منذ الصغر، ووجها نشطاهما في البداية إلى بحر الأرخبيل المحيط بمسقط رأسهما حوالي سنة ١٥١٠م(٨)، لكن ضراوة الصراع بين القوى المسيحية في بلاد الأندلس وفي شمالي إفريقيا وبين المسلمين هناك، والذي اشتد ضراوة في

---

(٥) د. جلال يحيى: المغرب الكبير، العصور الحديثة، ص٢٠ حيث يسمي هذه الحركة بالجهاد البحري.

(٦) د. محمد أنيس: الدولة العثمانية والمشرق العربي ص٨٣، د. علي حسون: الدولة العثمانية ص٥٢، ٥٣.

(٧) أحمد توفيق مدني: المرجع السابق ص ٧٤، د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص١٥.

(٨) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص ١٩.

مطلع القرن السادس عشر، قد استقطب الأخوين لينقلا نشاطهما إلى هذه المناطق وبخاصة بعد أن تمكـن الأسبان والبرتغاليون من الاستيلاء على العديد من المراكز والموانيء البحرية في شمالي أفريقيا[٩].

وقد حقق الأخوان العديد من الانتصارات على القراصنة المسيحيين الأمر الذي أثار إعجاب القوى الإسلامية الضعيفة في هذه المناطق، ويبدو ذلك من خلال منح السلطان «الحفصي» لهم حق الاستقرار في جزيرة جربة التونسية وهو أمر عرضه لهجوم أسباني متواصل اضطره لقبول الحماية الأسبانية بالضغط والقوة[١٠]، كما يبدو من خلال استنجاد أهالي هذه البلاد بهما، وتأثيرهم لهما داخل بلادهم مما أسهم في وجود قاعدة شعبية لهما تمكنهما من حكم الجزائر وبعض المناطق المجاورة.

ويرى بعض المؤرخين أن دخول «عروج» وأخيه الجزائر وحكمهما لها لم يكن بناء على رغبة السكان، ويستند هؤلاء إلى وجود بعض القوى التي ظلت تترقب الفرص لطرد الأخوين والأتراك المؤيدين لهما، لكن البعض الآخر يرون أن وصول «عروج» وأخيه كان بناء على استدعاء من سكانها لنجدتهم من الهجوم الأسباني الشرس، وأن القوى البسيطة التي قاومت وجودهما كانت تتمثل في بعض الحكام الذين أُبعدوا عن الحكم أمام محاولات الأخوين الجادة في توحيد البلاد حيث كانت قبل وصولهما أشبه بدولة ملوك الطوائف في الأندلس، وقد ساند

---

(٩) د. علي حسون: المرجع السابق ص ٥٣، د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ٨٣.

(١٠) د. علي حسون: المرجع السابق ص ٥٢. وقد أقطعهما الأمير الحفصي بعد ذلك مرفأ «حلق الوادي» ليكون لهما، واتفق معهما على خمس الغنائم، وكان ذلك يحقق هدفين الأول إنقاذ دولته من السقوط أمام الضغط الصليبي والثاني انقاذه ماديا بسبب ضعفه الاقتصادي الناتج عن الحروب، أحمد توفيق مدني. المرجع السابق ص١٥٨، كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص٤٥٣.

أغلب أهل البلاد محاولات الأخوين واشتركت أعداد كبيرة منهم في هذه الحملات، كما ساندهما العديد من الحكام المحليين الوطنيين الذين استشعروا حقيقة خطر الغزو الصليبي الأسباني(١١).

ويبدأ دور الأخوين المجاهدين بمحاولة تحرير بجاية من الحكم الأسباني سنة ١٥١٢م، وقد نقلا - لهذا الغرض - قاعدة عملياتها ضد القوات الأسبانية في ميناء جيجل شرقي الجزائر بعد أن تمكنا من دخولها وقتل حماتها الجنوبيين سنة ١٥١٤م لكي تكون محطة تقوية لتحرير بجاية من جهة ولمحاولة مساعدة مسلمي الأندلس من جهة أخرى(١٢). ويبدو أن الأخوين قد واجها تحالفا قويا نتج عنه العديد من المعارك النظامية وهو أمر لم يتعودوه لكن أجبرا عليه بفعل الاستقرار في حكم الجزائر، وزاد من حرج الموقف قتل «عروج» في إحدى المعارك سنة ١٥١٨م مما اضطر خيرالدين للبحث عن تحالف يعينه على الاستقرار والمقاومة ومواصلة الجهاد، وكانت الدولة العثمانية هي أقوى القوى المرشحة لهذا التحالف سواء لدورها البارز في ساحة البحر المتوسط أم لأن القوى المحلية في الشمال الأفريقي كانت متعاطفة معها وتتابع انتصاراتها على الساحة الأوروبية منذ فتح القسطنطينية(١٣)، وأن الاتجاه لمحالفتها

---

(١١) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص ٣٧، ٣٨، العبد سعيد مسعود: المجتمع الجزائري في العهد العثماني ص٥٨.

(١٢) يذكر «أحمد توفيق مدني» أن «عروج» لم يتمكن من دخول «بجاية» بعد معركة شديدة فقد فيها ذراعه سنة ١٥١٢م واستمرت محاولاته لتحريرها عدة مرات فقد خلالها شقيقه الفقيه «محمد إلياس» أحمد توفيق مدني: المرجع السابق ص١٧٠؛ محمد موفاكو: المرجع السابق ص١٨. ويذكر د.الشناوي أنه قد نجح في تحرير بجاية؛ د.عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليهاجـ٢ ص٩٠٦.

(١٣) د. علي حسون: المرجع السابق ص ٥٣ ويذكر أحمد توفيق مدني أن خير الدين قد قرر النزول إلى البحر بعد موت أخيه وعدم قبول الولاية على الجزائر ولكن أهل الجزائر أقنعوه بأن ذلك واجب ديني فوافق موضحا أن واجبه يحتم عليه التحالف مع الدولة العثمانية. أحمد توفيق مدني: المرجع السابق ص١٩٨.

سيكسب دور خيرالدين مزيدا من التأييد من قبل هذه القوى، وإلى جانب ذلك فإن الدولة العثمانية قد أيدت استجابة للمساعدة حين طلب منها الأخوان ذلك، كما أبدت رغبتها في مزيد من المساعدة لدوره وكذلك لبقايا المسلمين في الأندلس، ومن منظور ديني أسهم في إكساب دورها تأييدا جماهيريا وجعل محاولة التقرب منها أو التحالف معها عملا مرغوبا(١٤).

ومن جهة أخرى كانت الظروف في الدولة العثمانية على عهد السلطان سليم الأول مهيأة لقبول هذا التحالف وبخاصة بعد أن اتجهت القوات العثمانية الى الشرق العربي، وكان من أبرز أهدافها في هذا الاتجاه - كما سبق التوضيح - هو التصدي لدور البرتغاليين والأسبان وفرسان القديس يوحنا في المنطقة، وكان من المنطقي التحالف مع أي من القوى المحلية التي تعينها على تحقيق هذه الأهداف.

التحالف مع العثمانيين:

اختلف المؤرخون حول بداية التحالف بين العثمانيين والأخوين عروج وخير الدين، فتذكر بعض المراجع أن السلطان سليم الأول كان وراء إرسالهما إلى الساحل الأفريقي تلبية لطلب المساعدة من سكان الشمال الأفريقي وعملا على تعطيل أهداف البرتغاليين والأسبان في منطقة البحر المتوسط. وعلى الرغم عدم تداول هذه الرواية بين المؤرخين إلا أنها توضح أن العثمانيين لم يكونوا بمعزل عن الأحداث التي تدور على ساحة البحر المتوسط(١٥).

---

(١٤) د. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق ص ٩٠٢، ولم يكن سبب استنجاد خيرالدين بالسلطان العثماني هو ثورة أهل الجزائر كما يذكر بروكلمان، كارل بروكلمان: المرجع السابق ص٤٥٣.

(١٥) العبد سعيد مسعود: المرجع السابق ص ٥٩.

ويرجع بعض المؤرخين التحالف بين الجانبين إلى سنة ١٥١٤م في أعقاب فتح عروج وخير الدين لميناء «جيجل» حيث أرسل الأخوان إلى السلطان سليم الأول مجموعة من النفائس التي استوليا عليها بعد فتح المدينة، فقبلها السلطان ورد لهما على الهدية بإرسال أربع عشرة سفينة قرصنة مجهزة بالعتاد والجنود[١٦]، وكان هذا الرد من السلطان العثماني يعكس رغبته في استمرار نشاط دور الأخوين ودعمه. على أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعم العثماني لهذه الحركة كان في أعقاب وفاة «عروج» سنة ١٥١٨م وبعد عودة السلطان العثماني من مصر إلى إستانبول سنة ١٥١٩م[١٧].

على أن الرأي الأكثر ترجيحاً أن الاتصالات بين العثمانيين وهذه الحركة كان سابقا لوفاة عروج وقبل فتح العثمانيين للشام ومصر، وذلك يرجع إلى أن الأخوين كانا في أمس الحاجة لدعم أو تحالف مع العثمانيين بعد فشلهما في فتح «بجاية»، كما أنهما حوصرا في «چيچل» بين الحفصيين الذين أصبحوا من أتباع الأسبان وبين «سالم الثومي» حاكم الجزائرالذي ارتكز حكمه على دعم الأسبان له هو الآخر، فضلا عن قوة الأسبان وفرسان القديس يوحنا التي تحاصرهم من البحر. فكان لوصول الدعم العثماني أثره على دعم دورهما وشروعهما في دخول الجزائر برغم هذه العوامل حيث اتفق العثمانيون مع الأخوين على ضرورة

---

(١٦) أحمد توفيق مدني: المرجع السابق ص١٧٢ ويرى البعض أن علاقة الأخوين بالدولة العثمانية ترجع إلى بداية نشاطهما في بحر الأرخبيل حيث عملا في المنطقة العثمانية، وأن أول مركب امتلكاها من الدولة العثمانية التي كانت تبارك نشاطهما ضد الأسبان، وهذا يؤكد دورهما بأنه لم يكن قرصنة لتفريقها بين السفن الإسلامية وغيرها د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص٣٧.

(١٧) د. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق ص٩٠٩.

الإسراع بدخولها قبل القوات الأسبانية لموقعها الممتاز من ناحية ولكي يسبقوا الأسبان إليها، لاتخاذها قاعدة لتخريب الموانىء الإسلامية الواقعة تحت الاحتلال الأسباني كبجاية وغيرها من ناحية أخرى.

وقد تمكن عروج من دخول الجزائر بفضل هذا الدعم وقتل حاكمها بعد أن تأكد من مساعيه للاستعانة بالقوات الأسبانية، كما تمكن من دخول ميناء شرشال، واجتمع له الأمر في الجزائر وبويع في نفس السنة التي هزمت فيها القوات المملوكية أمام القوات العثمانية في الشام سنة ١٥١٦م في موقعة مرج دابق(١٨). ولم يكن من الممكن للأخوين أن يقوما بهذه الفتوحات لولا تشجيع السلطان العثماني ودعمه إلى جانب دعم شعوب المنطقة وقد سبق أن فشلا في دخول بجاية أمام نفس القوات المعادية(١٩).

معارك الأخوين في الجزائر في ظل التحالف العثماني:

بعد أن بويع «خير الدين» في الجزائر في أعقاب ما حققه من انتصارات على الأسبان والزعماء المحليين المتحالفين معهم أصبح محط آمال كثير من الولايات والموانىء التي كانت ما زالت خاضعة سواء للأسبان أو لعملائهم، وكان أول الذين طلبوا نصرته أهل تلمسان. ومع أن استنجاد الأهالي كان من الممكن أن يكون كافيا لتدخل «خير الدين» إلا أن موقع تلمسان الاستراتيجي الذي كان يجعل وجود

---

(١٨) أحمد توفيق مدني: المرجع السابق ص ١٧٤، ١٧٥.

(١٩) من الأمور التي تؤكد ترحيب الأهالي بحماية خير الدين أنه دخل الجزائر برا على رأس جيش من ثمانمائة مقاتل تركي، ومعهم خمس آلاف من قوات القبائل في البلاد، ولو أن خير الدين وأخاه قد دخلا البلاد دون ذلك الدعم لكان من السهل قهرهما وطردهما. العبد سعيد مسعود: المرجع السابق ص ٦٠ لكن بعض السخط قد أحاط عروج لما ارتكبته قواته من مخالفات بعد مقتل حاكم المدينة «سالم الثوني».

«خير الدين» في الجزائر غير مستتب قد جعله يفكر في التدخل قبل أن يطلب الأهالي نجدته، وأن مطالبهم قد دعته للتعجيل بذلك[٢٠].

وأعد «خير الدين» جيشا كبيرا زحف به إلى تلمسان سنة ١٥١٧م، وأمن الطريق إليها. وبعد أن نجح في السيطرة عليها تمكن الأسبان، وعملاؤهم من بني حمود، من استعادتها. ولقي أحد إخوة «خير الدين» حتفه وهو «إسحاق»، كما قتل «عروج» وكثيرون من رجاله أثناء حصارهم للمدينة ذلك الحصار الذي امتد لستة أشهر أو يزيد امتد حتى سنة ١٥١٨م.

وقد تركت هذه الأحداث أثرا بالغا في نفس خير الدين مما دفعه إلى التفكير في ترك الجزائر لولا أن أهلها ألحو عليه بالبقاء. وكانت موافقته على البقاء تفرض عليه ضرورة بذل المزيد من الجهد خشية أن يهاجمه الأسبان ومؤيدوهم، كما أن ذلك قد أدى إلى اتجاهه إلى مزيد من الارتباط بالدولة العثمانية، وبخاصة بعد أن دانت لها مصر والشام، فكان ذلك يؤكد احتياج الجانبين إلى مزيد من الارتباط بالآخر[٢١].

خير الدين والدولة العثمانية بعد وفاة عروج:

بعد أن أصبحت الجزائر ولاية عثمانية وأصبح خير الدين والياً عليها من قبل هذه الدولة، ومنحه السلطان العثماني لقب «باي لرباي» أي باي البابات أو «بكلربك» كان لا بد من ربط جهود خير الدين بالدولة العثمانية بحكم أنه والٍ ينفذ أوامر السلطان أو على الأقل يحصل

---

(٢٠) د. صلاح العقاد المرجع السابق ص ١٥٠.

(٢١) أرسل خير الدين وفدا من أهل الجزائر إلى السلطان لربط مصير بلادهم بالدولة العثمانية، د. الشناوي المرجع السابق ص٩٠٨، ٩٠٩ وذلت هذه الخطوة على حنكة سياسية عند خير الدين، العبد سعيد: المرجع السابق ص.

على موافقته في كافة خطواته وكذلك في مساعدته[٢٢]. وبدأت أولى المساعدات العثمانية لواليهم في الجزائر بإرسال أربعة آلاف من المتطوعين الأتراك[٢٣]، وكمية من العتاد والسلاح وذلك إسهاما في الاستعداد لرد الحملة المتوقع إرسالها من قبل الأسبان لمواصلة محاولاتهم في إسقاط الجزائر وتقويض الحكم الإسلامي في الساحل الأفريقي الشمالي، حيث شجعهم على ذلك فشل خيرالدين في دخول تلمسان ومقتل أخويه، ورغبة منهم في الثأر لاستمرار صمود الجزائر أمام حملاتهم[٢٤].

فقد أدرك الأسبان نتاج انضمام خير الدين للدولة العثمانية حيث ان رغبتها في ضم منطقة الجزائر بعد ذلك تفرض عليها ضرورة الإعداد لمواجهة هذه الدولة. لكن موقع الجزائر الهام، والذي سيسقط بسقوط أغلب الساحل الأفريقي الشمالي، قد دعاهم للإعداد السريع لحملة إليها قبل أن يستقر المقام بالعثمانيين بمصر وتمكنهم من إرسال جيش نظامي إليها . وفي سنة ١٥١٩م وصلت هذه الحملة الأسبانية القوية مكونة من أربعين سفينة تحمل خمسة آلاف جندي، وتساعدها قوة برية تزحف بحذاء الساحل من تلمسان.

ووفق خطة رسمها خير الدين فقد ترك الجند الأسبان بسلاحهم إلى البر، وقام بعدة مناوشات سريعة قاصدا إنهاك عدوه وامتصاص حماس الجند ومحاصرة المكان الذي نزلوا به، وقبل أن تصل القوات البرية من تلمسان، نجحت قوات خير الدين من إثارة الجنود الأسبان بفعل المناوشات، فهاجم السفن من البحر بمناوشات مماثلة أدت الى تقسيم

---

(٢٢) أحمد توفيق مدني: المرجع السابق ص ١٩٨؛ محمد فريد بك: المرجع السابق ص ٩٥؛ د. جلال يحيى: المرجع السابق ص٢٥.
(٢٣) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص ٢٠؛ ويذكر أن المتطوعين ألفين فقط.
(٢٤) د. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق ص ٩١١.

القوات الأسبانية، وهجم في البر على الجزء الباقي واستطاع أن يقضي على هذا الجزء عن آخره.

ولا نستطيع مجاراة الذين يحاولون التقليل من جهود خير الدين ونجاحه في الانتصار وذلك بالتضخيم من العوامل التي ساعدته على تحقيق هذا النصر ممثلة في العوامل المناخية حيث يذكر هؤلاء قيام عاصفة بحرية، وإلى جانب ذلك عاملاً آخر وهو تقاعس ملك تلمسان عن الوفاء بوعده، ومع أن ذلك لا يعني إنكار حدوث هذه العوامل إلا أن ما حققه خيرالدين من نصر على هذه الحملة القوية قد أكسبه شهرة واسعة(٢٥). فقد أعطى هذا النصر جرأة لخيرالدين فعزم على ضرورة توسيع دوره في البحر المتوسط، ودخل بالفعل مع الأسبان في عدة معارك بحرية حاسمة مثل معركة البالبار البحرية سنة ١٥٣٠م والتي نجح فيها في تدمير أربع عشرة سفينة أسبانية وقتل قواتها. بل وصلت الجرأة إلى حد محاولة خير الدين لإنقاذ المسلمين المضطهدين الذين كانوا ما زالوا في أسبانيا والسعي لإحضارهم إلى الجزائر دون أن تجرؤ القوات الأسبانية - التي كانت قد نقلت نشاطها إلى المحيط الأطلنطي - على الاصطدام بقوات خير الدين، كما تطور نشاطه ليشمل الساحل الأفريقي الغربي المطل على المحيط الأطلنطي(٢٦).

وقد أسهمت هذه الأمور في أن تزج بخير الدين في السياسة

---

(٢٥) أحمد توفيق مدني: المرجع السابق ص ٢١٠؛ وقد تمكن بمساعدة العثمانيين من فتح تونس سنة ١٥٣٤م والقضاء على الحفصيين، د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص٢١.

(٢٦) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص ٤٣، ٤٤؛ أحمد توفيق مدني: المرجع السابق ص٢٢٧ وكانت الدولة العثمانية قد استدعت خير الدين واستطاع أن يبدد هذه الشكوك، وقد حاول شارل الخامس أمبراطور أسبانيا أن يدفع خير الدين للخيانة مقابل أن يصبح ملكاً على الجزائر لكن خير الدين رفض هذا الأمر.

الأوروبية حيث كان تقدم العثمانيين في شرقي أوروبا وحصار ڤيينا سنة ١٥٢٩ م على عهد السلطان سليمان القانوني يعد إهانة لأسبانيا بحكم أنها من ممتلكات الهابسبورج وزادت انتصارات خير الدين في البحر المتوسط والشمال الأفريقي على أسبانيا الموقف اشتعالا، فتزعمت أسبانيا الدعوة لتجمع صليبي أوروبي لمواجهة الزحف الإسلامي وفي نفس الوقت كان الجواسيس الأسبان يحاولون إثارة الشكوك لدى السلطان العثماني حول أطماع خير الدين وأنه يريد الاستقلال بملك الجزائر ليصبح ملكا عليها.

على أن خير الدين قد قضى على مثل هذه الأمور وأكد في نفس الوقت أنه رجل دولة وقائد سياسي ماهر حيث نجحت مساعيه في عقد تحالف فرنسي عثماني منتهزا فرصة الخلاف الذي دب بين فرنسا وأسبانيا واتجاه فرنسا للاستعانة بالدولة العثمانية، وقد قصد خير الدين من هذه المساعي إفساد الحلف الصليبي الذي تدعو إليه أسبانيا من جهة وأن تشغل أسبانيا بخلافها مع فرنسا أكثر من غيره من جهة أخرى. كما تمكن خير الدين كذلك من توضيح أبعاد الأطماع الأسبانية في شمالي أفريقيا للسلطان العثماني وبالتالي الحصول على دعم جديد لفتح تونس ومساعدة القوى المحلية فيها الراغبة في التخلص من الحكم الأسباني.

ومع أن خير الدين لم يتمكن من تحقيق كافة أهدافه في حياته إلا أنه استطاع أن يرسم استراتيجية ثابتة للدولة العثمانية في المغرب العربي[٢٧]. كما كان له دور واضح في تأسيس الأسطول العثماني حيث بدت الحاجة إليه في أعقاب حملات الانتقام المتتالية التي أعدتها أسبانيا

---

(٢٧) وذلك يرجع إلى استرداد أسبانيا لتونس بعد عام واحد من فتحها، كما أن مساعي أسبانيا ومعها البابوية لتكوين الحلف الصليبي أمام التحالف الفرنسي العثماني وهو أمر أحرج فرنسا وأفسد تحالفها مع الدولة العثمانية في النهاية.

مدعومة بقوى أوروبية إلى جانب البابوية[٢٨]، فقد تم استدعاؤه إلى عاصمة الخلافة سنة ١٥٣٦م ليشرف على إعداد ذلك الأسطول وقيادته ونجح في تحقيق العديد من الانتصارات في البحر المتوسط والشمال الإفريقي حتى توفي في استانبول سنة ١٥٤٧م[٢٩].

---

(٢٨) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص ٤٤، ٤٥؛ محمد فريد بك، المرجع السابق ص ٩٨.

(٢٩) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص ٢٢، ولم يكن استدعاؤه إلى العاصمة العثمانية هو آخر عهده بالجزائر بل إنه اتخذها قاعدة أثناء مساعدته لفرنسا ضد أسبانيا سنة ١٥٤٣م، وكذلك فإن أهل الجزائر قد جعلوا ابنه حسان والياً عليهم اعترافاً بدوره وهو أمر يؤكد دخوله الجزائر بناء على رغبة أهلها. د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص٤٦؛ د. عبدالعزيز الشناوي: المرجع السابق ص١٩١٨ وما بعدها.

الفصل الخامس

عزلة المشرق العربي في العصر العثماني
ايجابياتها وسلبياتها

عزلة المشرق العربي في العصر العثماني
ايجابياتها وسلبياتها

اعتبر كثيرون من المؤرخين الأوروبيين والعرب أن السبب الرئيسي في تخلف المشرق العربي يرجع في المقام الأول إلى العزلة التي فرضها العثمانيون عليه ما يقرب من ثلاثة قرون، وأعدوا هذه العزلة في مقدمة السوءات التي يتسم بها نظام الحكم العثماني للوطن العربي.

وبقدر ما يعبر ذلك من قبل المؤرخين الأوروبيين عن غرور أوروبي يتمثل في جعل الحضارة الأوروبية محوراً أساسياً لتاريخ تقدم أو تخلف الشعوب، بل وحتى يبدو في تحديد موقع الشعوب الأخرى من أوروبا كالشرق الأوسط والأدنى والأقصى وغير ذلك، فإن موقف المؤرخين العرب - يعبر في أغلبه - عن نزعة استسلام وانهزامية نتجت عن انبهارهم بمعطيات هذه الحضارة ومظاهرها وإحساسهم بالعجز تجاهها كان من أول آثاره التزامهم بالتبعية الفكرية وانسياقهم وراء تحليلات المؤرخين الأوروبيين للتطور التاريخي.

وحتى تلك المحاولة التي قدمها الدكتور «عبد العزيز الشناوي» في كتابه «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها» والتي حاول خلالها - من منظور إسلامي - أن يبرهن على أن العثمانيين لم يفرضوا تلك العزلة على المشرق العربي من خلال إثباته لمجموعة معاهدات واتفاقيات تجارية عقدها العثمانيون بين كل من جنوة والبندقية وفرنسا ثم انجلترا وبين

ولايات المشرق العربي، وأن الولايات العربية هي التي تقاعست عن العمل بهذه المعاهدات، فإنه مع ذلك قد برهن على جعل العزلة عن الحضارة الأوروبية هي السبب الرئيسي فيما حاق بالمشرق العربي من تخلف وجمود. كما سار في نفس الاتجاه الدكتور «محمود غرايبة» حين حاول أن يلقي بتبعة التخلف والجمود على العرب أنفسهم وأنهم أرادوا أن يلقوا تبعة كسلهم وسلبيتهم على العثمانيين فابتعدوا عن مجرى الأحداث السياسية والعسكرية وفقدوا اهتمامهم بها ولم يشاركوا في أحداثها[1]، حيث أكد بهذا التفسير كذلك أن عدم الاحتكاك بحضارة الغرب سواء أكان بسبب العثمانيين أم بسبب العرب يعد عاملاً أساسياً في تخلف وجمود المشرق العربي.

العزلة طبيعة تركية:

يتفق كثيرون من المفكرين على أن الاستعلاء والعزلة تعد من السمات البارزة في تكوين الشخصية التركية، ويرجع البعض ذلك إلى أن نظرتهم إلى أصولهم الجنسية كانت نظرة تنم عن أنهم أنقى وأرقى من الأصول الجنسية للشعوب الأخرى[2]. على أننا نغلب عاملين آخرين في تفسير هذه السمة أولهما الطبيعة العسكرية التي التزم بها التركي وفضلها على غيرها من المهن على اعتبار أنها طبيعة لازمة للإنسان القوي، وكان تكريم الإسلام للجهاد والمجاهدين من أهم العوامل التي دفعت الأتراك في وسط آسيا لاعتناقه وذلك لاتفاقه في هذا الجانب مع طبيعتهم في الميل إلى الفروسية التي كانت تعرف بنظام الفتوة أو العيارين وعرفت في العصر العثماني باسم الآخيين. وقد ظلت هذه الطبيعة سمة بارزة للتركي

---

(١) د. عبد الكريم غرايبة: تاريخ العرب الحديث ص ٢٥.
(٢) د. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ ١ ص ٣٢١.

منذ ظهوره على الساحة السياسية في العصر العباسي الثاني ثم في دولة السلاجقة.

وازداد بروز هذه السمة - التي يتسم أصحابها بالاستعلاء والجهل أحياناً - لدى الأتراك في العصر العثماني حين استطاعوا أن يؤسسوا إمبراطورية قوية مهابة الجانب مترامية الأطراف في الشرق والغرب(٣)، فالتزموا بالعزلة في ثكناتهم العسكرية دون الاختلاط بالشعوب المفتوحة وبخاصة أنهم كانوا يدركون أيضاً قلة عددهم عن الشعوب المحيطة بهم، ولذلك بدت ثكناتهم العسكرية في قلاع تعلو مناطق وجودهم لا لكونها في موقع عسكري فقط ولكن لاتساقها مع طبيعتهم الذاتية.

أما العامل الآخر فهو عامل حضاري حيث كان التركي بطبيعته المتنقلة لا يحتفظ برصيد حضاري يوازي ذلك الرصيد الذي كان للشعوب المفتوحة. وبغض النظر عن تأثر الأتراك العثمانيين بالحضارتين الإسلامية والبيزنطية وبشكل أسهم في وجود حضارة خليطة ميزتهم عن كلتا الحضارتين فإنهم لم يأخذوا بأسباب الحضارة إلا بعد استقرارهم السياسي. وعلى الرغم من أن الحضارة الإسلامية كانت قد أصيبت بالجمود منذ الهجوم المغولي على بغداد وكذلك أفول الحضارة البيزنطية بعد سقوط القسطنطينية إلا أن الأتراك العثمانيين قد استمروا فترة ليست بالقصيرة في الأخذ عن هاتين الحضارتين، وبالتالي كان إحساس التركي بأنه أقل حضارة من أصحاب الحضارتين وفي نفس الوقت هو الفاتح المنتصر القوي فإن هذه العوامل - مع طبيعته العسكرية - قد دفعته لاعتزال الاحتكاك بهذه الشعوب.

أما العزلة التي اتجه المؤرخون إلى إدانة الحكم العثماني بسببها فهي

---

(٣) د. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق ص ٤٩.

العزلة التي فرضها العثمانيون على المشرق العربي والتي وصفها البعض بأنها لم تكن عزلة سياسية أو اقتصادية فقط بل كانت عزلة حضارية أيضاً[٤].

وقبل أن ندلل على أن العثمانيين لم يفرضوا العزلة على المشرق العربي فإننا نوضح بداية أن ذلك ليس تسليماً منا بأن الاتبعاد عن الحضارة الأوروبية مهما كانت أسبابه يعد العامل الرئيسي في تخلف وجمود الشرق العربي منذ العصر العثماني بل إن ذلك التخلف والجمود في رأينا يرجع في المقام الأول إلى تكون اتجاه عربي عام كان وما زال يرفض الانفتاح الكامل على الحضارة الغربية لما يحسه في نظرة الغرب المتعالية والمشوبة بالحقد والكره إلى الشرق العربي الإسلامي والتي يتهم كثيرون من المفكرين الشرقيين بسببها دعاة الاتجاه إلى الغرب من مفكريه بالانهزامية والاستسلامية. وقد أسهم عديد من العوامل في تكون هذا الاحساس لعل من أهمها ذلك الرصيد التاريخي الذي خلفته الحروب الصليبية التي أشعلت جذوة الصراع الديني بين الشرق والغرب والتي استمرت تأخذ أشكالاً عدة عبر مراحل التاريخ الحديث[٥]. وتبع ذلك اتجاه المفكرين الغربيين إلى التقليل من شأن الحضارة الإسلامية وإنكار استفادتهم منها بل وإرجاع الجوانب المضيئة فيها إلى حضارات أوروبية قديمة كاليونانية والرومانية.

---

(٤) د. محمد أنيس: الدولة العثمانية والمشرق العربي، ص ١٤١. د. رأفت غنيمي الشيخ: تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص ٥٨، ٥٩.

(٥) د. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق جـ ٢ ص ٧٢٤.

العثمانيون لم يفرضوا العزلة على المشرق العربي:

سعت الدولة العثمانية منذ بداية فتحها للمشرق العربي إلى ربطه بالعالم الخارجي وبأوروبا على وجه الخصوص، فقد عقد السلطان سليم الأول معاهدة مع جمهورية البندقية سنة ١٥١٧ م بقصد إحداث تبادل تجاري بينها وبين مماليك مصر ولكونهما قد أضيرا معا بسبب تحول طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح(٦). وفي سنة ١٥٣٥ م عقد السلطان سليمان القانوني معاهدة مع فرنسا حصلت فرنسا بمقتضاها على امتيازات اقتصادية متعددة داخل الولايات العثمانية، وهي الامتيازات التي طالبت دول أوروبية أخرى أن تحصل على مثلها وفي مقدمتها انجلترا، واستجابت الدولة العثمانية لهذه المطالب وعقدت معاهدة مماثلة مع الإنجليز(٧).

وإذا كانت الدولة العثمانية قد نجحت في فرض حظر كامل على السفن الأوروبية من دخول البحر الأحمر بسبب نزعتها الدينية المعادية للمسلمين والمقدسات الإسلامية، وأن تلك السياسة قد أدت إلى حدوث ركود اقتصادي لموانىء البحر الأحمر، إلا أنها بعد أن استقرت أوضاعها في المشرق العربي في أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر قد فتحت الباب لتنافس شركات تجارية غربية كشركة الهند الشرقية البريطانية والشركة الهولندية لإقامة الوكالات التجارية في أحد موانىء البحر الأحمر وهو ميناء «المخا» حيث تنزل البضائع والتوابل والأقمشة الهندية(٨).

---

(٦) د. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق ص ٨٢٧.

(٧) المرجع السابق ص ٨٢٧.

(8) Marston, T.E: Britain, S Imperial Role in thered sea area, P. 3.; marco, E: Yemen and Western World Since 11511.1 193. p.

وإلى جانب ذلك فقد عادت الحيوية إلى عديد من الطرق التجارية القديمة بين بلدان المشرق العربي، فضلا عن تدعيم الدولة العثمانية لحركة التبادل التجاري بين الموانىء الأفريقية سواكن ومصوع وبلاد الحبشة وبين ميناء جدة وبقية المدن الحجازية المقدسة[٩].

إيجابيات عزلة المشرق العربي عن الغرب الأوروبي:

على الرغم من حرص الدولة العثمانية على دوام تدعيم العلاقات الاقتصادية بين الشرق الإسلامي وبين أوروبا إلا أن سياستها تجاه تحركات الدول الغربية العسكرية تجاه الشرق والتي ظهرت بطابع ديني عدائي قد اتسمت بالحذر والحيطة الكاملة، واستطاعت هذه السياسة أن توفر عوامل الأمن والأمان للمشرق العربي. ومع أن سياسة الحذر هذه كان لها تأثيرها غير المباشر على عدم السماح بالتبادل الثقافي بين الشرق والغرب إلا أن العرب أنفسهم لم يبد لديهم قبولٌ للأخذ عن الثقافة الغربية لاستقرار حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ولم يكن باستطاعة الدولة العثمانية أن تسعى لإحداث تغييرات في النظم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، ويرجع ذلك في المقام الأول إلى الدور الدفاعي الذي كانت تتولاه ضد القوى الأوروبية وعلى جميع الجبهات سواء على الساحة الأوروبية أم في الهجمات الأوروبية على البحار والموانىء الإسلامية في البحرين الأحمر والأبيض المتوسط وفي منطقة الخليج العربي. فقد تعرضت هذه الدولة لحروب من قبل الروس في الشمال والأوروبيين في الغرب إلى جانب دور الدول الأوروبية الاستعماري في البحر الأحمر والخليج العربي. وقد استوجب هذا الدور

---

(٩) د. جمال زكريا قاسم: الصراعات المحلية والدولية في البحر الأحمر في العصر العثماني ص ٢٤٣.

انفاق الدولة لأموال طائلة في الحروب المتوالية لم تمهلها للقيام بحركة إصلاح شاملة في الداخل. كما أن الدول الأوروبية قد استغلت انشغال الدولة بهذه الحروب أو ضعفها بسببها وشجعت أصحاب الأطماع الشخصية من حكام الولايات العثمانية على إعلان التمرد والعصيان على الحكومة العثمانية الأمر الذي أدى إلى مزيد من إضعافها بدلا من مساعدة هذه الولايات لها في مسئولية الدفاع المتواصلة ضد الأطماع الغربية.

ويأتي في المقام الثاني ضعف الرصيد الحضاري العثماني بسبب هذه العوامل وبالتالي بدا نظام الحكم العثماني عاجزاً وخالياً من الخطط الإصلاحية لإحداث تغييرات في نظام الدولة أو في أحوالها الداخلية.

وإذا كان لنا أن نسلم بمسئولية الدولة العثمانية في تدعيم النظام الإقطاعي في كل ولاياتها فذلك يرجع إلى أنه كان النظام السائد الذي قام عليه نظامها منذ بداية تكوينها السياسي، لكن الضعف الذي ألم بالحركة التجارية والحرفية (الصناعية) فقد كان بفعل عوامل أخرى سابقة للوجود العثماني في المشرق العربي حيث كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول طريق التجارة إليه منذ سنة ١٤٩٨م وما ترتب عليه من إهمال لطرق التجارة القديمة عبر الشرق العربي هو السبب الرئيسي في ضعف النشاط التجاري والحرفي وبالتالي ضعف الطبقة الاجتماعية التي كانت تعتمد عليه اعتماداً رئيسياً.

ومن جانب آخر فإننا لو جارينا الذين يتباكون على الابتعاد عن أوروبا استعماراً وحضارة ويرجعون إلى ذلك كل أسباب ما أصابنا من تخلف وجمود ويلقون بالتبعة في هذا على العثمانيين دون أن يذكروا لهم فضل الحماية من هذه الهجمة الصليبية الاستعمارية الشرسة وحفاظهم على استمرار مقومات الترابط والوحدة بين أقطار الوطن العربي بعد أن

ظل إبان الحكم العثماني وطناً واحداً دون حواجز، فإن لنا أن نعرض العديد من نماذج الشعوب التي تعاملت مع الأوروبيين - ولم يجدوا من يفرض عليهم عزلة - منذ مطلع العصور الحديثة وطوال الوجود العثماني «المذموم» في المشرق العربي.

وأول هذه النماذج القارة الأفريقية التي تعرضت - طوال أربعة قرون - لأسوأ صورة من صور الاستغلال والقهر من قبل الأوروبيين في العصر الحديث. فقد بدأت البرتغال بافتتاح صفحة الرق في هذه القارة، وقد ربط الكتّاب الغربيون بين هذا الاتجاه وبينْ الدافع الديني بصورة تبدو إنسانية، حيث بدأت هذه التجارة حين استطاع أحد الملاحين البرتغاليين أن يأسر عدداً من المواطنين الأفريقيين ثم اصطحبهم معه لتعليمهم مبادىء الديانة المسيحية وحتى يعودوا لبلادهم ليسهموا في نشر الدين المسيحي بين ذويهم من الأفارقة. ولكن سرعان ما تحولت المسألة إلى شراء الأفارقة أو خطفهم ثم بيعهم للعمل في البرتغال. ثم اتسعت هذه المسألة على كل الساحة الأوروبية، وأصبحت لشبونة في البداية من أكبر العواصم الممتلئة بأسواق النخاسة إلى أن نافستها غيرها من العواصم الأوروبية[١٠].

وقبل أن تتوغل الدول الأوروبية داخل القارة الأفريقية وتركز وجودها في مراكز ساحلية بلغ عدد ما وصل إلى الممتلكات البريطانية من الرقيق الأفارقة في ست سنوات فقط (١٦٨٠-١٦٨٦ م) ما يقرب من مليونين ونصف، مع العلم بأن هذا العدد هو عدد ما وصل حيا وهو أقل من نصف العدد الذي تم جمعه قبل الترحيل نظراً لأنهم كانوا يتعرضون لأسوأ أنواع الرعاية حيث كانوا يجمعون في (زراريب) وكان

---

(١٠) د. شوقي الجمل: تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها ص ١٣٩.

أغلبهم يموتون قبل أو أثناء رحلات ترحيلهم فيلقى بمن يموت منهم في البحار. وقدر البعض عدد ما وصل حيا من الرقيق الأفارقة إلى المستعمرات الأوروبية في قرن واحد بـ ٤٠ مليوناً في حين يقدره البعض بما لا يقل عن مائة مليون[١١].

وحين أرادت بعض الشركات الأوروبية استثمار المنتجات الأفريقية داخل القارة الأفريقية استولت على العديد من الأراضي وأقامت فوقها مستعمرات كاملة للأوروبيين طردت منها الأفارقة أو حولتهم إلى رقيق، ونتج عن هذه السياسة ما يسمى بالاستعمار الاستيطاني الموجود في جنوبي افريقيا الآن فضلا عن اتباع سياسة التفرقة العنصرية التي ما زالت تعاني منها القارة الأفريقية حتى الآن.

أما في القارة الآسيوية فقد سارع الاستعمار الأوروبي بالقضاء على الإمبراطورية الإسلامية في الهند ثم تقسيمها إلى مراكز نفوذ بين البلدان الأوروبية، كما استطاع الهولنديون الاستيلاء على جزر الهند الشرقية في أغلبها. ولعل من أسوأ الصور البارزة للاستعمار الأوروبي في آسيا التنافس الذي دار بين الدول الأوروبية منذ القرن السابع عشر على إخضاع الصين وتحويل عدد كبير من الصينيين إلى رقيق. كما قامت الشركات البريطانية، مدعومة من حكومتها، بالترويج لتجارة الأفيون واستطاعت أن تستولي بهذه السموم على أغلب موارد الشعب الصيني وإضعافه اقتصادياً إلى جانب تأثير هذه السموم، وتمكنت بريطانيا بهذا من السيطرة على الصين، ومعها الدول الاستعمارية، حتى الربع الأول من القرن العشرين حين نجح «تيان تسن» (ت ١٩٢٥ م) «وشيان كاي

---

(١١) د. شوقي الجمل: المرجع السابق ص ١٤١. وزرايب هي أماكن تواجد المواشي.

شيك » من إحداث ثورة شاملة حررت الصين من الاستعمار الغربي وأسهمت في انضمامه إلى المعسكر الشيوعي الشرقي[١٢].

وفي القارة الأمريكية الشمالية تمكن المستعمرون الانجليز والفرنسيون من استيطانها بعد أن تمكنوا من القضاء على سكانها الأصليين من الهنود الحمر، وأصبح هؤلاء السكان من أصحاب البلاد أقلية ليس لها نصيب في الاشتراك في إدارة بلادهم أو حتى المشاركة في تحديد مصير أنفسهم حتى تاريخنا المعاصر[١٣].

ولا شك أن هذه الأمثلة المحدودة تؤكد أن الاستعمار الغربي قد استخدم أساليب شرسة لا تتسم بالطابع الإنساني في علاقته مع الشعوب الأخرى، ولو قدر له أن يتمكن من استعمار الشرق العربي في هذه الهجمة فإن نصيبه كان سيصبح على الأقل مماثلا لنصيب هذه الشعوب وإن كان سيزيد عليها بحكم الرصيد التاريخي من العداء الديني الذي كان ملحوظاً في موقف الاستعمار من الشرق الإسلامي في بداية هذه الموجة الاستعمارية. وإذا كانت أوروبا المعاصرة قد بدت في أعين الدارسين الشرقيين واحة من الأمان والرخاء والإنسانية والرقي العلمي فإن هذه المظاهر لم تبد جلية إلا في أعقاب الحروب الدامية العالمية الأولى والثانية التي كانت تعبر عن صراع المطامع بين بلدانها على الاستمرار في قهر الشعوب الأخرى. كما أن هذه المظاهر بكل ما يحيطها من تقدم وتمدين ترجع في أساسها إلى دماء الشعوب الأخرى التي ما زالت تعاني من جراء سياسة الاستغلال والقهر في تاريخنا المعاصر. إلى جانب أن سياسة الاستغلال والقهر هذه وإن كانت قد تلاشت بأسلوبها القديم في الغالب فإنها مستمرة بأساليب جديدة يأتي في مقدمتها

---

(١٢) بانيكار: آسيا والسيطرة الغربية ص ١٨ وما بعدها.

(١٣) د. رأفت غنيمي الشيخ: أمريكا والعلاقات الدولية ص ٢٧ وما بعدها.

الاستعمار الاقتصادي والفكري، وكذلك إغراق الشعوب المطحونة في مشاكل متعددة حتى تبعد بينها وبين سياسة التنمية كي تظل في إطار التبعية والاستغلال. وبالتالي يمكن القول بأن المظاهر الإنسانية المفرطة في بعض الأحيان التي تظهر في أوروبا المعاصرة هي رد فعل لسياسة طويلة من اللاإنسانية، كما أنها إنسانية مبتورة لاقتصارها على مساندة جنس دون آخر وخضوعها لقضية المصلحة أكثر من التزامها بمفهوم ثابت للقيم الأخلاقية.

إن كثيراً من الدول التي استطاعت أن تبني نفسها من الداخل قد اتبعت سياسة العزلة عن السياسة الأوروبية وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي والصين وغيرها، وقد لا يستطيع المشرق العربي أن يفرض عزلة جديدة على نفسه بحكم أنه بموقعه وخيراته على الأقل ما زال مستهدفاً من قبل الاستعمار الأوروبي بشكله الحديث، ولو أنه نجح في هذه السياسة ونجا من فرض المشكلات الأوروبية فإنه يستطيع في غضون مدة زمنية أن يشهد تنمية أوسع مما هو عليه الآن، لكن الاستعمار الغربي لن يتركه، ولعلنا نناجي العصر العثماني مرة أخرى حيث أصبحت العزلة المذمومة في عهده مطلباً غالياً وبعيد المنال في عصرنا الحالي. لكن النزعة الانهزامية لدى مفكرينا تجاه الحضارة الغربية، وسلسلة الصراعات المحلية، ومحاولة كثير من الأنظمة السياسية العربية كسب ود الغرب بتطبيق قوالب سياسية لا تتفق في إطارها مع مصالح شعوب المنطقة ولا تناسب واقعها، وكذلك وجود استعمار استيطاني هو إسرائيل، كل هذا يجعل من المسعى إلى عزلة جديدة للتنمية والبناء أمراً صعب التحقيق.

الفصل السادس

الحركات السياسية في العصر العثماني بين التمرد والإصلاح الديني

- حركات التمرد بين الأطماع الشخصية والمساندة الاستعمارية.
- الحركات الإصلاحية ذات الطابع الإسلامي.

الحركات السياسية في العصر العثماني
بين التمرد والإصلاح الديني

أوحت كثير من الأنظمة السياسية القومية إلى مؤرخيها بضرورة تعميق الجذور القومية تاريخياً ووفقا لمنظورها سواء أكان ذلك في الإطار العربي العام أم في الأطر الإقليمية المحلية المحدودة. وصدرت لهؤلاء المؤرخين العديد من الدراسات التي سعت لتحقيق هذا الهدف من خلال تطويع وتشويه الأحداث التاريخية، وساندتها هذه الأنظمة على ذيوع هذه الأفكار وانتشارها من جانب وفي فرض أطر شديدة من الالتزام على أية محاولات تخالف هذا الاتجاه أو تنقده من جانب آخر، فضلا عن الأطر التي أحاطت بالأنظمة التي تتعلق بالناحية المنهجية بل وبالعملية التعليمية والثقافية الأمر الذي جعل هذه الاتجاهات المأجورة أو المنقولة أو التابعة - بوعي وبغير وعي - تصل إلى درجة كونها من البديهيات والمسلمات.

وسبقت الإشارة إلى الدوافع التي جعلت هذه الأنظمة ومؤرخيها يعتبرون الوجود العثماني في المشرق العربي غزواً واحتلالاً، وبالتالي فإن هؤلاء المؤرخين قد فسروا كافة حركات التمرد التي قامت في المشرق

العربي إبان الحكم العثماني على أنها من قبيل العمل الوطني وتعبيراً عن نمو الشعور القومي وبدايات اليقظة القومية والسعي للتحرر مما اعتبروه استعماراً، فبدت حركة علي بك الكبير في مصر رمزاً من رموز اليقظة القومية وكذلك حركة ظاهر العمر وأحمد الجزار في فلسطين وآل العظم في الشام والمعنيون والشهابيون في لبنان والقرمانليون في ليبيا والحسينيون في تونس والمماليك في العراق وغير ذلك.

وإذا ما اتجه أي من هؤلاء المؤرخين إلى صياغة تاريخ العرب القومي بشكل عام جعلوا من كل هذه الحركات رمزاً لليقظة القومية العربية، والتقوا في هذا - بل تبعوا - المؤرخين الغربيين الذين اندفعوا إلى اتجاههم في صياغة تاريخنا هادفين إثارة النعرة القومية لتمزيق وحدة الشعوب الإسلامية. بل إن هؤلاء المؤرخين - أو كتّاب التاريخ - قد فسروا الحركات الإصلاحية التي اعتمدت على الشريعة الإسلامية في منهجها النظري والحركي كالدعوة السلفية في جزيرة العرب التي دعا إليها الشيخ محمد بن عبدالوهاب والدعوة السنوسية في ليبيا والدعوة المهدية في السودان على أنها حركات قومية أعادت دور الريادة الإسلامي للعرب بعد أن ضعف النظام العثماني (التركي)[1]، ولم يفطن أغلب هؤلاء إلى رفض الشريعة الإسلامية لأي إطار قومي من جهة، كما أن أيًّا من دعاة هذه الحركات قد تركز اعتراضه ضد العثمانيين على فساد الإدارة وممارسة الحكم في حين لم يبد أي داعية رفضه للخلافة كنظام أساسي إسلامي أو سعيه لضرب الوحدة الإسلامية بين كافة الشعوب الإسلامية دون النظر إلى جنسية الخليفة أو مقر الخلافة، كما أن أيًّا من المتمردين أو المصلحين لم يسع لتغيير أساس

---

(١) د. عبد الرحيم عبد الرحمن: دراسات في تاريخ العرب الحديث ص١٠٥.

الولاء لدولة الإسلام ولوحدة هويته[٢].

ويمكن أن تقسم هذه الحركات في مجموعها إلى قسمين:

الأول: حركات تمرد أو عصيان.

الثاني: حركات تصحيحية إصلاحية إسلامية.

أولاً: حركات التمرد أو العصيان

وتشمل حركة المعنيين والشهابيين في لبنان، وعلي بك الكبير في مصر، وآل العظم في الشام، وظاهر العمر وأحمد الجزار في فلسطين، والمماليك في العراق، والقرمانليين في ليبيا، والحسينيين في تونس.

وبشكل عام يمكن إرجاع دوافع هذه الحركات إلى ثلاثة عوامل رئيسية هي:

١- الأطماع الشخصية.

٢- التحريض والمساندة لهذه الحركات من الدول الاستعمارية.

٣- ضعف أو إضعاف نظام الحكم العثماني.

وقبل أن نوضح هذه العوامل ينبغي أن نشير إلى بديهية أكدها بعض المؤرخين وهي أن الشعور القومي في هذه الفترة كان غائباً تماما وأن الإطار الإسلامي هو الذي كان مسيطراً وسائداً لكافة نواحي الحياة.

---

(٢) برنارد لويس: الغرب والشرق الأوسط ص١٠٩.

أولا: الأطماع الشخصية:

لم تكن حركة المعنيين في لبنان ومن بعدهم الشهابيين تستند إلى مبادىء واضحة في موقفهم المعادي للدولة العثمانية، فكان نجاحهم في بسط نفوذهم على ولاية طرابلس أو خارجها يرجع إلى انتهازهم فرصة انشغال العثمانيين في مقاومة القوى الأوروبية، وقد دفعتهم أطماعهم إلى تخليهم عن المبادىء فادعى فخر الدين المعني الثاني الإسلام لتقريب العناصر الإسلامية إليه، ثم تقنع بقناع المسيحية لكسب ود العناصر والقوى المسيحية، وهو ما يصفه البعض بالحنكة السياسية(٣). وسلك الأمير بشير الشهابي الثاني الذي تولى سنة ١٧٩٥م نفس الأسلوب حيث استخدم الخديعة والحرب والمهادنة والهدايا، وادعى أمام الموارنة (وهو من الدروز) اعتناقه للمسيحية كي يكسب تأييدهم لأطماعه(٤).

ولم يكن «علي بك الكبير» في مصر ينتمي إلى العرب أو إلى المصريين أو حتى إلى المسلمين، فقد جاء إلى مصر وعمره ثلاثة عشر عاما كمملوك «لإبراهيم كتخدا»، وهو ابن قسيس رومي أرثوذكسي من الأناضول واسمه «يوسف»، اختطف وبيع في القاهرة كمملوك، وحين كبر تزوج من فتاة يونانية مسيحية اسمها «مريم» أظهرت الإسلام وظلت في الحقيقة محتفظة بدينها. ولهذا فإن علي بك قد ظهر بأكثر من اسم يتماشى مع مراتب تطوره في خدمة سيده ثم مع أطماعه فعرف باسم «جن علي» ثم باسم «بلوقبطان» ثم «علي بك القازوغلي» ثم «علي بك الكبير»(٥).

---

(٣) د. رأفت غنيمي الشيخ: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص٦٥.

(٤) المرجع السابق ص٦٧.

(٥) د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص١٠٠.

ومع أنه قد أبدى مهارة وذكاء أسهمت في بروزه إلا أنه اتصف بعديد من الصفات الأخرى كالغدر والخيانة والخديعة وغير ذلك. ففي أعقاب وفاة سيده «إبراهيم كتخدا» ساعده ذكاؤه في أن يحل محله، وساعده كبير طائفة المماليك «القازدوغلية» «عبدالرحمن كاهيا» في تولي مشيخة البلد سنة ١٧٦٠م نكاية في شيخها «علي بك الغزاوي» الذي كان على رأس قافلة الحج. وفور تولي علي بك المشيخة أصدر فرمانا بنفي «عبدالرحمن كاهيا» إلى الحجاز، فخرج إلى منفاه في موكب حزين أثار غضب كل المصريين على شيخ البلد «علي بك»[٦].

وتبع ذلك استخدام علي بك لأسلوب القتل والنفي والمطاردة ضد منافسيه مستعينا برفاقه وأقرانه، وحين تمكن نفوذه وقضى على منافسيه بدأ ينقلب على أقرانه[٧]، وقد وصفه الجبرتي بأنه هو الذي ابتدع المصادرات وسلب الأموال وأنها من مبادىء ظهوره. ثم اتجه إلى القضاء على العربان في الداخل كالحبايبة في الوجه البحري والهوارة في الوجه القبلي.

واشتطت به أطماعه إلى حد التطلع إلى باشوية مصر فأبدى توددا وتقربا إلى الدولة العثمانية، لكن السلطان العثماني لم يوافق على ذلك حتى لا يفتح الباب لصراع المماليك على هذا المنصب فيما بعد، ولما كان قد ورد إليه من تقارير عن علي بك وكثيرين من مماليك مصر، فضاق علي بك بهذا الرفض وانتهز فرصة قيام حرب بين روسيا والدولة العثمانية وطرد الوالي من منصبه وحبسه وأعلن توليه الباشوية[٨]. وحاول أن يحصل

---

(٦) د. عمر عبد العزيز: تاريخ المشرق العربي ص١٤٥.
(٧) د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص١٠١.
(٨) الجبرتي: عجائب الآثار، جـ ١ ص٣٩٩.

على اعتراف من السلطان العثماني بمنصبه فأرسل العديد من الهدايا ولكن السلطان ظل على رفضه، فأعلن علي بك رفضه لأي باشا يعينه السلطان في ولاية مصر، وسك النقود باسمه، وطرد كل من أبدى ميلا للعثمانيين[٩].

وانتهز علي بك فرصة أخرى ليزيد من أطماعه حين طلب منه السلطان العثماني التدخل لوقف الصراع على منصب شريف مكة فوجدها فرصة سانحة لضم الحجاز وطرد حاكم جدة المعين من قبل الدولة العثمانية[١٠]، كما انتهز فرصة الحرب الروسية العثمانية وسعى - من خلال تحالفه مع الروس ومع ظاهر العمر - إلى ضم بلاد الشام، وكاد أن يحقق ذلك لولا تمرد قائده «محمد بك أبو الذهب» الذي بدت أطماعه هو الآخر.

وظهرت أسرة آل العظم في بلاد الشام في القرن الثامن عشر بفعل عديد من العوامل أهمها ما ساد البلاد من فوضى بسبب الصراع بين العسكر واصطدام قوات الطامعين والمغامرين وضعف النواحي الاقتصادية. وعلى الرغم من إدراك الدولة العثمانية لحاجتها إلى عصبية قوية تقضي على هذه المظاهر وبالتالي تهيأت الفرصة لآل العظم،إلا أن آل العظم قد عملوا لمصلحتهم أكثر من سعيهم لتأمين مصلحة الدولة العثمانية وظلوا يوسعون إمارتهم حتى اصطدموا بتحالف «علي بك الكبير» و«ظاهر العمر» الذي قضى عليهم سنة ١٧٧١م، ثم عادوا للولاية فترة وجيزة قضى عليهم بعدها «أحمد الجزار» والي عكا سنة ١٧٩٠م.

---

(٩) الجبرتي: المرجع السابق ج٢ ص٢١٧؛ د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص١٠١.
(١٠) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص ١٤٥.

أما ظاهر العمر فهو عربي الأصل استطاع أن يحصل على التزام منطقة طبرية في فلسطين من باشا صيدا سنة ١٧٣٣ م وأثبت قدرته على الإدارة فيها، ثم تطلع إلى التوسع فاستخدم أسلوب الملاطفة والمسالمة أحيانا والاحتيال والتهديد أحيانا أخرى حتى تمكن من ضم التزام صفد سنة ١٧٣٩ م[١١]. ثم اصطدم مع بعض عناصر الشيعة «المتاولة» لرفضهم التنازل له عن الالتزام في بلادهم، واستخدم أسلوب الخديعة والمكر حتى أخذ بلادهم سنة ١٧٤٢ م واستصدر بها موافقة من باشا صيدا.

وحين استشعر ظاهر القوة تطلع إلى التزام مدينة عكا، وكان رفض باشا صيدا إعطاءها له نذيراً بالصدام مع الدولة العثمانية، فدخلها عنوة سنة ١٧٤٤ م وطرد الباشا العثماني منها واتخذها عاصمة له، وانطلق منها ليستولى على الناصرة وحيفا. ودفعته رغبته في مزيد من التوسع إلى الصدام مع آل العظم في الشام، ومع باشا صيدا نفسه فهاجم صيدا واستولي عليها. وأعطاه السلطان العثماني فرمانا بولاية صيدا وما جاورها للظروف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية، ولم يقف عند هذا الحد بل أخذ يتوسع في المناطق المجاورة حيث ضم القدس والخليل ويافا.

وقد كان ذلك الدور مستفزا للدولة العثمانية وبخاصة أنها كانت في حالة حرب مع روسيا وفي حاجة إلى عون لا إلى تمرد، وأدرك ظاهر العمر أن العثمانيين لن يتركوا أمره دون رادع، فلم يجد أمامه، استعدادا لموقف الصدام مع الدولة العثمانية، إلا أن يتحالف مع متمرد آخر هو علي بك الكبير في مصر. ومع أن علي بك قد أرسل جيشا لنجدته إلا أن تمرد قائد الجيش محمد بك أبو الذهب على سيده، وظهور أطماعه الشخصية، قد ساعدت القوات العثمانية على مواجهة ظاهر

---

(١١) د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص٧٧.

منفردا فهزمته، وقتله أحد حراسه سنة ١٧٧٥ م، وبخاصة بعد أن أنهت الدولة حربها مع روسيا التي كانت تسانده.

وشهدت تونس تسلط أسرة «حسين بن علي» حيث تودد حسين إلى أهل البلاد حتى نادوا به «بايا» على تونس سنة ١٧٠٥ م، ثم أعلن تمرده على الدولة العثمانية سعيا لجعل حكمه وراثيا، وظلت أسرته محتفظة بالحكم حتى في ظل الاحتلال الفرنسي وحتى سنة ١٩٥٩ م.

وفي ليبيا شهد مطلع القرن الثامن عشر كذلك حالة من الفوضى سمحت بظهور الكثيرين من الطامعين والمغامرين حتى نجح «أحمد القرمانلي» في الوصول إلى منصب والي طرابلس سنة ١٧١١ م. وقد حقق نجاحا آخر في التخلص من منافسيه من جند الانكشارية حيث أعد لهم مأدبة ذبحهم بعدها كالتي قام بها محمد علي بك والي مصر بعد ذلك للمماليك. وقد استعان القرمانلي في البداية بأعيان طرابلس، ثم عاد وأهملهم بعد أن حقق أطماعه في الولاية والتخلص من خصومه.

ومن الملاحظ أن أغلب حركات التمرد في الولايات العربية قد ظهرت في القرن الثامن عشر، ولا شك أن ذلك يرجع إلى سلسلة الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية ضد روسيا وعلى الساحة الأوروبية، وكذلك أطماع الصفويين الشيعة، وهو أمر أسهم في مزيد من انشغالها وضعف قبضتها على هذه الولايات علاوة على تدهور إمكاناتها الاقتصادية، ويبدو ذلك جليا في تسليم الدولة في الغالب بسلطة المغامرين والاعتراف بهم.

كما يلاحظ كذلك أنه على الرغم من تحالف بعض الطامعين المتمردين مع بعضهم ضد دولة الخلافة أو ضد بعضهم إذا ما اصطدمت مصالحهم وأطماعهم إلا أنهم سرعان ما كانوا يصطدمون ببعضهم لينهي كل منهم الآخر، ويبدو هذا من صدام والي عكا «أحمد الجزار» مع «بشير

الشهابي الثاني » و «علي بك » ضد « محمد أبو الذهب » وآل العظم مع «ظاهر العمر »، وتشير هذه الظاهرة إلى أن أيا منهم لم يكن يتمتع برصيد شعبي ولا يعبر عن مطالب شعبية بقدر ما كانت تحركه مصالحه وأطماعه الشخصية.

ثانياً: دور الدول الأوروبية في مساندة حركات التمرد وتشجيع قيامها:

أسهمت الصراعات بين الدول الاستعمارية الغربية في العودة إلى إحياء طرق التجارة القديمة عبر الأراضي الإسلامية، وبالتالي استعادت المنطقة العربية نسبة كبيرة من حيويتها التجارية التي كانت تحتلها قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح. ولكن إلى جانب ذلك ازدادت تطلعات هذه الدول لبسط نفوذها على المناطق المتحكمة في طرق التجارة، وشهدت المنطقة جهودا من تسابق هذه الدول وتنافسها وبخاصة بين انجلترا وفرنسا، وأصبحت المنطقة ميدانا للصراع خلال القرن الثامن عشر.

وبصفة عامة فقد اتسمت سياسة الدول الغربية تجاه المنطقة العربية، وتجاه الدولة العثمانية بشكل عام، بروح عدائية ذات طابع ديني لا تقل عن الروح التي سادت الصراع بين الشرق والغرب إبان الحروب الصليبية. وما كانت مساندة إحدى هاتين الدولتين للدولة العثمانية في حروبها مع روسيا أحيانا إلا حرصا منها - كل وفق سياسته - على إبعاد روسيا عن ميدان الصراع الاستعماري في حين كانتا تبديان تعاطفا مع روسيا إذا ما نجحت في اقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية بعيدة عن البحار الدافئة التي كانت تعني بالنسبة لها المشاركة في الميدان الاستعماري.

وبقدر غياب الوعي القومي إبان القرن الثامن عشر الذي شهد أغلب حركات التمرد ضد الدولة العثمانية وأن المفهوم الإسلامي هو المفهوم الذي كان سائدا لدى جماهير المسلمين وفي المشرق العربي على وجه الخصوص، فإن هذه الحركات لم تكن تستند إلى تأييد شعبي في موقفها من دولة الخلافة. ومن هنا التقت في أطماعها مع الأهداف الاستعمارية والصليبية للدول الغربية، ولقيت منها المساندة على تحقيق هذه الأهداف التي كانت ترمي من قبل الدول الغربية إلى إضعاف العالم الإسلامي وتفتيته إلى قوميات متعددة. بل إن الكثير من هذه الحركات قد ووجهت بمقاومة شعبية من قبل شعوبها حين بدا أمام هذه الشعوب ما كانوا عليه من تحالف وتأييد ومناصرة للدول الاستعمارية ومعاداة لدولة الخلافة، ومثال ذلك ما حدث لحركة علي بك الكبير في مصر حين اصطدم به قائده « محمد بك أبو الذهب » وفر إلى صعيد مصر، وأوضح أبو الذهب إلى الهوارة وغيرهم من المصريين، ما كان عليه سيده من عداء مع خليفة المسلمين وتحالفه مع دولة كافرة في حالة حرب مع دولة الخلافة وهي روسيا، فانضم إليه الهوارة وجموع من المواطنين، وكان هذا أول اشتراك لعناصر مصرية في هذه الحركات، وأعلنوا تصديهم لموقف علي بك الأمر الذي أسهم في هزيمته وانتهاء حركته.

أما عن دور الدول الغربية في مساندة هذه الحركات فقد حصل « فخر الدين المعني الثاني » على معونة من دوق تسكانيا في إيطاليا ومن كل من أسبانيا وفرنسا وفرسان القديس يوحنا، وأرسل « فخر الدين » العديد من الدروز لتلقي العلم في إيطاليا، كما قام بالاتصال بالشاه عباس الأول الصفوي والتنسيق بينه وبين الأوروبيين[١٢]. وإذا جاز أن نقبل

(١٢) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص١٦٩.

تفسير البعض بأن الهدف من ذلك كان قاصرا على أهداف اقتصادية فإن التفسير الغالب هو غلبة الأهداف الدينية التي تعبر عن العداء للمسلمين ولدولة الخلافة العثمانية وبخاصة من أسبانيا وإيطاليا وفرسان القديس يوحنا التي لم يكن لها في تلك الفترة أهداف اقتصادية واضحة في المنطقة(١٣).

وقد سمح «فخر الدين» ببناء العديد من الأديرة والكنائس، وقام بتمويل عملية البناء بنفسه وهو أمر جعل أحد الرحالة الإنجليز الذي زار لبنان سنة ١٦١٠م بأن يراه مسيحيا وأن إظهاره لإسلامه كان صوريا أمام العثمانيين في حين كان لا يبدو في سلوكه أي حرص على الشعائر الإسلامية، وهو أمر دعاه لأن يطلب من البابا أن يأمر مسيحيي لبنان من الموارنة بمعاونته(١٤).

ووطد الأمير «بشير الشهابي» الثاني علاقته بفرنسا، والإكليروس الفرنسي الإيطالي، حتى جاء الحكم المصري للشام في عهد محمد علي فضيق على المسلمين وسمح ببناء الأديرة والمدارس والإرساليات التبشيرية المسيحية الأمر الذي هيأ لحدوث صراع بين الدروز والموارنة ونتج عنه مذابح بين المسلمين والمسيحيين سنة ١٨٦٠م.

وقد لعبت فرنسا دوراً واضحاً في حدوث هذه المذابح لتوجد مبرراً لتدخلها العسكري في لبنان، ولولا الضغوط الاستعمارية لاستمر الاستعمار الفرنسي، لكن فرنسا حرصت على تمكين الموارنة المسيحيين من الحكم خلال فترة وجودها، وفرضت على الدولة العثمانية ضرورة تعيين حاكم

---

(١٣) د. أحمد عزت عبد الكريم: دراسات في تاريخ العرب الحديث ص٧٥.

(١٤) د. أحمد عزت عبد الكريم: المرجع السابق ص٧٦؛ د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص١٧٢.

مسيحي يساعده مجلس إداري يمثل بقية الطوائف[١٥]، وما زالت فرنسا تمثل الحليف التقليدي لهذه الأقلية - ومن منطلق ديني - حتى تاريخنا المعاصر[١٦].

وقامت روسيا بالاتصال بكل من «علي بك الكبير» في مصر «وظاهر العمر» في فلسطين أثناء حربها مع الدولة العثمانية، وقد دفعتها أطماعها الشخصية لسرعة الاستجابة لهذه الاتصالات وبخاصة بعد أن هزم الأسطول الروسي الأسطول العثماني سنة ١٧٧٠م[١٧]. وعقدت روسيا معها بعض الاتفاقيات السرية ضمن الروس بمقتضاها أماكن لإمداد أسطولهم في البحر المتوسط لقاء ما وعدت به من مساعدات مادية وعسكرية لعلي بك وحليفه ظاهر العمر، وقد وعد «علي بك» وحليفه بإعطاء الروس بعض المدن العربية نظير مساعدتها على تحقيق أطماعها[١٨].

على أن هدف الروس من هذه الاتفاقيات لم يكن قاصرا على هذا الهدف المحدود وإنما أرادوا أن يحرموا دولة الخلافة من مساعدات ولاتها في الحرب وبخاصة والي مصر، وقد التقت أهداف الروس مع أطماع «علي بك» و«ظاهر العمر» فجهزا جيشا بقيادة «محمد بك أبو الذهب»، وبمساندة قائد الأسطول الروسي «الكسيس أورلوف» من البحر للسيطرة على بلاد الشام[١٩]، وتمكن هذا الجيش من احتلال الشام

---

(١٥) د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص٦٩.

(١٦) برنارد لويس: المرجع السابق ص١٩٣.

(١٧) د. أحمد عزت عبد الكريم: المرجع السابق ص٨٢.

(١٨) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص١٤٨؛ وكانت هناك إتصالات بين ظاهر العمر وكل من فرنسا وفرسان القديس يوحنا في مالطة. د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص٨٠.

(١٩) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ص١٦٥.

وطرد حاكمها العثماني[٢٠]، إلا أن «أبو الذهب» قد عاد دون استكمال السيطرة على الشام منقلباً على سيده، ولا يستبعد أن يكون موقف أبو الذهب نابع من ظهور أطماع شخصية له وجد أن الوقت مناسبٌ لتحقيقها، وربما يكون العثمانيون قد اتصلوا به ووعدوه بالولاية إذا ما قضى على «علي بك».

ولا شك أن نمو الدور الروسي في شرقي البحر المتوسط قد أثار قلق الانجليز، ولا يستبعد أن يكونوا قد لعبوا دورا في إثارة عصيان «محمد بك أبو الذهب» على «علي بك». وكان «علي بك» يدرك ما كان عليه الإنجليز من قوة في البحر، ولذلك قبل التفاهم معهم، وقامت مباحثات بينهما عن طريق «جيمس بروس» القنصل البريطاني في الجزائر، وأسفرت هذه المباحثات عن عقد اتفاقية بينهما سنة ١٧٧٣م فتح بمقتضاها علي بك مرفأ السويس للمراكب البريطانية، وأصبح العلم البريطاني أول الأعلام التي ظهرت في البحر الأحمر بعد جهود العثمانيين في الحفاظ عليه كبحيرة إسلامية منذ بداية القرن السادس عشر[٢١].

ومما يشير إلى حدوث اتصالات بين «محمد بك أبو الذهب» والإنجليز أن الإنجليز لم يتحركوا لنجدة «علي بك» حين قضى عليه «أبو الذهب»، كما أن «أبو الذهب» لم يرفض سريان الاتفاقية التي كان قد عقدها معهم «علي بك».

كما ارتبط سقوط «ظاهر العمر» بانتهاء الحرب الروسية العثمانية وتوقيع اتفاقية «كتشك فينارجا» بينهما سنة ١٧٧٤م الأمر الذي يؤكد اعتماد هؤلاء المتمردين على مساندة الدول الأجنبية في تحقيق أطماعهم الشخصية.

---

(٢٠) د. عبد الكريم غرايبة: تاريخ العرب الحديث ص ٥٣.

(٢١) د. عبد الرحيم عبد الرحمن: المرجع السابق ص١٩٥، ١٩٦.

وكان استمرار الأطماع الصفوية الشيعية في العراق سببا في تحولها إلى ميدان صراع بينهم وبين العثمانيين، وفي تهيئة الظروف لظهور العديد من المغامرين والطامعين في حكمها وبخاصة بعد ظهور الولاة المماليك. وبعد أن تمكنت الدول الأوروبية من التسلل إليها وتكوين مراكز نفوذ لها حول أنهار العراق وبخاصة في القرن الثامن عشر استعان الكثيرون من هؤلاء الولاة بالدول الغربية وبخاصة انجلترا التي كانت أكثر الدول الغربية نفوذا في هذه المنطقة منذ أن أنشأت شركة الهند الشرقية وكالة لها بالبصرة سنة ١٦٤٣م[٢٢].

وقد استعان أشهر الولاة المماليك في العراق وهو «سليمان باشا الكبير» بالنفوذ البريطاني، حيث ساعدته شركة الهند الشرقية البريطانية في تولي باشوية بغداد (١٧٨٠-١٨٠٢م)، كما أمدته بالسلاح والعتاد وأرسلت له مجموعة من المدربين العسكريين الإنجليز لتدريب جيشه، وفي مقابل ذلك قدم العديد من التسهيلات لهذه الشركة في مزاولة نشاط إقتصادي واسع داخل العراق، كما أبدى حرصا ورعاية شديدة على نشاطها[٢٣].

وقام «داود باشا» (١٨١٦-١٨٣١م) بتوسيع دائرة اتصاله بالأوروبيين ففتح لهم ميدان النشاط التجاري بشكل زاد عن ذي قبل؛ وبخاصة بعد فتور العلاقة بينه وبين الإنجليز، وفتح إلى جانب ذلك الباب للراهبات الفرنسيات والإيطاليات لمزاولة نشاط تبشيري واسع داخل العراق، كما استعان بمدربين فرنسيين للإسهام في تدريب جيشه

---

(٢٢) د. أحمد عزت عبد الكريم: المرجع السابق ص٦٧.
(٢٣) د. رأفت الشيخ: المراجع السابق ص٨٣، ٨٤.

الذي كان يعده لمناوأة دولة الخلافة العثمانية، ولكن السلطان «محمود الثاني» تمكن من القضاء عليه[٢٤].

ثالثاً: ضعف أو إضعاف نظام الحكم العثماني:

تراكمت العديد من العوامل لتصيب النظام العام في الدولة العثمانية بحالة من التدهور والضعف، ولا شك أن هذه العوامل ترجع في المقام الأول إلى الدور الذي لعبته هذه الدولة على مسرح الأحداث الدولية أكثر مما ترجع إلى طبيعة النظام فيها كما يرى البعض. فقد نصبت هذه الدولة من نفسها القوة المدافعة عن العالم الإسلامي تجاه الغرب المسيحي، وفرض عليها هذا الدور مهام توسعية ثم دفاعية في عديد من الجهات حيث كان عليها الحفاظ على توسعاتها ومكاسبها على الساحة الأوروبية، ثم مقاومة الأطماع الشيعية الصفوية في إيران والمتحالفة مع الغرب المسيحي، وتمثل هذا الدور في الوقوف أمام الأهداف الصليبية البرتغالية تجاه المناطق المقدسة الإسلامية طوال القرن السادس عشر الأمر الذي أدى إلى إغلاقها للبحر الأحمر في وجه السفن الأوروبية، وكذلك مقاومة دور فرسان القديس يوحنا المدعوم من الدول الأوروبية على ساحة البحر المتوسط، ومحاولة مساعدة بقايا مسلمي الأندلس، وفوق ذلك مقاومة الأطماع الروسية بعد أن اعتبرت روسيا نفسها وريثة للإمبراطورية البيزنطية[٢٥].

وفي الوقت الذي كان الأمر يتطلب فيه من السلاطين العثمانيين الاحتفاظ بقوات عسكرية على كل هذه الجبهات، البحر المتوسط وبحر

---

(٢٤) د. أحمد عزت عبد الكريم: المرجع السابق ص٦٩.

(٢٥) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق ص١٦٤.

العرب والمنطقة المسماة بالقرن الأفريقي والجبهة العثمانية مع أوروبا والجبهة الشمالية مع روسيا والجبهة الشرقية مع الدولة الصفوية، أصيبت بتدهور اقتصادي شديد شمل أغلب ولاياتها بفعل تحول طريق التجارة بين الشرق والغرب إلى طريق رأس الرجاء الصالح. بل إن الأمر قد ازداد سوءاً بالنسبة للعثمانيين بسبب الآثار الناجمة عن التدهور الاقتصادي حيث أسهم في قيام العديد من حركات التمرد والعصيان الداخلية، وقد تطلب ذلك جهدا عسكريا من أجل مقاومة هذه الحركات، وترتب على ذلك بالطبع المزيد من النفقات سواء لتجهيز القوات العسكرية أو ما تتطلبته بعض محاولات الإصلاح داخل هذه الولايات.

وترتب على توسع العثمانيين في زيادة عدد من الجنود الإنكشارية لمواجهة هذه المهام، وهو أمر أدى إلى صبغ الدور العثماني بالصبغة العسكرية، أن أصبحت هذه القوات من أبرز مراكز القوى التي قوضت الكثير من حركات الإصلاح، برغم الدور الذي لعبته هذه القوات في توسيع رقعة الدولة وفرض مهابتها. واستغلت هذه القوات فرصة وجود بعض السلاطين الضعاف ليفرضوا نفوذا وسيطرة على سياسة الدولة فأبدوا عدم الاكتراث بقوانين الدولة، وتحكّموا في تعيين بعض السلاطين وكذلك وظيفة الصدر الأعظم أو عزلهم وقتلهم في بعض الفترات[٢٦]، ولم تفلح جهود كثيرين من السلاطين للحد من سطوتهم برغم القيام بتوزيع فيالقهم على الحدود كنوع من محاولة تمزيق قوتهم[٢٧].

وعلى الرغم من وجود ارتباط وثيق بين فيالق الإنكشارية وبين

---

(٢٦) د. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية جـ ١ ص ٤٩٨.

(٢٧) المرجع السابق ص ٥٠٠.

الطريقة البكتاشية إلا أن إحساس بعض قادة الإنكشارية بجذورهم المسيحية التي سعت لإثارتها عناصر أوروبية بينهم قد جعلهم يتحولون في بعض الأحيان إلى عامل هدم للنظام الإسلامي العثماني والسعي لتشويه وتشويه القوانين التي ظلت على طابعها الإسلامي طوال التاريخ العثماني، وكان ذلك الأمر وراء قيام السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥ م) بتجنيد أعداد وفيرة من المسلمين الأحرار (من أب وأم مسلمين) وإدخالهم في الفيالق الإنكشارية وقد طالب المجندون المسلمون الجدد بإلغاء الحظر الذي كان مفروضا على جنود الإنكشارية بالزواج، ووافق السلطان على ذلك، مما أدى إلى انشغال الإنكشارية بالحياة العامة بدلا من التركيز على الحياة العسكرية، والاشتغال بالعديد من الحرف والأعمال التجارية، وإن كان ذلك قد جعلهم يستمرون كمصدر إضعاف للدولة حيث ضعف دورهم العسكري من جهة وفرضوا العديد من الالتزامات المالية التي زادت في إرهاق ميزانية الدولة من جهة أخرى، حتى نجح السلطان محمود الثاني في القضاء عليهم سنة ١٨١٦ م(٢٨).

ومن هنا لا يمكن أن نحمّل العثمانيين وحدهم تبعة ما ألم بالولايات، والولايات العربية على وجه الخصوص، من ضعف وتدهور، ولا ينبغي أن نسيء إلى دورهم في الحفاظ على مقومات الترابط والوحدة بين هذه الولايات بأنها قد احتفظت بقوات عسكرية عثمانية فيها(٢٩)، وهو أمر طبيعي، ونفسر ذلك بأنه قد أثار الإحساس بالضعف وعدم القدرة على الحماية العسكرية لدى العناصر العربية بالارتباط بالخلافة العثمانية إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى.

---

(٢٨) المرجع السابق ص ٥٥٢.

(٢٩) د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص٥٢ وما بعدها.

كما أن حرص الدولة العثمانية على جمع الأموال الأميرية كان أمراً طبيعياً لا بحكم كونها دولة مسيطرة أو محتلة وإنما بحكم تطبيقها لقوانين مستمدة من الشريعة الإسلامية حرصت على الحفاظ عليها طوال مدة بقائها. وإذا كانت بعض التجاوزات في هذا الشأن قد تخللت الأسلوب العثماني وبفعل العديد من الظروف فإننا لا ينبغي أن ننساق وراء السعي لتعميم ذلك على كل الفترة العثمانية. فعلى سبيل المثال إذا كان العثمانيون قد أخذوا بنظام الالتزام فإنهم لم يكونوا أول من أوجده على الساحة المصرية أو في بلاد الشام أو في غيرها، كما أنهم لم يلجأوا إليه بشكل مسيء إلا في القرن الثامن عشر بسبب توالي الحروب التي خاضتها الدولة على الساحة الأوروبية وضد روسيا على وجه الخصوص.

ومما لا شك فيه أن هذه الظروف التي مرت بها الدولة قد أسهمت في إهمالها للعديد من جوانب الإصلاح الداخلي مما أدى إلى المساعدة على قيام العديد من حركات التمرد والعصيان التي كانت نتيجة وسببا لضعف قبضة الدولة العثمانية على ولاياتها، وسمحت تلك الظروف في هذه الولايات بظهور المغامرين والطامعين في نفس الوقت الذي ظهرت فيه أطماع الدول الاستعمارية بشكل مكثف في المنطقة العربية، فشجعت الدول الإستعمارية هذه الأطماع بشكل تكتيكي يتناسب مع ظهور الدول القومية وتنافسها ويهدف إلى تمزيق القوى الإسلامية، ثم ساعدوا على ظهور الشعور القومي الذي لم يكن يتناسب مع ظروف العالم الإسلامي استكمالا لهذا الهدف، وبعد أن تحقق هذا انفردت الدول الأوروبية بالبلاد الإسلامية الواحدة تلو الأخرى وهي مرحلة تعرف في التاريخ باسم المسألة الشرقية التي سبقت مرحلة وقوع الوطن العربي تحت الاحتلال الأوروبي.

ثانيا: الحركات التصحيحية الإصلاحية الإسلامية

شهدت المنطقة العربية قيام ثورات تصحيحية إصلاحية ذات طابع إسلامي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من أبرزها الدعوة السلفية في جزيرة العرب التي دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والدعوة السنوسية في برقة بليبيا، والدعوة المهدية في السودان.

ومع أن قيام هذه الدعوات قد واكب قيام بعض حركات التمرد والعصيان ضد الدولة العثمانية، وأن بعض هذه الدعوات قد اصطدم بدولة الخلافة وهي الدعوة السلفية إلا أنه ليس من الصواب إضفاء الصفة القومية على أي من هذه الدعوات سببا أو نتيجة وذلك لغياب الوعي القومي من جانب ولرفض المنهج الإسلامي الذي ارتكزت عليه هذه الدعوات لأي إطار قومي سواء في فكر دعاتهم أم في مسيرتها التطبيقية من جانب آخر. بل إن مراحل كفاح الدعوة السلفية في أعقاب النجاح الذي حققته داخل الجزيرة العربية وخارجها كان يتمثل في مقاومة الأطماع الشخصية التي دعمها الاستعمار الأوروبي والتي سعت لإرساء المنظور القومي في المنطقة والذي يتمثل في دور محمد علي(٣٠).

كما أن الزوايا السنوسية لم يقتصر انتشارها على المنطقة العربية بل شملت تركيا وفارس والهند، وكانت جميعها متصلة بالزوايا الأم في واحة جغبوب على الحدود المصرية الليبية وبزعامة مؤسس الدعوة محمد ابن علي السنوسي الجزائري المولد(٣١).

---

(٣٠) د. عبد الرحيم عبد الرحمن: المرجع السابق ص١٠٤ وقد اعتبرها يقظة للوعي القومي.

(٣١) أنور الجندي: اليقظة الإسلامية في مواجهة الإستعمار منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى - دار الاعتصام - القاهرة ١٩٧٨م ص٦٧، ٦٨.

وعلى الرغم من ارتباط هذه الدعوات بعوامل بيئية محلية في بداية ظهورها أو في مراحل تطورها إلا أن الدعوة السلفية في جزيرة العرب قد خرجت بمبادئها وأهدافها عن هذه الحدود وذلك لعاملين أساسيين أولهما وحدة العوامل البيئية - في الغالب - في المنطقة العربية والإسلامية وعدم قدرة العثمانيين على الإصلاح في هذا الجانب، والعامل الثاني يتمثل في نجاح قوات الدولة السعودية الأولى التي آمنت بهذه الدعوة وسعت لنصرتها في السيطرة على منطقة الحجاز وبث الدعوة بين وفود الحجيج من المسلمين مما أدى إلى قيام بعضهم بنشر مبادئها في بلاده. بل إن تأثر صاحب الدعوة السنوسية بمبادىء الشيخ محمد بن عبد الوهاب وإيمانه بها كانت دافعا لقيام دعوته ونجاحها، ولولا اعتماده على الزوايا الصوفية لأمكن القول بأن دعوته هي امتداد طبيعي للدعوة السلفية. وقد أصاب البعض في وصف هذه الدعوات بأنها «جاءت ببعث ديني كان له أثر كبير في أقطار عدة ساعد على حقن هذه الأقطار بمصل جديد للكفاح وعزم أقوى على جهاد ومقارعة الأوروبيين الغزاة»[٣٢].

ولم تثر الدعوة السلفية في مراحلها الأولى في نجد حفيظة الدولة العثمانية أو غيرها من الدول الأوروبية التي استشرى نفوذها في الخليج العربي وذلك لأن إقليم نجد الداخلي لم يكن تابعا للدولة العثمانية إلا من الناحية الاسمية، وظل الإقليم طوال فترة الوجود العثماني تحكمه قبائله بطريقتهم التقليدية المتوارثة دون تدخل من الدولة في شئون هذه القبائل وبخاصة أن النظام العام الذي اتبعته الدولة العثمانية في كل ولاياتها هو ترك الأقاليم التابعة لها للقوى المحلية[٣٣]. واتجهت عنايتها

(٣٢) برنارد لويس: الغرب والشرق الأوسط ص١٥٤.
(٣٣) د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص١٢٣.

إلى أطراف ذلك الإقليم في الحجاز والبحر الأحمر من ناحية الغرب، وفي الأحساء وساحل الخليج العربي من الجهة الشرقية، وذلك لحماية المنطقة من غارات الدول الأوروبية. وانصبت عنايتها على منطقة الحجاز التي كانت أساسا في صبغ دورها ووجودها بالصبغة الإسلامية وفي احتفاظ سلاطينها بمنصب الخلافة الذي أكسبهم شرعية ومهابة لدى كافة الشعوب الإسلامية، ولهذا أوقفت الأوقاف والصدقات والهبات على سكان الحرمين الشريفين. كما حظيت مكة والمدينة ببعض النواحي الإصلاحية دون باقي مناطق الجزيرة العربية الأمر الذي أسهم في تخلفها وضعفها وجعلها مكانا مهيأ لتقبل أية ثورة إصلاحية ومساندتها.

على أن تطور الدعوة السلفية ممثلا في دور الدولة السعودية الأولى ووصولها إلى الحدود الشرقية في الخليج العربي وانتشار مبادئها بين قبائل هذه المنطقة، كأهل قطر الذين استدعوا ممثلين عن الدولة السعودية سنة ١٧٩٢م، وكذلك أهل البريمي، وتحالف القواسم مع السعوديين سنة ١٧٩٩م بعد اقتناعهم بمبادئهم، كان ذلك سببا في توتر علاقة الدولة السعودية بالإنجليز، وبخاصة بعد أن أدى تحالف القواسم مع آل سعود إلى تقوية دورهم في الجهاد البحري ضد النفوذ الأوروبي، والإنجليزي على وجه الخصوص والذين وصفوا هذا الدور بالقرصنة، في الخليج العربي[٣٤].

وإذا كان نجاح أتباع الدعوة السلفية في السيطرة على إقليم الحجاز بما فيه مكة المكرمة والمدينة المنورة سببا في إثارة الدولة العثمانية عليهم حيث أدرك العثمانيون أن فقدهم للأماكن المقدسة سيفقدهم مكانتهم الإسلامية[٣٥]، إلا أن الوجود السعودي على البحر الأحمر قد أثار

---

(٣٤) د. صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي ص٥٨، ٥٩، ٩٧. د. سليمان الغنام: قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية ص٣٤.

(٣٥) د. سليمان الغنام: المرجع السابق ص٢٦.

بريطانيا في المقام الأول وبخاصة بعد أن بدت ملامح استعادة الطريق التجاري القديم عبر البحر الأحمر أهميته في القرن الثامن عشر، وقد بدا ذلك واضحا في تعقب القوات البريطانية للحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م والتي كان من أهم أهدافها ضرب المصالح البريطانية من خلال السيطرة على هذا الطريق، وكذلك في سعيها لعقد اتفاقية مع سلطان لحج سنة ١٨٠٢م بشأن منحها تسهيلات في ميناء عدن المدخل الجنوبي لهذا البحر.

ولا شك أن المنهج الإسلامي الواضح الذي ميز أتباع الدعوة السلفية والذي فرض عليهم أن يسلكوا سياسة عدائية ضد النفوذ الاستعماري قد جعل بريطانيا تستبعد إمكانية التفاهم معهم، ولهذا - ولعوامل أخرى سنوضحها - فإن الرغبة في ضرب هذه القوة كان يهم الإنجليز قبل غيرهم من القوى وبخاصة الدولة العثمانية من جهة، ويحدد كذلك طبيعة الدور الذي لعبه محمد علي في المنطقة من جهة أخرى[٣٦].

ومع ذلك فإن الدولة العثمانية لم تجد في دور الدولة السعودية ما يحفزها على إعلان الحرب عليها وبخاصة أن الداعية الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأتباعه لم يثبت عنهم أنهم دعوا إلى الخروج عن طاعة الخليفة ودولة الخلافة أو التشكيك في شرعيتها[٣٧]، ولم يعرف عنه دعوته لنفسه بهذا الأمر، وقد أكد ذلك في إحدى رسائله حيث قال: «ولا أكفر أحدا من المسلمين بذنب ولا أخرجه من دائرة الإسلام، وأرى الجهاد ماضيا مع كل إمام براً كان أو فاجرا، وأرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين ما لم يؤمر بمعصية، ومن ولي الخلافة

---

(٣٦) د. سليمان الغنام: المرجع السابق ص٢٦.

(٣٧) أحمد فهد بركات الشوابكة: الجامعة الإسلامية ص١٧.

واجتمع عليه الناس ورضوا به وجبت طاعته»[٣٨].

وكان من الممكن أمام ذلك أن تعتبر الدولة العثمانية أتباع دعوة التوحيد السلفية إمارة أو قوة تابعة لها لولا أن أتباع الدعوة السلفية أقدموا على التصدي للمظاهر الخارجة عن الشريعة الإسلامية التي كانت تصحب وفود الحجيج من مصر والشام والدولة العثمانية، وهو أمر كان يمثل ضروريات الالتزام بمنهج الدعوة[٣٩]، إلى جانب إغلاقهم لزوايا الدراويش الصوفية الموجودة في مكة والمدينة والتي ازدادت منذ بداية العصر العثماني، وهو أمر أوحى بإنهائهم للنفوذ العثماني المساند لهذه المظاهر والذي لم يكن يعني النفوذ السياسي العثماني كما سبق التوضيح[٤٠].

ومع ذلك فإن الموقف المهاجم من قبل الدولة العثمانية للدولة السعودية قد اقتصر على سعيها لعودة نفوذها السياسي على منطقة الحجاز، وكانت مهاجمتها لمنهج دعوة التوحيد لا تعدو أن تكون مبررا لهذا الأمر[٤١].

على أن موقف الشريف غالب شريف مكة قد ساعد الدولة العثمانية في موقفها المعادي للسعوديين حيث رأى في سيطرة السعوديين على الحجاز تهديداً لمركزه السياسي والاقتصادي بشكل لم يكن يسمح له

---

(٣٨) أحمد فهد الشوابكة: المرجع السابق ص١٧.

(٣٩) محمد أديب غالب: من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي ص١٠٩.

(٤٠) برنارد لويس: المرجع السابق ص١٥٣ ولا تتفق مع ما أورده حول اتهام السعوديين للسلطان العثماني باغتصاب السلطة وإن الهجوم قد اقتصر على مسائل شرعية، كما لا تتفق مع جورج أنطونيوس في نفس الاتجاه، أنظر: جورج أنطونيوس: اليقظة العربية ص٨٣.

(٤١) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص٢١٦.

بالتصرف الكامل - كما كانت عادة الأشراف - فيما يفد إليه باسم فقراء مكة والمدينة من أوقاف وصدقات وهبات وعطايا، والذي كان الأشراف يستأثرون بنصيب كبير منه لأنفسهم(٤٢). وعلى الرغم من تأمين السعوديين له على مركزه السياسي حيث أبقوه في منصبه في أعقاب دخولهم مكة سنة ١٨٠٣ م مقابل التزامه بتنفيذ مبادىء الدعوة إلا أن حرصه على مكانته الاقتصادية المرتبطة بنفوذه السياسي قد دعاه لإضمار العداء لهم، ومن هنا فإن عداءه للدعوة السلفية كان من منطلق مصلحي وليس موقفا تمليه المبادىء(٤٣).

ويعد موقف الإنجليز العدائي من هذه الدعوة هو الموقف الرئيسي، فلم يكن بوسع الدولة العثمانية أن تصطدم مع الدولة السعودية صداما عسكريا مباشرا وذلك نظرا لما تحملته قواتها العسكرية في الحروب مع روسيا، ثم محاولتها الدفاع عن مصر ضد الحملة الفرنسية التي قادها «نابليون بونابرت» سنة ١٧٩٨ م تلك الحملة التي أكدت عجز القوات العثمانية وضعفها عن القيام بمهمة الدفاع عن الأراضي التابعة لها، كما أن هذه الحملة قد أثارت في نفس الوقت شعور المسلمين في المنطقة ضد الفرنسيين، والأوروبيين بصفة عامة، مما وضع احتمال تجمعهم حول القوة السعودية الإسلامية الجديدة.

على أن ما ينبغي ملاحظته هو أن قيام قوات «محمد علي» - ولا نقول القوات المصرية - بمهاجمة الدولة السعودية لم يكن امتثالا منه لطلبات أو أوامر الدولة العثمانية، تلك الطلبات أو الأوامر التي مارس

---

(٤٢) إبراهيم محمد الصبحي: الحجاز في القرن السابع عشر - رسالة ماجستير غير منشورة ص١٠٣.

(٤٣) محمد أديب غالب: المرجع السابق ص١٠٦، ١٠٧، د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص١٣٩.

الإنجليز ضغوطا شديدة على السلطات العثمانية في سبيل إصدارها وبخاصة بعد تحسن العلاقات الإنجليزية العثمانية منذ سنة ١٨٠٩ م[٤٤]، والتي اتخذ منها «محمد علي» وحلفاؤه البريطانيون ذريعة لتدخلهم وستارا لطبيعة الدور الذي لعبوه في المنطقة، حيث كان تعبيرا عن توافق أطماع محمد علي وسياسته مع أبعاد السياسة الاستعمارية في المنطقة العربية وبخاصة مع الإنجليز[٤٥]، فكان الإنجليز أول من هنأوا «إبراهيم باشا» بسقوط الدرعية[٤٦]، كما أن الرسائل المتبادلة بين الجانبين تؤكد وجود تنسيق بينهما. ولعل أهم الدلالات التي تؤكد ذلك توافق سقوط الدرعية في يد إبراهيم باشا سنة ١٨١٨م مع سقوط رأس الخيمة مقر قبيلة القواسم المتحالفة مع السعوديين في يد الإنجليز سنة ١٨١٩ م[٤٧]. كما أن بعض الإنجليز كانوا يفكرون في دعوة إبراهيم باشا لعمل مشترك ضد القواسم في رأس الخيمة إلا أن هذه الفكرة قد رفضت لعدم رغبة الإنجليز في إخضاع ساحل الخليج لقوات تابعة لحاكم مصر[٤٨].

وعلى أية حال فلم يكن بوسع الإنجليز أن يوقعوا معاهدة يملوا فيها شروطهم على أمراء رأس الخيمة وغيرها إلا بعد أن فقد هؤلاء الأمراء مساندة القوة السعودية وهو الدور الأساسي الذي قام به والي مصر[٤٩].

---

(٤٤) د. سليمان الغنام: المرجع السابق ص٢٨.
(٤٥) جورج أنطونيوس: المرجع السابق ص٨٣.
(٤٦) د. بدر الدين عباس الخصوصي: دراسات في تاريخ الخليج العربي ص ١٩٨.
(٤٧) د. محمد أنيس: الدولة العثمانية والمشرق العربي ص١٩٧.
(٤٨) د. بدر الدين عباس الخصوصي: المرجع السابق ص٢٠٠.
(٤٩) عن شروط المعاهدة أنظر: د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص١٠٥، ١٠٦؛ د. سيد نوفل: الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة؛ الكتاب الثاني، ط٢ القاهرة سنة ١٩٧٢م ص١٦٧.

ومن جهة أخرى فقد أكد محمد علي عدم انطياعه لكثير من الأوامر والفرمانات العثمانية التي كانت تتعارض مع أطماعه وسياسته المرسومة، تلك الأطماع والسياسة التي أسهمت في توجيهها - إلى جانب الاستعمار الغربي - المحافل الماسونية التي أسست لها فروع كثيرة في مصر في عهده، والتي توافقت أهدافها مع السياسة الاستعمارية في تهيئة المنطقة لتبسط نفوذها عليها، والتي لم تكن لتتحقق إلا بضرب القوى الإسلامية وتفتيتها.

أما الدعوة السنوسية في برقة فقد ارتبط قيامها ودورها في البداية بعوامل محلية تتمثل فيما شاب المجتمع من شوائب أكدت الابتعاد عن الشريعة الإسلامية لدرجة دعت بعض البدو لإقامة «كعبة» في الجبل الأخضر على غرار البيت الحرام في مكة المكرمة، وطالبوا الناس بالحج إليها، فضلا عن بعض العادات التي تشير إلى ضعف الالتزام بالتعاليم الإسلامية كوأد البنات وعدم صوم شهر رمضان وغير ذلك من الظواهر التي دعت إلى ضرورة وجود دعوة للعودة للمنهج الإسلامي الصحيح كالتي قام بها السنوسي(٥٠).

وعلى الرغم من ارتباط دور السنوسية بعوامل أخرى خارجية تتمثل في الهجوم الاستعماري الفرنسي على الجزائر، بل ربما كانت في رأي البعض رد فعل مباشر له(٥١)، إلا أن ذلك الدور لم يصطدم مع دور دولة الخلافة العثمانية في محاولة مقاومة الهجوم الاستعماري الغربي على المنطقة العربية بشكل عام ومنطقة البحر المتوسط بشكل خاص، بل كانت في أغلب المراحل تأييدا له. ومع ذلك فقد تأثر صاحب

---

(٥٠) د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص١٥٩.
(٥١) أنور الجندي: المرجع السابق ص٦٧.

الدعوة السنوسية بسقوط الجزائر، فاتهم الدولة العثمانية بالتقصير في حماية الأقطار الإسلامية، ورأى أنها في طريقها إلى التدهور، وأن من أهم الظواهر التي دعته إلى ذلك هو سيادة العناصر التركية واستبعاد العناصر العربية مما يشير إلى تسرب بعض الأفكار القومية. ووضع تصورا لما ينبغي أن تكون عليه الخلافة الإسلامية في حالة سقوط الخلافة التركية فرأى أن يكون الخليفة من قريش ومن سلالة النبي ﷺ[٥٢].

ومع ذلك أكد صاحب الدعوة السنوسية على ضرورة الارتباط وإظهار الولاء لدولة الخلافة العثمانية ولخليفة المسلمين فيها، ورأى أن معاداتها أو الخروج عليها أمر خاطىء وغير واجب. ولم يكن ذلك نابعا من خشية السنوسيين من الصدام مع العثمانيين كما حدث مع الدعوة السلفية كما يرى البعض حيث رفض السنوسيون الاستقلال عن دولة الخلافة في أعقاب دخول الإيطاليين إلى طرابلس سنة ١٩١١م، كما أنهم لم يبدوا حرصا على ذلك بعد استكمال قوتهم في مراحل تالية[٥٣].

وتولى السنوسيون تحصيل الضرائب للدولة العثمانية، وأكد دعاتها دوام ولائهم للسلطان العثماني، كما منحهم السلاطين إعفاء لأملاكهم من الضرائب، وأيدوا دورهم في التوسع لنشر الإسلام داخل القارة الأفريقية، وكذلك في دعم حركة المقاومة ضد الدول الأوروبية في البحر المتوسط.

وقد أثار دور السنوسية الدول الأوروبية التي سعت لإثارة السلطان عبد الحميد الثاني عليها مما دعا السلطان لإرسال وفد للوقوف على أحوال السنوسية وقوتها، لكن ذلك لم يؤد إلى انتهاء علاقة الود

---

(٥٢) د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص١٨٤.
(٥٣) المرجع السابق ص١٨٤.

والتفاهم، بل إن السنوسية قد دعت الى دعم سياسة عبدالحميد الإسلامية، وأعلنت معارضتها لدعاة الاتجاه القومي في تركيا، واستنكر السنوسيون ما أقدم عليه الاتحاديون من خلع السلطان عبد الحميد.

وفي أعقاب الحرب الطرابلسية سنة ١٩١١م والتي احتلت بعدها إيطاليا ليبيا وانسحاب القوات العثمانية أبدى السنوسيون اعتراضهم على انسحاب هذه القوات، كما رفضوا قبول الاستقلال الذي منحه لهم السلطان العثماني، ورفضوا كذلك قبول الدولة للصلح مع الإيطاليين[٥٤].

أما عن الدعوة المهدية في السودان فتختلف ظروفها عن ظروف الدعوتين السابقتين، فالسودان لم يرتبط بدولة الخلافة العثمانية بشكل مباشر وإنما تعرض لاستعمار كان دافعه أطماع محمد علي حاكم مصر، ثم تعرض لاستعمار إنجليزي بعد وقوع مصر تحت الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢م، ولذلك فإن الدعوة المهدية تعد في الغالب حركة محلية بدت في قالب ديني لاستنادها إلى الطرق الصوفية. كما أن هذه الدعوة قد حظيت في البداية بمساندة - غير مباشرة - من السلطات البريطانية، حيث رأت بريطانيا فيها سبيلا يساعدها على التدخل في شؤون السودان واحتلاله بعد ثبوت عجز القوات المصرية، وكان ذلك يسهم في دعم نفوذ بريطانيا في منطقة القرن الأفريقي. وكذلك فإن دعوة المهدي بضرورة انتقال الخلافة إلى مكة المكرمة ونزعها من الأتراك، يوافق أهداف الانجليز في المنطقة. وقد أثار الإنجليز محاولة السلطان عبدالحميد التوفيق بين الدعوة المهدية والدعوة السنوسية للحفاظ على الوجود الإسلامي ومحاولة توسيع انتشاره داخل القارة الأفريقية، ولهذا ساند

---

(٥٤) المرجع السابق ص ١٨٨.

الإنجليز نزعة المهدي العدائية ضد الخلافة في البداية، ثم نجحوا في القضاء عليه في النهاية[٥٥].

(٥٥) أحمد الشوابكة: المرجع السابق ص١٩.



الفصل السابع

دور محمد علي باشا... في ظل الماسونية الفرنسية والحماية البريطانية

- الحملة الفرنسية ودوافعها الصليبية الماسونية.
- الأطماع الإنجليزية وظهور محمد علي.
- محمد علي والسطو على ولاية مصر.
- محمد علي بين الماسونية الفرنسية والحماية البريطانية.

دور محمد علي باشا...
في ظل الماسونية الفرنسية
والحماية البريطانية

لم تكن مصر في أي من فترات تاريخها بمعزل عن المؤثرات والأحداث الدولية، ويرجع ذلك إلى موقعها الجغرافي كعامل أساسي إلى جانب عوامل أخرى حضارية واقتصادية وغيرها. بل إن الفترة التي ارتبطت فيها مصر بالخلافة العثمانية لم تكن معزولة عزلة كاملة في علاقاتها الخارجية وبخاصة مع الدول الأوروبية حيث استمرت بعض العمليات التجارية مع جنوة والبندقية وإن كانت بشكل محدود خلال القرن السادس عشر، كما جابها العديد من الرحالة الأوووبيين وكذلك بعض التجار خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وفي القرن الثامن عشر كذلك كانت مصر مقصداً لمحاولات الدول الأوروبية المعادية للخلافة العثمانية لإثارة الطامعين من ولاتها وإزكاء حركات التمرد على الخلافة لما تعيه هذه الدول من تأثير دور مصر على المنطقة سلباً أو إيجاباً، ومن هنا تصعب دراسة تطور الأحداث في مصر بعيداً عن المؤثرات الدولية.

فقد تعرضت مصر، والمنطقة المحيطة بها بالضرورة، منذ مطلع القرن التاسع عشر لعديد من الهزات العنيفة التي تركت آثاراً بعيدة المدى على كافة الأوضاع الخارجية والداخلية ما زالت آثارها ممتدة حتى الآن. وتمثلت أولى دقات الخطر في الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١ م) حيث أسهمت في تحويل المنطقة إلى منطقة صراع بين

الدول الاستعمارية وبخاصة انجلترا وفرنسا كان من آثارها وقوع شعوب المنطقة تحت استعمار الدولتين.

على أن الدور الأكثر خطورة من حيث آثاره ونتائجه التي امتدت حتى الآن هو دور والي مصر محمد علي باشا[1]، فلم يكن هذا الدور دوراً قومياً في ظل غياب الوعي القومي لدى شعوب المنطقة - على الأقل - طوال القرن التاسع عشر، في حين كان يفتقد هو إلى المقومات القومية التي تجعل منه حاكماً قومياً كالجنس واللغة وغير ذلك، ولم يكن دوراً إسلامياً بالطبع لمعاداته لدولة الخلافة الإسلامية وسعيه لإسقاطها، وضربه للقوة الإسلامية الصاعدة في الجزيرة العربية والتي أعلنت تصديها للنفوذ الأوروبي في المنطقة، وكبحه لجماح أتباع الاتجاه الإسلامي في مصر والشام. وحتى لو سلمنا بأنه دور كانت تحركه الأطماع الشخصية فإن الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا التي كانت تراقب الأمور في مصر عن كثب حرصاً على مصالحها الشرقية بعد الحملة الفرنسية لم تكن لتتركه يوماً واحداً في السلطة لو أنها أدركت تعارض ذلك الدور مع مصالحها، وبالتالي فإن استمراره وأبناءه في الحكم يشير إلى توافق دورهم مع السياسة الاستعمارية، فما هي طبيعة ذلك الدور؟ وما هي أهم النتائج التي ترتبت عليه؟

---

(١) نتفق في هذا مع اتجاه الدكتور سليمان الغنام الذي يعتبر من أسبق من نبه إلى طبيعة هذا الدور في كتابه القيم «قراءة جديدة في سياسة محمد علي باشا التوسعية».

الحملة الفرنسية ودوافعها الماسونية الصليبية (١٧٩٨-١٨٠١ م):

لم يكن قد مضى عقد كامل على قيام الثورة في فرنسا (١٨٧٩ م) تلك الثورة التي تعد في نظر المؤرخين الأوروبيين، وكثيرين من مؤرخي الشرق بالتبعية، هي التي أرست دعائم الحرية وجعلت من فرنسا واحة تساند كل دعوة حرة وتحتضن كل مناد للحرية، إلا واندفعت جيوش فرنسا (قاعدة الحرية) للاعتداء على حرية أهل الشرق. وقد اصطحب نابليون معه مجموعة كبيرة من العلماء الفرنسيين في حملته هذه بلغ عددهم (١٢٢) عالماً وهو عدد يزيد عن أضعاف العدد الذي اعتاد أن يصحبه في حملاته الأوروبية، وقد تأثر فكر هؤلاء العلماء في الغالب بالدور الفرنسي الذي يسعى لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية ويعادي حركات الإصلاح البروتستانتية منذ بداية القرن السادس عشر، ثم تأثروا في الفترة السابقة لقدومهم إلى الشرق بأفكار روسو وفولتير ومونتسكيو أبرز مفكري الثورة الفرنسية والمعروفين بانتمائهم للمحافل الماسونية اليهودية من خلال ما رفعوه من شعارات (الحرية- الاخاء- المساواة)، وهي أفكار واتجاهات تعادي في مجموعها الدين والأفكار المستمدة منه بشكل عام وبالتالي فإنه من السذاجة أن نقبل ما يروجه كتّاب التاريخ من أن الهدف الرئيسي لهذه الحملة كان قاصراً على ضرب المصالح البريطانية في الشرق فمثل هذا الهدف لا يحتاج إلى هذا الحشد الهائل من العلماء[٢]، فكان إلى جانبه هدف إقامة إمبراطورية فرنسية في الشرق إرضاء لطموحات الطبقة البورجوازية فيها والتي تسللت إلى الحكم في أعقاب الثورة، وإرضاء للكنيسة التي وإن كانت

---

(٢) د. سليمان الغنام: قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية ص ١٢.

الثورة قد وجهت لها بعض الضربات بشكل قوض دورها داخل فرنسا عن ذي قبل إلا أنها ظلت لها تأثيرها الواسع والفعال على كثيرين من أبناء الشعب الفرنسي، فضلا عن الدور الذي كانت تقوم به في تدعيم النفوذ الفرنسي في المستعمرات وكذلك في الشرق الإسلامي. ومن هنا كانت أهداف الحملة خليطاً بين أهداف اقتصادية وتوسعية وسياسية ودينية، أو بالأحرى غزو عسكري وفكري، ولهذا اصطحب نابليون في حملته العسكرية هذا الحشد الهائل من العلماء.

ولا شك أن هؤلاء العلماء كانوا على دراية بطبيعة وأحوال أهل الشرق من خلال ما هو متوافر لديهم من معلومات، وما أمدهم به الرحالة الفرنسيون الذين كثرت رحلاتهم خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، كما كانوا على صلة ببعض العناصر المملوكية في مصر وكذلك بعض العناصر القبطية المسيحية واليهودية فيها، ودرسوا بعناية كافة الجوانب السياسية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية وبأدق التفاصيل، ولهذا فإن كافة الجوانب الفكرية التي سعوا لترويجها فترة بقاء الحملة، وحتى بعد رحيلها، كانت مدروسة بعناية شديدة قبل قدوم الحملة ولم تكن مفاجئة[٣]، وحتى اكتشاف حجر رشيد الأثري وفك رموز اللغة الهيروغليفية للمصريين القدماء فإنه إذا كان مفاجأة - وهو أمر ما زال يحتاج إلى بحث - فإن العناية بهذا الحدث والترويج له وما تبعه من فك رموز لغة الفراعنة واستخدامه كان أمراً مدروساً بعناية كذلك، وكان يدور في إطار الأهداف الكلية لهذه الحملة المعلن منها وغير المعلن. ويشير المؤرخ المسلم عبد الرحمن الجبرتي الذي عاصر هذه الحملة إلى هذه الأمور في معرض حديثه عن المعهد العلمي الذي أنشأه

(٣) د. محمد أنيس: الدولة العثمانية والمشرق العربي ص ٩٩.

الفرنسيون في حارة «الناصرية» فيقول: «وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريدوا الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم، ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر في المعارف والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء وبتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الأفكار»[٤].

كان الفرنسيون - والغربيون بصفة عامة - يدركون أن السر في قوة الشرقي المسلم يتمثل في جانبين هامين الأول هو تمسكه بالدين والثاني في وحدة بلادهم في ظل حكومة إسلامية مطاعة مهابة، وقد أكد رجال الحملة الفرنسية إدراكهم لهذين العاملين حين أعلن نابليون وبعض رجاله اعتناقهم للإسلام واحترام تعاليمه وزواجهم من مسلمات كي يتخذوا من ذلك ذريعة للتقرب للعوام أملا في الاستقرار، وقد بدا ذلك واضحاً في المنشور الأول الذي أعلنه نابليون على شعب مصر حيث ذكر: «أيها المصريون قد قيل لكم أنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين أنني ما قصدت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وأنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم»[٥]... كما سعى رجال الحملة في نفس الوقت إلى زعزعة العامل الديني في نفوس المشايخ والعلماء المسلمين بعرض نماذج من الحضارة الغربية عليهم، أما العامل

---

(٤) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ ٣ ص ١٢٠. وقد نقلنا عن الجبرتي دون تصحيح الأخطاء النحوية.

(٥) د. إبراهيم أحمد العدوي: الصراع الفكري بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث كما صوره الجبرتي، بحث مقدم في ندوة الجبرتي ص ٨٣.

الثاني وهو الرامي إلى تمزيق وحدتهم فقد بدا واضحاً في سعي الفرنسيين لتجنيد قوة مسلحة من مسيحيي مصر قادها «المعلم يعقوب» لمساعدة الحملة في ضرب الثورة الشعبية التي كانت شعاراتها إسلامية، والوقوف أمام قوات الخلافة العثمانية الإسلامية.

وبشكل عام فقد نجح الفرنسيون في استثارة العناصر القبطية المسيحية على معاونة الحملة بمختلف الوسائل، واعتبر بعض الكتّاب المسيحيين أن الفائدة التي جنتها مصر خلال سني الحملة الثلاث أكثر من القرون الطويلة للحكم العثماني. والغريب أن هذا البعض من المفكرين قد أشادوا بدور «المعلم يعقوب» في تعاونه مع الفرنسيين ضد العثمانيين واعتبروه «تعاوناً يستحق بموجبه أن يقام له تمثال من ذهب في أكبر ميادين القاهرة ويكتب عليه أنه أول من نادى باستقلال مصر في العصر الحديث»[٦]. وكان هذا الموقف الغريب من النصارى معادياً لرغبة الأغلبية المسلمة بنفس قدر ما يمكن إدراكه من اتجاه أغلب المفكرين النصارى العدائي للأغلبية المسلمة في مصر المعاصرة والذي يبدو جلياً في تأييدهم لخيانة بلادهم طالما هي ضد الوجود الإسلامي، وحتى بمفهوم الوحدة الوطنية الذي يسعون للتمسح به فإن «المعلم يعقوب» يعد من أبرز الذين خانوا بلادهم، وعلى أية حال كانت هذه الحادثة بداية لما عرف في التاريخ المصري باسم الفتنة الطائفية[٧].

ومن بين الأمور المشوهة كذلك ما صوره بعض كتّاب التاريخ من أن هزيمة القوات التي كانت في مصر أمام القوات الفرنسية بأنها هزيمة

---

(٦) د. لويس عوض: تاريخ الفكر المصري الحديث، الخلفية التاريخية، جـ ١ ص ١٨٠-١٨٨.؛ أحمد فهد الشوابكة: الجامعة الإسلامية ص ١٦٣.

(٧) د. سليمان الغنام: المرجع السابق ص ١٣.

حضارة قديمة يمثلها بعض المشايخ في معركة إمبابة وغيرها وحضارة جديدة قوية تمثلها الجيوش الفرنسية[٨]، ولا شك أن ذلك التفسير مغلوط في أغلبه، كما أنه قصد به نشر عوامل الإحباط لدى الشرقي المسلم واهتزاز ثقته في قدرته وتاريخه، وإثبات عجز دولة الخلافة في الدفاع عنهم وهذا من بين الأمور التي سعت الحملة للترويج لها، والدليل على ذلك أن الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون قد أوقعت العديد من الهزائم الساحقة بعديد من الجيوش على الساحة الأوروبية وبشكل زاد عما حققوه في الشرق، مع العلم بأن عنصر المفاجأة كان من أهم عوامل انتصارهم في الشرق حيث لم تتعرض مصر لهجوم عسكري من البحر منذ الحروب الصليبية تقريباً، علاوة على أن الحملة كانت سرية فلم يتهيأ أحد لمقاومتها. وبعد أن أحاط الخطر بالمصريين استطاعوا، ومعهم بعض الكوادر المدربة من المماليك أن يهزموا البريطانيين في معركة الحماد سنة ١٨٠٧ م، كما أن القوات البريطانية لم تشأ الدخول في معركة برية ضد نابليون في مصر فهل كان ذلك لعجز حضاري؟ ومع ذلك فلا ننفي فارق التفوق في صناعة الأسلحة الذي ميّز الجيوش الأوروبية والذي لولاه لما رجحت كفتها، والذي كان جزءاً من التقدم المادي الذي شهدته أوروبا.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المصريين- شأنهم شأن بعض الشعوب العربية- قد افتقدوا روح الجندية خلال فترة زمنية طويلة اعتمد فيها حكامهم على الجنود المرتزقة، وأهملوا إشراك العناصر المحلية، فقتلوا فيهم روح الجهاد والقتال وبالتالي قدرتهم على حماية أنفسهم. ولا ينبغي أن نلقي بتبعة هذا الأمر على العثمانيين وحدهم بل إنه يرجع إلى

---

(٨) الجبرتي. عجائب الآثار جـ ٣ ص ٦.

العصر العباسي الثاني، ويرجع في مصر إلى العصر المملوكي، ولم يسع العثمانيون إلى تغيير ذلك وبخاصة في فترات الضعف خشية أن يسهم ذلك في حركات التمرد المحلية. ومع التسليم بالآثار السلبية لهذا الجانب - البعيد كل البعد عن التعاليم الإسلامية - إلا أنه يلاحظ أن المصريين - شأنهم شأن غيرهم من الشعوب الإسلامية - قد ارتضوا، طوعاً أو كرهاً، أن يحكمهم حاكم مسلم حتى ولو كان عبداً مملوكاً، وكانت ثورتهم ضد بعض هؤلاء الحكام في الغالب قاصرة على سلوكه أو سوء حكمه أكثر من اعتراضهم على وجوده في الحكم، في حين لم يرتضوا بأي حال من الأحوال حاكماً غير مسلم وهو أمر يفسر ثوراتهم المتعاقبة على الفرنسيين في السنوات الثلاث التي أمضوها في مصر في حين لم يسجل تاريخهم مثل هذا الكم من الثورات ضد أكثر الحكام المسلمين ظلماً وهو أمر دعا البعض من كتّاب التاريخ، وبعضهم غير مسلمين، لاتهامهم بالتواكل والسلبية. وقد أكد نابليون هذه الحقيقة في أحد منشوراته حيث ذكر في معرض تودده للمصريين «قولوا للمفترين أنني ما قصدت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وأنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم»[٩].

وبرغم كل وسائل التودد فقد أبدى المصريون عدم تقبلهم للفرنسيين، وعبر الجبرتي عن هذه المشاعر حين اعتبر سني الاحتلال الفرنسي لمصر «أولى سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلاف الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدابير وحصول التدمير، وعموم الخراب

(٩) د. إبراهيم العدوي: المرجع السابق ص ٨٣.

وتواتر الأسباب ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾[10] (سورة هود، آية ١١). كما لم يتقبل المصريون كافة جوانب التغيير الاجتماعي، في حين أدرك بعض علمائهم ضرورة الاطلاع على بعض الجوانب الفكرية التي لمسوا عجزهم فيها وفي إطار لا يتعارض مع عقيدتهم أو تقاليدهم.

وعلى ضوء ذلك يمكن تحديد الأسلوب الذي اتبعه علماء ورجال الحملة لتحقيق هدفهم في الغزو العسكري والفكري لمصر والشرق، ويتضح هذا الأسلوب في أمرين الأول هو سعيهم لإثارة العامل القومي الذي أدركوا فعاليته في تمزيق أوصال الإمبراطورية الرومانية المقدسة في أوروبا برغم نتائجه الإيجابية على الكيانات الأوروبية وهو أمر يختلف في ظروف الشرق لضعف إمكانياته الاقتصادية والعلمية ولاختلاف منهج ونظرة الشرقي للدين بل واختلاف طبيعة الإسلام عن المسيحية، وقد بدا هذا الأسلوب واضحاً في كافة منشورات الحملة إلى الشعب المصري، وكذلك في عرضهم على العلماء تولي المناصب وإقامة المجالس بعيداً عن دولة الخلافة، كما اتضح أيضاً في استغلالهم لاكتشاف حجر رشيد وسعيهم لفك رموز لغة الفراعنة فهذه أمور لا تدخل في اهتمامات حملة عسكرية يقتصر هدفها على الاحتلال العسكري. ويصور لنا «عبد الرحمن الجبرتي» هذا الاتجاه من خلال منشور من منشورات الحملة صدر في أكتوبر سنة ١٧٩٨ م أي في السنة الأولى لدخول الفرنسيين مصر جاء فيه: «قطر مصر هو المركز الوحيد، وأنه أخصب البلاد. وكان يجلب إليه المتاجر من البلاد البعيدة، وأن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة

---

(١٠) الجبرتي: عجائب الآثار جـ ٣ ص ١.

التي يعرفها الناس في الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الأول، ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم في تملكه، فملكه أهل بابل وملكه اليونانيون والعرب والترك الآن، إلا أن دولة الترك شددت في خرابه لأنها إذا حصلت الثمرة قطعت عروقها فلذلك لم يبقوا بأيدي الناس إلا القدر اليسير وصار الناس لأجل ذلك متخفين تحت حجاب الفقر وقاية لأنفسهم من سوء ظلمهم. ثم إن طائفة الفرنساوية بعد ما تمهد أمرهم وبعد صيتهم بقيامهم بأمور الحرب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هي فيه وإراحة أهلها من تغلب هذه الدولة المفعمة جهلاً وغباوة »(١١).

ويرتكز الأمر الثاني من أساليب الحملة على نشر الأفكار المعادية للدين الإسلامي ومحاولة زعزعة ثقة العامة والعلماء على وجه الخصوص فيه، ولقد بذلوا في سبيل ذلك العديد من الأساليب التي تخرج عن أهداف حملة عسكرية أو اقتصادية أو سياسية. فلم يكن الأمر يحتاج إلى استجلاب أدوات معامل كيمائية، وعرضها بانتظام على جموع العلماء إلا لتحقيق أهداف أخرى غير هذه الأهداف، وكان الفرق واضحاً بين نشر العلوم بقصد التنوير وبين استخدامها كوسيلة لإثبات ضعف المنهج الإسلامي(١٢)، وقد صور الجبرتي ذلك فقال: «وأغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقدمين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصب منها شيئاً في كأس، ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى، فغلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع

---

(١١) الجبرتي: عجائب الآثار جـ ٣ ص ٢٣. وقد عز على بعض المؤرخين غياب الوعي القومي فاستدل عليه من منشورات نابليون وأطلق عليه الشخصية المصرية، انظر: د. يونان لبيب رزق: الجبرتي والشخصية المصرية ص ١٢٤.

(١٢) د. سليمان الغنام: المرجع السابق ص ١٣.

وجف ماء الكأس، وصار حجراً أصفر، فقلبه على البرجات حجراً يابساً فأخذناه بأيدينا ونظرناه... وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه على السندال، وضربه بالمطرقة بلطف - فخرج له صوت هائل كصوت الغربانة انزعجنا منه فضحكوا منا... وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع، ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة، فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف، ويظهر له صوت طقطقة، وإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلا به، ولمس آخر الزجاجة الدائرة، أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعش جسمه، وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة، ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه متصلا به حصل له ذلك، ولو كانوا ألفاً أو أكثر، ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا »[١٣].

ومن أجل تحقيق ذلك الهدف حاول الفرنسيون نشر بعض العادات الاجتماعية التي «استقبحها المصريون كانفلات الرجال والنساء وتحللهم من المثل الأخلاقية كإباحة البغاء العلني والمساعدة على سفور النساء واختلاطها بالرجال ودفع النساء لارتداء ما هو محرم من ملابس وركوبهن الخيل، وساعدوا على تحدي الناس لأركان الدين الإسلامي كالجهر بالأكل والشرب في رمضان وتعاطي المسكرات». وقد عبر الجبرتي عن استهجان المصريين لهذه العادات بقوله: «إن رجال الحملة الفرنسية خالفوا النصارى والمسلمين ولم يتمسكوا من الأديان بدين، فتراهم دهرية معطلين، وللمعاد والحشر منكرون، وللنبوة والرسالة

---

(١٣) د. إبراهيم العدوي: المرجع السابق ص ٨٥.

جاحدون، ويقولون بقدم العالم وتأثير العلوية والحوادث الكونية بالحركات الدورية... وعقيدتهم السالكون فيها تحكيم العقل وما تستحسنه النفوس بحب الشهوات »[١٤]، فهل كان في ذلك ما يخدم أهداف الحملة أو حتى له صلة بإصلاح أو تنوير كما يدعي البعض؟

ولقد أدرك الفرنسيون عزوف المصريين بكل شرائحهم وفئاتهم وبخاصة المشايخ والعلماء عن تقبل هذه الأساليب، وتأكد لدى قادة وعلماء الحملة أن أهدافهم لن تتحقق إلا من خلال حاكم يحمل الهوية الإسلامية وترتبط مصالحه بمصالحهم ويملك من القوة ما يمكنه من تأكيد وجوده، ولا تكون له أخلاق المشايخ والعلماء، ويسلك أسلوب الاستبداد ليتمكن من فرض جوانب التغيير وتحقيق الأهداف التي لم تفلح الحملة في فرضها وإن كانت قد بذرت بذورها الأولى، ويشير الجبرتي إلى ما يؤكد هذه الحقيقة حين تحدث عن علاقة نابليون بالعلماء الذين أشركهم في الديوان الجديد الذي شكله، وكيف أنه كان يبحث فيهم عن ضالته فيقول: « طلب صاري عسكر بونابرته المشايخ فلما استقروا عنده نهض بونابرته من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان، كل طيلسانة ثلاثة عروض، أبيض وأحمر وكحلي، فوضع منها واحداً على كتف الشيخ الشرقاوي، فرمى به - أي الشيخ - إلى الأرض، واستعفى وتغير وانتقع لونه واحتد طبعه فقال الترجمان: يا مشايخ أنتم صرتم أحبابا لصاري عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس، وصار لكم منزلة في قلوبهم، فقالوا

---

(١٤) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: الجبرتي مؤرخاً، ص ١٣٧؛ وقد اعتبر بعض الكتاب هذه المظاهر المحدودة ظاهرة تدل على حرية المرأة، د. حكمت أبو زيد: المجتمع القاهري على عهد الحملة الفرنسية كما صوره الجبرتي ص ١٦٤.

له قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا المسلمين، فاغتاظ لذلك وتكلم بلسانه، وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوي: أنه لا يصلح للرياسة ونحو ذلك فلاطفه بقية الجماعة واستعفوه من ذلك- أي من الرياسة »[١٥].

وإذا كانت أهداف الفرنسيين في الحاكم الذي يحمل الهوية الإسلامية قد تحققت- بعد معاداتهم المماليك وفشل التعاون مع المشايخ والعلماء المسلمين- بعد ذلك في شخص محمد علي فلا شك أن هناك حلقة مفقودة بين خروج الفرنسيين من مصر سنة ١٨٠١ م وبين وصول محمد علي إلى الولاية سنة ١٨٠٥م لعب خلالها الفرنسيون دوراً في ذلك من خلال المحافل الماسونية، ولعل من أهم الشواهد الدالة على ذلك اهتمام محمد علي بإعادة تأسيس هذه المحافل في مصر وهو ما سنلقي عليه الضوء بعد ذلك، كما يفسر ذلك اعتماد محمد علي على الفرنسيين في خطواته لتحديث المجتمع المصري وتعاونهم معه في هذا المجال وبشكل يحقق أهدافهم التي بدأوها أثناء الحملة برغم اقترابه في الميدان السياسي من بريطانيا عدوتهم التقليدية، وقد أكد المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي هذه الحقيقة بقوله: «إذا كان الاحتلال الفرنسي حدثاً عابراً فلقد امتد بالجبرتي العمر ليشاهد محمد علي يتعهد ويتولى ثورة اقتصادية اجتماعية رسم الفرنسيون خطوطها »[١٦].

أما عن أوضاع المماليك إبان الحملة، فلعل من بين العوامل التي ساعدت على تهيئة الظروف لظهور شخصية مثل محمد علي فشل محاولات الفرنسيين في تقريب عناصر مملوكية إليها. فقد سبق أن عقدت فرنسا

---

(١٥) د. إبراهيم العدوي: المرجع السابق ص ٨٤.
(١٦) أرنولد توينبي: عبد الرحمن الجبرتي وعصره ص ١٣.

اتفاقية مع مراد بك أحد زعماء المماليك سنة ١٨٧٥ م كرد على اتجاه بريطاني مماثل مع بعض زعماء المماليك، وتبعتها بعض الاتفاقيات مع كبير ملتزمي الجمارك وبعض مشايخ العربان لنقل المتاجر من السويس إلى القاهرة، وكان ذلك في إطار منافسة فرنسا لبريطانيا في البحر الأحمر. لكن فرنسا فوجئت بقوات مراد بك تتصدى لها في حملتها على مصر(١٧)، وبرغم هزيمة مراد بك إلا أنه ظل يقود مع غيره من المماليك حركات مقاومة ضد الفرنسيين مما جعل الفرنسيين يقفون موقفاً معادياً من المماليك.

وتسجل منشورات الحملة في مصر هذا الموقف العدائي ضد المماليك حيث ذكر نابليون في أحد هذه المنشورات أنه جاء لينشر الفضل وأنه «بين المماليك والعقل والفضائل تضارب»(١٨)، وقد استمر موقف الحملة من المماليك حتى نجحت في هز جذورهم وإسقاط ما كان لهم من هيبة شعبية(١٩).

ومع أنه لا ينبغي أن نضفي على موقف المماليك في تصديهم للفرنسيين الصفة الوطنية سواء لعدم وجود - أو وضوح - هذه الصفة في ذلك الوقت أم لأن قتالهم للفرنسيين وللعثمانيين وكذلك اقتتالهم فيما بينهم كان يعبر عن أطماع شخصية تصارع عليها قادتهم، وهو امتداد للظاهرة التي بدا عليها المماليك في مصر طوال القرن الثامن عشر، إلا أنهم في عدم قبولهم لتحقيق هذه الأطماع من خلال السيادة الفرنسية وكذلك تبنيهم لوجهة النظر الشعبية الراغبة في مقاومة الفرنسيين

---

(١٧) د. عبد الرحيم عبد الرحمن: دراسات في تاريخ العرب الحديث ص ١٩٦؛ د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ١٩١.

(١٨) د. إبراهيم العدوي: المرجع السابق ص ٨٣.

(١٩) د. سليمان الغنام: المرجع السابق ص ١٦.

«الكفار» قد استحقوا تعاطف بعض العلماء والمشايخ معهم برغم ما لهم من رصيد ظالم انتقدوا بسببه، وكان الجبرتي واحداً من هؤلاء المشايخ الذين أبدوا تعاطفاً وتأييداً لبعض قادة المماليك وبخاصة محمد بك الألفي، فقد لقبهم الجبرتي بالأمراء المصرية، وأشار إلى أحقيتهم للحكم.

واتجه بعض كتاب التاريخ إلى اعتبار ذلك من المآخذ التي أخذت على الجبرتي، وفسروا إطناب الجبرتي في مدح محمد بك الألفي بوجود مصلحة بينهما وهو ما استدلوا عليه بهجوم الجبرتي على البرديسي عدو الألفي[٢٠]، أو بأن لذلك ارتباطاً بكره الجبرتي لمحمد علي ولأن الألفي كان من أشد خصوم محمد علي، وأن هذا الموقف دعا الجبرتي لأن يتغاضى عن اتصال الألفي بالإنجليز[٢١]. وفي الحقيقة فإن هذا الموقف من الجبرتي يشير إلى بعد إدراكه وحسن فهمه لتطور الأحداث السياسية الذي من الممكن أن يكون قد أدركه من الألفي نفسه، أو من انضمامه إلى الديوان الذي أنشأه الفرنسيون إبان الحملة، أو من تردده على المعهد العلمي الفرنسي والذي يدعونا لأن نشير إلى استفادته من علوم الغرب حيث لم يكن في هذا يعبر عن معارف بيئية. فقد أدرك الجبرتي أن هدف الإنجليز ينحصر فقط في العداء للفرنسيين والسعي لإخراجهم من مصر، وفيه مساعدة للمسلمين بشكل غير مباشر، بقصد تأمين الطريق إلى الهند، فيقول: «وإذا تأمل العاقل في هذه القضية يرى فيها أعظم الاعتبارات والكرامة لدين الإسلام حيث سخر الطائفة الذين هم أعداء للملة هذه لدفع تلك الطائفة ومساعدة المسلمين عليهم، وذلك

---

(٢٠) الجبرتي: عجائب الآثار جـ ٤ ص ٢٧، ٤٢، ٤٦.

(٢١) د. جمال زكريا قاسم: عبد الرحمن الجبرتي سيرة وتقييم ص ٦١.

مصداق الحديث الشريف وقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»(٢٢). ولم ير الجبرتي أن في نيتهم - أي الإنجليز - احتلال مصر، ولهذا فإنه قد أبدى أسفه على عدم نجاح جهود الألفي في الاتصال بهم(٢٣)، وكان هذا في تأريخه للأعوام السابقة لهجومهم على رشيد سنة ١٨٠٧م، ولكن حين فشل الإنجليز في هجومهم على رشيد سنة ١٨٠٧م في حملة فريزر حمل عليهم الجبرتي حيث كان يتمنى نجاحهم نكاية في محمد علي، ولكن في نفس الوقت أثنى على دور الأهالي في مقاومتهم، وأخذ على محمد علي تخاذله في المقاومة(٢٤).

ويفسر بعض الكتاب اليساريين تقارب الجبرتي من بعض أمراء المماليك بأنه كان يدافع عن شريحة اجتماعية ينتمي هو - أي الجبرتي - إليها حيث كان يملك بعض الأراضي وغير ذلك، ولا شك أن هذا التفسير غير صائب حيث كان من الأفضل للجبرتي - لو أنه استدعاه الفرنسيون وسعوا لتقريبه وتأمينه - وغيره من العلماء(٢٥) - كما أن ذلك الوضع كان من الممكن أن يدفعه للارتباط بمحمد علي لا بمعاداته، وكذلك فإن معاداته لمحمد علي كانت سابقة للإجراءات التي اتخذها محمد علي والتي يمكن ان تكون قد سببت بعض الضرر بالجبرتي، ولهذا فإن موقف الجبرتي من كل من محمد علي أو المماليك يؤكد انحيازه لمبادئه لا لمصالحه كما يرى هذا البعض(٢٦).

---

(٢٢) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: الجبرتي مؤرخاً ص ٤٠، د. مصطفى رمضان: مخطوطة من تأليف الجبرتي ص ٢٤٥.

(٢٣) زار الألفي لندن سنة ١٨٠٢م، سنة ١٨٠٤م لإبداء الولاء لهم، د. سليمان الغنام: المرجع السابق ص ١٦.

(٢٤) د. محمود حلمي مصطفى: الجبرتي ومعاصروه من أمراء المماليك ص ٣٠٥.

(٢٥) د. جمال زكريا: المرجع السابق ص ٥٦.

(٢٦) صلاح عيسى: منهج عبد الرحمن الجبرتي في رؤية الظواهر التاريخية ص ١٣٩ وما بعدها.

على أن مساندة الجبرتي لهذا الأمير أو لغيره من بعض الأمراء المماليك ولموقفهم السياسي المعادي «للكفار» لم يمنعه من توجيه الانتقادات اللاذعة لبعضهم الآخر ممن وقفوا موقفاً سياسياً معاكسا، أو بسبب سلوكهم المنافي للعدل الذي شكل الميزان الواضح في أغلب أحكام الجبرتي[٢٧]، والذي دعاه لأن يعتبر الحملة الفرنسية كانت عقاباً لهم[٢٨]، وقصاصاً من ظلمهم واضطهادهم[٢٩]، وقد دفع الجبرتي ثمناً باعظاً لهذا الموقف تجاه المماليك حيث قام أحد المماليك وهو محمد بك الدفتردار زوج ابنة محمد علي بقتل ابنه خليل الأمر الذي ترك أثره على الجبرتي ففقد بصره وتوقف عن الكتابة وعاش منزوياً إلى أن مات بعد هذا الحادث بقليل[٣٠].

الأطماع الإنجليزية وظهور محمد علي باشا:

سبقت الإشارة إلى أن الحملة الفرنسية قد أسهمت في دفع مصر والمنطقة العربية إلى دائرة صراع النفوذ الاستعماري وبخاصة بين إنجلترا وفرنسا. وكان خروج الفرنسيين من مصر سنة ١٨٠١م لا يعني فشل كل أهداف الحملة بل اقتصر الفشل على الناحية السياسية فقط، في حين كان نجاح الإنجليز في طرد الفرنسيين يشير إلى زيادة اهتمامهم بالمنطقة لارتباطها بمصالحهم في الهند.

وكان من الطبيعي أمام ذلك أن تبدي بريطانيا اهتماما زائدا بمنطقتي البحر الأحمر والخليج العربي، إلى جانب متابعة تطور الأحداث في

---

(٢٧) الجبرتي: عجائب الآثار، جـ ٢ ص ٩٣، جـ ٣ ص ١٩٢، جـ ٤ ص ١٨٨.
(٢٨) د. محمود حلمي: المرجع السابق ص ٢٩٧.
(٢٩) المرجع السابق ص ٣٠٥.
(٣٠) المرجع السابق ص ٣٠٧.

مصر عن كثب تأمينا للطريق الذي بدأ يستعيد أهميته منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر بسبب تقدم وسائل المواصلات والنقل كنتيجة لنمو الثورة الصناعية والنشاط التجاري عن ذي قبل[٣١]. ولهذا سارع الإنجليز بعقد اتفاقية مع سلطان لحج لمنحهم تسهيلات في ميناء عدن سنة ١٨٠٢م، وفي نفس الوقت كانت بريطانيا قد عقدت اتفاقاً مع «سلطان بن أحمد» سلطان عمان لمنحها الأولوية في استخدام موانىء عمان في مدخل الخليج العربي. لكن البريطانيين أدركوا أن الخطورة على وضعهم في المنطقتين لا يأتي من فرنسا فقط، ولكن أصبحت تطورات القوى المحلية هي التي تشكل الخطر الأكبر وبخاصة إذا كانت هذه القوى معادية للنفوذ البريطاني. وكانت القوة المحلية الصاعدة التي تشكل هذه الخطورة على المصالح البريطانية هي الدولة السعودية الأولى التي امتد نفوذها على الخليج العربي والبحر الأحمر، بل إن انضواء قوة القواسم البحرية في الخليج العربي لنفوذ الدولة السعودية قد خرج بهذه الدولة إلى حيز الدولة المؤثرة المهددة للنفوذ البريطاني، كما أن امتداد نفوذ السعوديين إلى جنوبي العراق قد أتاح لهم إمكانية التأثير على الطريق البري بين أوروبا والشرق، وفوق هذا وذاك فإن الأسس الدينية التي ترتكز عليها هذه الدولة قد قطع على بريطانيا إمكانية تطويعها أو عقد الاتفاقيات معها حيث كان العداء للنفوذ الأجنبي في المنطقة من أهم أهداف هذه الدولة.

ولا شك أن هذه التطورات قد فرضت على بريطانيا ضرورة ترقب تطور الظروف الداخلية في مصر مهما كلفها الأمر وذلك لما كانت تدركه من أن خروج مصر عن دائرة نفوذها يعني التهديد الكامل لطريق

(٣١) د. سليمان الغنام: المرجع السابق ص ١٥.

تجارتها إلى الهند في ظل النفوذ السعودي المتنامي على البحرين الأحمر والخليج العربي من الناحية الخارجية، وكذلك ما كانت تدركه من تأثير الفرنسيين إبان وجودهم في مصر على إيجاد عناصر موالية لهم وضرب العناصر الموالية للإنجليز وبخاصة المماليك من الناحية الداخلية. وقد أدركت بريطانيا من خلال تطور الأحداث في المنطقة أن الأمور تسير في غير صالحها، ففي داخل مصر تقلص دور المماليك واهتزت مكانتهم بسبب قتالهم فيما بينهم وقتالهم مع القوة العثمانية، علاوة على دور الحملة الفرنسية التي قضت على ما بقي لهم من نفوذ وهزت ما بقي لهم من هيبة في نفوس المصريين، وأسهم هذا في انتقال السلطة والنفوذ للوالي العثماني والحامية العثمانية، في حين كانت الدولة السعودية تواصل توسيع دائرة نفوذها على الخليج العربي والبحر الأحمر.

ووجدت بريطانيا نفسها مدفوعة إلى استخدام القوة المسلحة فهاجم أسطولها القواسم في رأس الخيمة سنة ١٨٠٦م تحت دعوى محاربة القرصنة، وهاجمت في العام التالي رشيد سنة ١٨٠٧م فيما عرف بحملة فريزر في محاولة لتمكين أتباعها في مصر من المماليك من استعادة سيطرتهم على الأوضاع الداخلية فيها. إلا أن بريطانيا أدركت بعد إخفاقها في الحملتين أنها لا تستطيع توفير القوة العسكرية اللازمة لتحقيق أهدافها وفرض نفوذها في هذه الظروف، حيث استطاع القواسم ومن خلفهم القوة السعودية استعادة سيطرتهم على مياه الخليج والتحسب لأي هجوم آخر، وفي نفس الوقت وقفت عناصر مملوكية في مصر إلى جانب الأهالي وتصدت للحملة البريطانية على رشيد واستطاعوا أن يهزموا قوات الحملة في الحماد مما أدى إلى عودة قوات الحملة إلى الإسكندرية لتكون تحت حماية أساطيلهم، وتيقنت من أن الحملة الفرنسية قد أيقظت روحا عدائية في الأوساط المصرية ضد كل

ما هو أوروبي «كافر»، فلم يكن أمامها سوى الاعتماد - الحذر - على عناصر محلية، وخاصة إذا توافرت عوامل الثقة من قبلهم في هذه العناصر، وتمثل ذلك في شخص محمد علي[٣٢].

ومن جهة أخرى فقد توافرت العديد من الظروف لحدوث تقارب بريطاني عثماني أسفر عن عقد معاهدة بين الجانبين سنة ١٨٠٩م[٣٣]، حيث كانت بريطانيا تراقب النفوذ الروسي المتنامي على حساب الأراضي العثمانية وتوسعه فيها خلال سلسلة من الحروب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، كما كانت بريطانيا تخشى نمو التقارب الفرنسي العثماني - بعد التوتر الذي ساد بينهما في أعقاب الحملة على مصر - في محاولة لزيادة نفوذها وامتيازاتها في المنطقة وضرب النفوذ البريطاني فيها، وفوق هذا وذاك فكان عداء الجانبين البريطاني أولا والعثماني - بنسبة أقل - ثانياً للدولة السعودية يعد عاملا هاما سمح لبريطانيا بالاشتراك مع العثمانيين ببحث التدابير المشتركة لضرب النفوذ السعودي، وفي نفس الوقت يجعلها - أي بريطانيا - تتحاشى إثارة رعاياها المسلمين إذا ما اضطرت للدخول في حرب مباشرة مع الدولة السعودية، ولم يكن بحسبانهم - أي البريطانيين - أن محمد علي سيوفر عليهم ذلك الدور.

---

(٣٢) د. محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١ - ١٨١١)- القاهرة سنة ١٩٥٨م جـ٢ ص٨٥٧.

(٣٣) د. سليمان الغنام: المرجع السابق ص٢٨.

محمد علي والسطو على ولاية مصر:

على الرغم من اعجاب العديد من الكتاب والمؤرخين في الشرق والغرب بالمؤرخ الإسلامي عبد الرحمن الجبرتي لما اتصف به من الحيدة والموضوعية والدقة إلى حد كبير(٣٤)، إلا أن بعضهم - من دعاة العلمانية - قد أعرض عن الالتزام برأيه في محمد علي باشا التزاماً بمنظور فكري ليست له جذور محلية، فما هو رأي هذا المؤرخ المسلم الدقيق في محمد علي؟

لقد وصف الجبرتي محمد علي، ومن خلال مسيرة الأحداث وليس لخصومة أو عداء شخصي(٣٥)، بأنه مخادع كذاب يحلف الأيمان الكاذبة، ظالم لا عهد له ولا ذمة، يضمر السوء واستخدام العسف والجور في نفس الوقت الذي يعد فيه بالعدل، لا يخفف من عسفه وظلمه واستبداده استجداء شيخ. ولقد دعت هذه الصفات البعض بأن يصور محمد علي بأنه مكياڤللي، أو أنه تعلم على فكر مكياڤللي، فقيل له - أي لمحمد علي - مرة أن مكياڤللي ألف كتابا اسمه الأمير، فكلف أحد النصارى المحيطين به، وقد اعتاد أن يكون أغلب المحيطين به من النصارى واليهود، واسمه أرتين بترجمة هذا الكتاب وأن يوافيه كل يوم بصفحة

---

(٣٤) د. محمد أنيس: مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني ص ٢٧، ٢٨.، د. ليلى عبد اللطيف: تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني ص٢١٣.

(٣٥) يرى البعض أن الجبرتي قد تأثر في موقفه من محمد علي بأمرين أولهما تأثر الجبرتي باجراءات محمد علي تجاه أراضي الالتزام، والثاني دور محمد علي في قتل ابن الجبرتي، ولكن الجبرتي لم يضر من إجراءات محمد علي، كما أن رأيه في محمد علي كان سابقاً لمقتل ابنه. انظر: د. أحمد عزت عبد الكريم: الجبرتي مؤرخ مصري على مفرق الطرق ص٢٧.؛ د. إبراهيم العدوي: المرجع السابق ص٨٨.

مترجمة، فلما وصل إلى الصفحة العاشرة توقف عن المواصلة قائلا بأنه يمتلك من الحيل ما لم يخطر لمكيافللي على بال[٣٦].

وقد علق بعض الكتاب على ذلك بأن هذه الصفات هي التي رشحت «محمد علي »لأن يصبح والياً على مصر[٣٧]، وأن اكتسابه لهذه‌الصفات قد جعله من أهم السياسيين الشرقيين الذين سلكوا درب السياسة بمفهومها الأوروبي. ولا شك أن «محمد علي» قد تربى على هذه الصفات منذ صباه سواء لكون موطنه الأصلي ألبانيا أوروبية الموقع أم لأنها قد لفحتها - قبل غيرها - رياح التغيير ودخلتها الفلسفات الأوروبية بعد الضعف الذي ألم بدولة الخلافة العثمانية، كما أنه كان تاجراً وابن تاجر فنظر إلى كل شيء بمنظار الكسب والخسارة المادية دون أن يعبأ كثيراً بالقيم الأخلاقية التي تحظى باحترام الشرقي المسلم على الأقل في شريعته التي يحبها ويسعى للالتزام بها، والتي كانت وما زالت تشكل الوعاء الأساس الذي يحدد ميزانه في الحكم على الأحداث والأشخاص.

كيف وصل محمد علي إلى الدولة؟

عاشت مصر حالة من الفوضى والاضطراب في أعقاب خروج الفرنسيين سنة ١٨٠١ م، فلم يصبح بمقدور أمراء المماليك أن يستعيدوا ما كان لهم من سطوة ونفوذ سواء لهزيمتهم أمام الفرنسيين أم للجهود التي بذلها الفرنسيون خلال مدة بقاء الحملة في إضعافهم واجتثاث ما كان لهم من شعبية لدى المصريين من جذورها كما سبق التوضيح[٣٨]،

---

(٣٦) أحمد خاكي: الجبرتي ومحمد علي، ضمن مجموعة بحوث الجبرتي القاهرة سنة ١٩٧٦م ص٣٧٦، ٣٨١، ٣٨٢.
(٣٧) المرجع السابق.
(٣٨) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص٢٩٩.

وأسهمت الحملة كذلك في هز ثقة المصريين في قدرة الدولة العثمانية على القيام بدورها التقليدي في حمايتهم، وأصبحت الساحة مهيأة لظهور أي من المغامرين الطامعين في السلطة.

على أن هناك عنصراً آخر قد أفرزته هذه الظروف يتمثل في القوى الشعبية في مصر حيث أيقظت الحملة روح الجهاد الإسلامي ضد المعتدين « الكفرة » في صفوف المصريين، ولم يكن ذلك دليلا على اليقظة الوطنية أو القومية التي حاول الفرنسيون إشعالها كما يرى البعض ولكنه كان جهاداً ضد عدو المسلمين، فكانت قيادته في الجامع الأزهر وغيره من المساجد، وزعماؤهم شيوخ الأزهر ورجال الدين، لكن القلة التي ساندت الفرنسيين واندثرت برحيلهم فلا يقام لها وزن في مسيرة الأحداث.

وكان العثمانيون قد قرروا إحكام سيطرتهم على مصر من خلال الوالي دون أن يعودوا إلى سياسة الاستعانه بالمماليك في الحكم، وقد أدى ذلك إلى إثارة مخاوف بريطانيا على مستقبل الأوضاع في مصر وجعلها تفكر في مساندة أحد أمراء المماليك وهو محمد بك الألفي في الوصول إلى الحكم، لكن بريطانيا وجدت أن استخدام القوة في سبيل ذلك سيسيء إلى علاقتها بالدولة العثمانية الأمر الذي قد يؤدي إلى حدوث تقارب بينها وبين الروس أو الفرنسيين وبخاصة أنها - أي بريطانيا - لم يكن من أهدافها في ذلك الوقت السيطرة الدائمة على مصر[٣٩]، وكانت تفضل سياسة المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية في هذه الفترة.

ووسط هذه الظروف التي هيأت للعثمانيين إمكانية تنفيذ سياستهم تعين خسرو باشا والياً على مصر سنة ١٨٠٢ م ، ولكن لم يمض على توليه سوى عام ونصف إلا وثار عليه الجند الأرناؤود (الألبان) واضطروه

---

(٣٩) عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص٣٠٠.

للهرب، واصبحت القيادة بيد قائد هذه القوة وهو طاهر باشا الذي أعلن المشايخ اختياره قائمقاماً ليحل محل الوالي المطرود، لكنه هو الآخر - أي طاهر باشا - لم يستمر سوى عشرين يوما وقتله أحد جنود الإنكشارية في ٢٦ مايو سنة ١٨٠٣م ليتيح الفرصة لتولي محمد علي قيادة القوة الألبانية. ومع أن الوثائق لا توضح أسباب ثورة الجند الأرناؤود (الألبان) بالذات على الوالي خسرو باشا وإبعاده عن الولاية، وكذلك كيفية وأسباب اغتيال طاهر باشا قائد هذه القوة إلا أن الأمر لا ينبغي أن يفسر تفسيراً عفوياً.

ومما يؤكد ما نرمي إليه أنه في أعقاب قيام الدولة العثمانية بتعيين والٍ جديد هو «أحمد باشا» أدرك محمد علي أن الأمر بهذا قد يخرج من يده فأسرع بالتحالف مع عثمان بك البرديسي أحد زعماء المماليك والذي كان يميل إلى الفرنسيين، وطرد الوالي الجديد بعد يوم واحد فقط من توليه الولاية، كما هاجم وحليفه البرديسي محمد بك الألفي الذي كان على علم بصلته بالإنجليز. وتترك هذه الأحداث أيضاً تساؤلات محيرة لماذا أطاح محمد علي بالوالي العثماني الجديد لو أنه لم يكن طامعاً في السلطة؟ ولو سلمنا بطمعه في السلطة فهذا يدعونا للتأكد من أن له دوراً في الأحداث السابقة التي بدأت بالثورة على الوالي السابق خسرو باشا، ومما يزيد هذا الرأي صحة أن محمد علي لم يتحالف مع «عثمان بك حسن» أحد زعماء المماليك الذي كان يرى ضرورة الارتباط بالدولة العثمانية وفضل التحالف مع أشد زعماء المماليك قرباً من الفرنسيين وهو «عثمان بك البرديسي» وهو أمر يحتاج كذلك إلى تفسير ووضوح.

ولم يستمر التحالف بين محمد علي والبرديسي سوى شهر واحد وابتعد عنه محمد علي بعد ثورة أهالي القاهرة عليه لكثرة ما فرضه عليهم من الضرائب، ووجد محمد علي أن الفرصة سانحة أمامه للتقرب إلى الأهالي

والمشايخ والعلماء فانضم إليهم ضد البرديسي فكسب بذلك ودهم وتأييدهم. ومما لا شك فيه أن محمد علي قد لعب دوراً واضحاً في إثارة الأهالي على البرديسي بعد أن تحقق غرضه خلال الشهر الذي تحالف فيه معه في طرد الوالي الجديد وإبعاد الألفي وقواته، فقد كان محمد علي على صلة بالمشايخ والعلماء منذ قيامهم بتعيين قائده طاهر باشا قائمقاما في أعقاب طرد خسرو باشا، كما أن الشهر الذي تحالف فيه البرديسي لم يكن كافيا لأن يفرض فيه والبرديسي من الضرائب ما يثير الجماهير عليه، كما أن حماية جند محمد علي لثورة الأهالي من رجال البرديسي بعد إعلانه المفاجىء بالانضمام إلى الأهالي قد أسهم في اتساع هذه الثورة واستمرارها حتى خرج البرديسي وقواته من القاهرة.

لقد أدرك محمد علي بعد أن نجح في كسب ود المصريين أنه قريب من تحقيق أطماعه في الولاية فهم القادرون على فرضه كما فرضوا قائده طاهر باشا من قبل، وأنه لم يبق أمامه سوى أن يتخلص من المماليك. وقد استغل ذكاءه في إقناع العلماء والمشايخ بالكتابة إلى السلطان لاختيار خورشيد باشا محافظ الإسكندرية والياً، وكان محمد علي يرمي من ذلك إلى تأكيد صلته بالعلماء من خلال حرصه على دورهم في اختيار الوالي، وكذلك من خلال تعففه أمامهم عن المنصب، وفي نفس الوقت إظهار ما له من فضل على الوالي الجديد فتصبح له اليد الطولى في البلاد، وكذلك إقرار مبدأ الأخذ برأي المصريين أمام الباب العالي حتى يكون ذلك مقدمة لما يخطط له بعد ذلك.

وتفرغ محمد علي بعد ذلك لإبعاد المماليك عن القاهرة ثم تعقبهم في الصعيد حتى ضمن ضعف قدرتهم في التأثير على الأحداث أو اتصالهم بالقوى الأوروبية التي قد يسهم تدخلها في فشل ما خطط له.

وبعد أن حقق نجاحاً إلى حد كبير في هذا الأمر عاد مكشراً عن

أنيابه للوالي خورشيد باشا الذي لعب دورا في تعيينه وازداد تقربا من العلماء وعلى رأسهم السيد «عمر مكرم» نقيب الأشراف. وأدرك الوالي خورشيد باشا أبعاد ما يخطط له «محمد علي»، فسعى إلى تقليم أظافره وإبعاده عن البلاد. ونجحت مساعيه لدى الباب العالي باستدعاء القوة الألبانية التي يقودها «محمد علي» إلى الدولة العثمانية، وعادت القوة دون محمد علي وقليل من الجند حيث أصر العلماء والمشايخ على بقائه في مصر. فجدد الوالي مساعيه لدى الباب العالي واستصدر فرمانا بتعيين «محمد علي» والياً على جدة، لكن ذلك لم يكن يتفق وأطماع «محمد علي» فرفض تنفيذ الفرمان - وفي هذا عصيان لأوامر السلطان - وظل محتمياً بسلطة المشايخ والعلماء[٤٠].

ورد محمد علي على ذلك بإثارة العلماء والمشايخ يساندهم الأهالي على خورشيد باشا، ويصور الجبرتي كيف كان «محمد علي» «يتردد على عمر مكرم نهاراً وليلا يعاهده ويتعاقد معه سراً بل ويحلف له الأيمان الكاذبة على سيره بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع والإقلاع عن المظالم ولا يفعل أمراً إلا بمشورته ومشورة العلماء وأنه متى خالف الشروط عزلوه وأخرجوه - وهم قادرون على ذلك - فيتورط المخاطب - أي عمر مكرم - بذلك القول ويظن صحته وأن كل الوقائع زلابية[٤١]».

وتقدم العلماء إلى القاضي بشكوى ضد «خورشيد» في ١٢ مايو سنة ١٨٠٥م، بعد أن خدعهم «محمد علي»، يشكون فيها من استغلاله وسوء تصرفات قواته، وفي اليوم التالي أسفر العلماء عن نواياهم وبشكل يؤكد دور «محمد علي» في تحريك الأحداث فأعلنوا عزلهم للوالي «خورشيد»

---

(٤٠) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص٣٠٣.

(٤١) أحمد خاكي: المرجع السابق ص٣٨١.

باشا وتعيين « محمد علي » واليا مكانه. وبدا « محمد علي » في دور الممثل البارع في أداء دوره حيث أظهر تعففه عن قبول المنصب قائلا: « أنا لا أصلح لذلك ولست من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة ». وقد علق « الجبرتي » على ذلك بأنه كان ريـاء ونفاقا من « محمد علي » حتى يتمسك الحاضرون به، وفعلا قالوا جميعا مخدوعين قد اخترناك لذلك برأي الجميع والكافة، والعبرة رضا أهل البلاد وجهروا بخلع خورشيـد بـاشا من الولايـة »، وقـام السيـد « عمر مكرم » والشيـخ « الشرقاوي » بتقليد خلعة الولاية، ثم حاصروا « خورشيد باشا » في القلعة حتى اضطر للنزول على رغبتهم وحتى وافاهم السلطان بفرمان تعيين « محمد علي » واليا[٤٢].

دور محمد علي بين الماسونية الفرنسية والحماية البريطانية:

لم يكن من السهل على شاب قليل الخبرة وقليل المعرفة بمصر وطبيعتها أن يصل إلى ما وصل إليه محمد علي مهما كانت قدرته أو ذكاؤه إلا إذا كان يستند إلى قوة تخطط له وتعينه على تحقيق أهدافه وتسخره في نفس الوقت لتحقيق أهدافها، وبخاصة أنه كما ذكر عن نفسه « لا يصلح للولاية وليس من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة » وهذه صفات حقيقية له مهما كان غرضه من قولها، ولهذا نجد أنفسنا أمام العديد من التساؤلات، لماذا ثارت الفرقة الألبانية بالذات التي يحتل فيها هو الرجل الثاني دون بقية الفرق العثمانية وأبعدت « خسرو باشا » عن الولاية تحت دعوى تأخر رواتبهم؟ ولماذا اندفع العلماء لتعيين قائد القوة الألبانية الثائرة طاهر باشا قائمقاماً ينوب عن الوالي

(٤٢) سليمان الغنام: المرجع السابق ص١٧.

المطرود ثم يقتل بعد عشرين يوما؟ ولماذا يطرد الوالي الجديد أحمد باشا بعد توليه الولاية بيوم واحد فقط؟ ولماذا يساعد محمد علي خورشيد باشا في تولي الولاية ثم ينقلب عليه؟ وكيف استطاع محمد علي أن يفي برواتب الجندوبخاصة بعد استيلاء المماليك في الصعيد على مخصصات الأهالي هناك؟ ولماذا ولماذا؟ جوانب كثيرة يكتنفها الغموض!!!.

وتشير كثير من الأدلة إلى أن هذه القوة - التي لم تكن ظاهرة - هي الحركة الماسونية التي انبعثت في مصر سنة ١٧٩٨م على يد رجال الحملة الفرنسية حيث مهد لها نابليون، ثم أسس خلفه كليبر ومعه مجموعة من ضباط الجيش الفرنسيين الماسونيين محفلا في القاهرة سمي محفل إيزيس، وأوجدوا له طريقة خاصة به هي الطريقة الممفيسية أو الطريقة الشرقية القديمة(٤٣). وقد تمكن هذا المحفل من أن يضم إليه

---

(٤٣) حسين عمر حمادة: الماسونية والماسونيون في الوطن العربي - دار قتيبة - دمشق - ب - ت ص ٢١٥؛ مجلة المجتمع الكويتية: حقائق في وثائق، النشاط الماسوني في مصر، حلقة ٤ في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٨٣م العدد (٦٤٥) بقلم: العقيد محمد كامل إبراهيم. والماسونية منظمة سرية خفية لم تتضح هويتها أو تاريخها برغم كثرة الكتابات عنها، لكنها تتخفى وراء أهداف تبدو نبيلة في مقاصدها كدعوتهم للخير والمحبة والسلام والتعايش السلمي في حرية وإخاء ومساواة تحت ظل حكومة عالمية موحدة بعيدة عن التعصب، وقد ظهرت حديثا في أسماء متعددة كالروتاري والليونز وغيرها. ومن بين الذين ذكروا تاريخها أشاروا إلى أنها ترجع إلى الحكم البابلي. وأرجعها آخرون إلى نشأة الحركة النقابية في أواخر العصور الوسطى في أوروبا، لكن المتفق عليه بين كل من تناولوها هو صلتها باليهودية كديانة ثم بالحركة الصهيونية، وبالتالي تحولت أغراضها إلى سياسية دون أن يكون ذلك أمراً معلناً. وقد ارتبط الفكر الماسوني بالفكر الليبرالي وبخاصة في انجلترا، وبفكر الطبقة الوسطى في مرحلة نشوء وتطور الرأسمالية. واهتمت المحافل الفرنسية منذ بدايتها بالأمور السياسية والدينية، وسلكت أسلوب العمل الخفي حتى تستطيع أن تسيطر على كافة الأمور. على أن اهتمامها بالنواحي الدينية ليس إيجابياً بل ترى أن كافة الأديان هي العدو الحقيقي للبشرية وأنه لا بد من العمل على إبادتها. انظر: د.عبد الصبور مرزوق: الغزو الفكري، أهدافه ووسائله، ط٣ رابطة العالم الإسلامي ص ٩٢، ٩٣ (ب.ت).

بعض الأعضاء من المصريين وإن كانوا قلة، ثم انحل هذا المحفل رسميا في أعقاب اغتيال كليبر سنة ١٨٠٠م، وظل أعضاؤه يعملون في الخفاء وبسرية تامة كطبيعة هذه الحركة حتى أعيد تأسيسه سنة ١٨٣٠م(٤٤).

ويشير المنشور الأول الذي وزعه نابليون على المصريين إلى انه قد سعى لنشر هذه الأفكار منذ بداية وصول الحملة فيذكر فيه «قولوا لهم - أي للمصريين - أن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط»(٤٥). وكان من أهم الموضوعات التي أثارت الجبرتي في هذا المنشور هو ادعاء الفرنسيين بأنهم مسلمون ومحبون للإسلام، وأبدى تعجبه من تضمن المنشور لعبارة «لا إله إلا الله لا ولد له» حيث وجد في ذلك تناقضا مع ديانتهم المسيحية، وعلق على ذلك بقوله: «كيف وأن الله خلق الناس بعضهم فوق بعض درجات» «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه» إن في ذكر هذه الجمل الثلاث إشارة إلى أنهم موافقون إلى الملل الثلاث، ومخالفون لهم بل وبجميع الملل، موافقون للمسلمين في ذكر التسمية ونفي الولد والشريك، ومخالفون لهم في عدم الإتيان بالشهادتين وصحة الرسالة، ورفض الأقوال والأفعال الشرعية المعلومة من الدين بالضرورة. وموافقون للنصارى في غالب أقوالهم وأفعالهم، ومخالفون لهم في القول بالتثليث وجحد الرسالة أيضا ورفض ديانتهم وقتل القسوس، وهدم الكنائس، وموافقون لليهود في

---

(٤٤) حسين عمر حمادة: المرجع السابق ص ٢١٦.، أبو الفدا «محمد عزت محمد عارف»: نهاية اليهود، جدة سنة ١٤١٠هـ ص ١٣٢.

(٤٥) د. إبراهيم العدوي: المرجع السابق ص ٨٣. وحول الأسس والجوانب البراقة لهذه الحركة انظر: أبو إسلام أحمد عبد الله: الروتاري - شرخ في جدار. دار الاعتصام، القاهرة سنة ١٩٨٨م ص ٣٧، ٣٨.

التوحيد، فإن التوحيد لا يقوله اليهود بالتثليث، وإنما هم مجسمة مخالفون لهم في ديانتهم، والذي تحرر من عقائدهم أنهم لا يتفقون على دين، ولا يتفقون على ملة، فكل واحد منهم ينحو دينا، يخترعه بتحسين عقله ومنهم الباقي على نصرانيته المتكتم لها، وفيهم فرق من اليهود الحقيقيين، ولكن كل ذي دين فهو سائر مصر عليه، موافق للجمهور في ضلالهم المصرين عليه[٤٦]، ولا نتفق مع من يرجع ذلك إلى أثر الفكر العلماني الذي ساد فرنسا بعد الثورة بل إن مبدأ المساواة بين الأديان - لا إنكارها - هو أساس في الفكر الماسوني[٤٧]..

وقد أبدى العلماء المصريون تخوفهم من هذا الاتجاه برغم عدم فهممهم له أو إدراكهم لطبيعته أو لأبعاده[٤٨]، فحينما وضع نابليون طيلسانة موشاة بعلم الثورة الفرنسية المثلث (حرية - إخاء - مساواة) على كتف الشيخ الشرقاوي ألقى بها الشيخ على الأرض رافضاً ارتداءها[٤٩]، كما رفض المشايخ كذلك وضع علامة «الجوكار» على صدورهم وهي علامة يقال لها الوردة[٥٠]، ولا شك أن العلم والعلامة (الجوكار والوردة) هي إشارة ماسونية تشير إلى تأثير الحركة الماسونية على الثورة الفرنسية، وكذلك تعبير عن تأثر قادة الحملة بفكر هذه الحركة.

ويبدو تأثرهم بفكر هذه الحركة كذلك وسعيهم لنشره بين المصريين فيما حاولوا فرضه من العادات التي استهجنها المصريون كالبغاء والسفور

---

(٤٦) د. صلاح العقاد: الجبرتي والفرنسيس، بحث ضمن مجموعة دراسات الجبرتي ص ٣١٣.
(٤٧) المرجع السابق.
(٤٨) تعجب الجبرتي من ادعائهم الإسلام ثم قيامهم بالعبث بالأماكن المقدسة انظر: عجائب الآثار: جـ٣ أحداث سنة ١٢١٣ هـ، جـ٣ ص ٢٦.
(٤٩) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص ٣٢٠.
(٥٠) د. إبراهيم العدوي: المرجع السابق ص ٨٥.

وتشجيع النساء من الحرافيش ونساء الهوى على ارتكاب المحرمات بشكل علني واضح[٥١]، حيث يعد هذا الأمر من بين أساليب انتشار الماسونية[٥٢].

وتوحي بعض الدلائل على أنهم - أي الفرنسيين - قد نجحوا في ضم بعض المصريين من المشايخ والعلماء من بينهم الشيخ حسن العطار إلى المحفل الماسوني الذي أسسه كليبر سنة ١٨٠٠م، فبعد أن هرب الشيخ حسن العطار إلى الصعيد في أعقاب قدوم الحملة كغيره من العلماء ثم عاد إلى القاهرة على أثر دعوة الفرنسيين للعلماء اتصل على الفور برجال الحملة ونقل عنهم علومهم، وفي نفس الوقت تولى تعليمهم اللغة العربية[٥٣]، وقد اندمج إلى حد كبير في علومهم، وكثيراً ما تغزل في أشعاره بأصدقائه منهم[٥٤]، ولقد دعت هذه الأمور أن يوصف العطار بأنه من دعاة التجديد[٥٥]. وقد توثقت صلة الشيخ العطار بمحمد علي بعد توليه الولاية وأصبح من الركائز التي يعتمد عليها محمد علي في خطواته التجديدية في مصر وهو أمر يشير إلى وجود صلة بين محمد علي والمحفل الماسوني المصري الذي تأسس إبان الحملة الفرنسية[٥٦].

كما أن تطور الأحداث يشير إلى تشبع محمد علي بالأفكار الماسونية التي كان مهيأ لها بحكم تكوينه الطبيعي، فينقل عن محمد علي قوله وهو

---

(٥١) الجبرتي: عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٦١.
(٥٢) عبد الجبار الزيدي: الماسونية تحت الأضواء - بيروت سنة ١٩٨٨م ص ٣٣.
(٥٣) د. إبراهيم العدوي: المرجع السابق ص ٨٥.
(٥٤) د. صلاح العقاد: المرجع السابق ص ٣١٦.
(٥٥) د. جمال زكريا قاسم: المرجع السابق ص ٥٩.
(٥٦) أصبح اسم «محمد علي» رمزا من رموز الماسونية، وإسما لأحد محافل الاسكندرية، وعن صلة محمد علي باليهود انظر: محمد علي الزغبي: الماسونية في العراء، مؤسسة الرسالة، بيروت سنة ١٩٨٨م ص ٣٠٠.

يفاوض الفرنسيين على مسألة احتلال الجزائر: «ثقوا أن قراري... لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني وتعلمون أنني متحرر من هذه الاعتبارات التي يتقيد بها قومي... قد تقولون أن مواطني حمير وثيران وهذه حقيقة أعلمها»[٥٧].

وقد شهد عصر محمد علي على تأسيس أكثر من محفل ماسوني في مصر فقد أنشأ الماسون الإيطاليون محفلاً بالإسكندرية سنة ١٨٣٠م على الطريقة الاسكتلندية، وذكر البعض أنه لم يكن محفلا ماسونيا بل كربوناريا وأن العامة قد خلطوا بينهما لوجود بعض السمات المشتركة كالسرية التامة واستخدام الرموز ووحدة التعارف بين أعضائها بواسطة إشارات ولمسات، لكنهما يختلفان من حيث التكوين والوسائل الخاصة بتحقيق الأهداف حيث أن الماسونية متدرجة في تطبيق أهدافها في حين أن الكربونارية تلجأ إلى أسلوب الثورة الفجائية[٥٨]، وأن أول محفل ماسوني أنشأه الإيطاليون سنة ١٨٤٩م ثم تلاه العديد من المحافل التي أنشأوها في مصر[٥٩].

أما الفرنسيون الماسون فقد أسسوا محفلهم الأول، من كوادر المحفل المؤسس إبان الحملة، سنة ١٨٣٨م في القاهرة، وتبعه محفل آخر لهم في الإسكندرية سنة ١٨٤٥م تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنسي وضم العديد من أبناء مصر إلى جانب العناصر الأجنبية، وكان منهم الأمير حليم بن محمد علي وكذلك الأمير عبد القادر الجزائري[٦٠].

---

(٥٧) د. سليمان الغنام: المرجع السابق ص ٨٤.
(٥٨) حسين عمر حمادة: المرجع السابق ص ٢١٧.
(٥٩) حسين عمر حمادة: المرجع السابق ص ٢١٨.
(٦٠) المرجع السابق ص ٢١٩، وقد انتشرت المحافل الماسونية في بعض المدن الداخلية على يد الفرنسيين مثل بور سعيد والسويس والإسماعيلية.

محمد علي يتصل بالبريطانيين ويطلب حمايتهم:

بعد أن وطد محمد علي أقدامه في مصر إلى حد ما من خلال اطمئنانه لمساندة القوى الشعبية وابتعاد المماليك عن القاهرة إلى الصعيد لم يكن يثير قلقه سوى ابعاد صراع النفوذ البريطاني الفرنسي على مصر. وكانت فرنسا قد نجحت في إحداث وقيعة بين بريطانيا والعثمانيين سنة ١٨٠٦م، ولم تستطع بريطانيا أن تحاصر أبعاد هذه الأزمة بأسلوب دبلوماسي مما دعاها لأن تستخدم القوة العسكرية، فأرسلت حملة عسكرية بحرية لتهاجم المضائق العثمانية في فبراير سنة ١٨٠٧م، وأتبعتها في الشهر التالي بحملة أخرى على مصر هي حملة فريزر كي تحتل الإسكندرية تحسبا لعودة الفرنسيين إليها مرة أخرى، ولمحاولة تمكين الزعماء المماليك الموالين لها مثل محمد بك الألفي من استعادة نفوذهم في حكم مصر[٦١]، لكنها أخفقت في احتلال رشيد بعد هزيمتها أمام الأهالي في معركة الحماد، ووجدت أن المماليك بمن فيهم حليفهم الألفي، لم يعودوا قادرين على السيطرة على الموقف الداخلي ولهذا استقروا بعض الوقت في الإسكندرية لتكشف ما تسفر عنه الأوضاع.

وعلى الرغم من أن محمد علي كان موجوداً في الصعيد أثناء حملة فريزر ليحارب المماليك ويمنعهم من الاتصال بالإنجليز كي تتاح له وحده فرصة الاتصال بهم، وأنه أبدى تخاذلا شديدا في عدم اشتراك أي من قواته في مقاومة الإنجليز في معركة الحماد، إلا انه قد استثمر انتصار الأهالي لحسابه وجعله مقدمة أتاحت له فرصة القيام بمفاوضة الإنجليز، وهو أمر سجله عليه الجبرتي فقال: «وليت العامة شكروا على ذلك أو

---

(٦١) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص ٣٠٨.

نسب إليهم فعل بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك »[٦٢].

وتؤكد هذه المواقف أن محمد علي لم يكن يريد مقاومة الإنجليز أو حربهم وإنما كان يريد التفاوض معهم والتوفيق بين أطماعه ونفوذهم، وهذا الأمر هو الذي دعاه لمحاربة المماليك في الصعيد دون أن يأبه بهجوم أجنبي على البلاد[٦٣]، بل إنه ربما كان يتوقع هجوم الإنجليز بعد علمه بحملتهم على المضائق العثمانية وأن هدفهم من الهجوم هو تمكين خصمه محمد بك الألفي، وهذا الأمر هو الذي دعاه لعدم تمكين الألفي أو غيره من المماليك من الاتصال بهم، وحتى لا يجدوا أمامهم سوى مفاوضته هو.

وعلى أية حال لم يضع محمد علي وقتا حيث أرسل رسله للتفاوض مع الإنجليز في أعقاب معركة الحماد مباشرة، واستمرت المفاوضات بينهما أربعة أشهر أكد فيها محمد علي جديته ورغبته المخلصة في الارتباط بهم بل وطلب وضع نفسه تحت حمايتهم وهو ما يؤكده تقرير فريزر الذي تولى التفاوض معه، الأمر الذي أدى - بعد اقتناعهم بذلك - إلى تخليهم عن أصدقائهم من المماليك. وقد تضمن التقرير الذي أعده قائد الحملة فريزر الذي تفاوض مع رسل محمد علي والذي أرسله إلى الجنرال مور في ١٦ اكتوبر سنة ١٨٠٧م أهم جوانب هذه المفاوضات فقد جاء فيه: «أرجو أن تسمحوا لي بأن أبسط لكم ليكون... موضع نظركم فحوى محادثة جرت بين باشا مصر والميجور جنرال «شريروك» والكابتن «فيلوز» أثناء قيامهما بمهمتها لدى سموه. ولدي ما يجعلني أعتقد أن

---

(٦٢) الجبرتي: عجائب الآثار، جـ ٤ ص ٥٨.

(٦٣) د. سليان الغنام: المرجع السابق ص١٨.

هذه المحادثة، ومن اتصالات خاصة كثيرة أخرى كانت لي معه، بأنه جاد وصادق فيما يقترحه. لقد أبدى محمد علي باشا والي مصر رغبته في أن يضع نفسه تحت الحماية البريطانية، ووعدناه بإبلاغ مقترحاته إلى الرؤساء في قيادة القوات البريطانية كي يقوم هؤلاء بإبلاغها إلى الحكومة الإنجليزية للنظر فيها. ويتعهد محمد علي من جانبه بمنع الفرنسيين والأتراك أو أي جيش تابع لدولة أخرى من الدخول إلى الاسكندرية من طريق البحر وبعد الاحتفاظ بالاسكندرية كصديق وحليف لبريطانيا العظمى ولكنه لا مناص له من انتظار أن تعاونه انجلترا بقواتها البحرية إذا وقع هجوم عليه من جهة البحر لأنه لا يملك سفناً حربية. ويوافق محمد علي باشا في الوقت نفسه على تزويد كل السفن البريطانية التي تقف على بعد من الاسكندرية بما قد تحتاج إليه من ماء النيل عند إعطائها إشارة يصير الاتفاق عليها »(٦٤).

وقد علق القنصل الفرنسي دروفتي على ما بلغه من معلومات حول الاتفاق بين محمد علي والانجليز الذي هو من نوع معاهدة بأن « مثل هذه المعاهدة عند إبرامها سوف تحقق الأغراض التي توخاها الإنجليز من إرسال حملتهم على مصر إن لم يفق أثرها من هذه الناحية كل ما كان يتوقعه هؤلاء من إرسال هذه الحملة »(٦٥).

ولم يشأ الانجليز الإعلان عن كل ما احتوته بنود هذه الاتفاقية في أعقاب توقيعها وإخلائهم الاسكندرية وتسليمها إلى باشا مصر حيث

---

(٦٤) د. محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١ -١٨١١م) - القاهرة سنة ١٩٥٨م جـ٢ ص ٨٥٦، ٨٥٧؛ د. سليمان الغنام: المرجع السابق ص١٨، ١٩.

(٦٥) د. محمد فؤاد شكري: المرجع السابق جـ٢ ص ٨٢٦ وما بعدها؛ د. سليمان الغنام: المرجع السابق ص ١٨.

رأت بريطانيا ضرورة التريث في ذلك لما تحتويه من إعلان العداء الواضح للدولة العثمانية لمساندتها لحاكم يريد الاستقلال عنها في وقت كانت الدبلوماسية الانجليزية قد اتجهت في طريق رأب الصدع مع دولة الخلافة، ولبدء التخطيط معها، ومع الحليف الجديد على رسم سياسة جديدة تمكن بريطانيا من بسط نفوذها على المنطقة بأكملها.

الفصل الثامن

محمد علي يقضي على القوى الإسلامية وبهيئ المنطقة للاستعمار الغربي

- محمد علي وضرب الاتجاه الإسلامي في مصر.
- محمد علي وضرب الاتجاه الإسلامي في الجزيرة العربية.
- محمد علي وضرب الاتجاه الإسلامي في الشام.

محمد علي يقضي على القوى الإسلامية
ويهيئ المنطقة للاستعمار الغربي

اذا كان اتفاق محمد علي مع البريطانيين قد أسهم في إزالة القلق الذي كان يحيط به تجاه الأوضاع الخارجية فإنه إلى جانب ذلك قد أكد النية العدائية له تجاه الدولة العثمانية، حيث تضمن تقرير فريزر طلبه للحماية من أي هجوم خارجي سواء من الفرنسيين أم من الأتراك.

ولم تكن هذه هي الإشارة الأولى التي توضح موقف محمد علي العدائي للسلطان العثماني بل سبقت الإشارة إلى رفضه تنفيذ الفرمان الذي أصدره السلطان بتعيينه والياً على جدة حين اختلف مع والي مصر خورشيد باشا، هذا بخلاف دوره في التآمر على ولاة السلطان خسرو باشا وأحمد باشا ثم خورشيد باشا لتهيئة الولاية لنفسه.

وإذا كان محمد علي - تسانده بريطانيا - قد وجد غطاء لدوره في مهاجمة القوة الإسلامية في الجزيرة العربية وهو ما ادعاه أنه ينفذ أوامر السلطان العثماني منتهزاً فرصة الخلاف بين الدولة العثمانية والدولة السعودية الذي كان من الممكن أن ينهي دوره بدخول الحجاز فقط، لو افترضنا أن لذلك الدور ضرورة، لكنه لم يستطع أن يجد أي غطاء لدوره في ضرب القوى الإسلامية الأخرى في الشام ومصر والخلافة نفسها، فبدا في صورة المعادي لدولة الخلافة بعد أن انكشفت أطماعه.

ولما كان الدين الإسلامي يمثل أهم مقومات الترابط والصمود في المنطقة ويشكل أهم ملامح هويتها، فإن دور محمد علي بهذا يتمثل في تنفيذ السياسة المعادية للمنطقة ببعدها الماسوني الصليبي الاستعماري والرامية إلى تحطيم هويتها وبالتالي تهيئتها لسيطرة الاستعمار الغربي، فسيطر الفرنسيون على الجزائر ثم تونس في نفس الوقت الذي وجه فيه قوته إلى الشام والدولة العثمانية، كما سيطر الإنجليز على مداخل البحر الأحمر، وبالاتفاق أو التنسيق استولوا على كثير من مناطق الخليج العربي والتي ظلت مستعصية عليهم قبل أن يهاجم هو الجزيرة العربية، ثم أسهمت سياسته في النهاية لتسليم مصر للاستعمار البريطاني تلك السياسة التي يصفها البعض من أصحاب المنظور المادي والعلماني بالنهضة والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة، ولكن لكونها لم تقم على أكتاف أهل البلاد أو لتحقيق مصالحهم سرعان ما كانت سببا في وقوعهم تحت الاحتلال.

محمد علي وضرب الاتجاه الإسلامي في مصر:

بعد أن نجح محمد علي في الاستعانة بالزعامة الشعبية الممثلة في المشايخ والعلماء ورجال الدين في مصالحته مع المماليك حتى تهيأت الفرصة أمامه لتنفيذ مخططه ليغدر بالمماليك في القلعة سنة ١٨١١ م، راح يخطط لكيفية التخلص من هؤلاء العلماء والمشايخ حتى يخلو له الأمر ويصبح حاكماً مطلقاً لا تحد سلطته سلطة أو تحاسبه فئة. فبدأ بإشاعة الفرقة بينهم وضرب بعضهم ببعض حتى ساد الفساد بينهم[١]، وقد صور الجبرتي ذلك بقوله: «لقد سادهم التكالب على سفاسف الأمور... وفراغ الأعين، والتطلع للأكل في ولائم الأغنياء والفقراء والمعاتبة عليها إن لم يدعو إليها»[٢].

---

(١) د. عمر عبد العزيز: تاريخ الشرق العربي، ص ٣٢٤.
(٢) الجبرتي: عجائب الآثار جـ ٤ ص ٦٩.

ولعل أهم عمل قام به محمد علي لضرب الزعامة الإسلامية في مصر هو ضمه للأوقاف التي كانت موقوفة على الأزهر لينفق منها على التعليم والمشايخ، إلى ملكية الدولة[3]، فقد مكنه هذا من تحقيق هدفه في تقويض دور التعليم الديني وإحكام السيطرة على المشايخ والقائمين على التعليم من رجال الأزهر بعد أن فقدوا قدرتهم على معارضته.

وقد أحاط محمد علي نفسه ببطانة ومساعدين من نصارى الأروام والأرمن وكتبة من الأقباط واليهود، واستجلب لنفسه مماليك جعلهم حكاماً للأقاليم، وكان في كل ذلك مستفزاً لجموع المسلمين المصريين ومعبراً عن عدم الاهتمام أو الاكتراث بهم وبخاصة أن هؤلاء المساعدين قد أعانوه على سياسته الاستبدادية بين الفلاحين[4]، ويصور لنا الجبرتي ذلك بقوله: «فتح بابه للنصارى من الأروام والأرمن فترأسوا بذلك وعلت أسافلهم، كما أنه كان يحب السيطرة والتسلط ولا يأنس لمن يعارضه»[5].

وسلك محمد علي ومعانوه من غير المسلمين سياسة تتسم بالظلم والقهر والاستعباد ضد جموع الشعب المصري، فجمع حجج الأرض من الفلاحين وفرض عليهم السخرة أو دفع ضريبة بديلة وحرم عليهم أن يأكلوا شيئاً من كد أيديهم، وأبطل التجارة، وزاد في أسعار المعايش أضعافاً مضاعفة، وفرض الضرائب التي لا يطيقون دفعها، وجعل كل نشاط اقتصادي يؤول إليه، ونقم على الناس[6]، وأرجع الجبرتي ذلك إلى

---

(٣) أحمد خاكي: الجبرتي ومحمد علي ص ٣٩١.
(٤) د. جمال زكريا قاسم: المرجع السابق ص ٦٢.؛ أحمد خاكي: المرجع السابق ص ٣٦٣.
(٥) الجبرتي: عجائب الآثار جـ ٤ ص ١٥٠، نقلا عن د. جمال زكريا: المرجع السابق ص٦٢.
(٦) أحمد خاكي: المرجع السابق ص ٣٩١، ٣٩٤.

ما يتسم به محمد علي من «داء الحسد والشره والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم»[٧]، وأرجعها مؤرخون آخرون إلى احتقار محمد علي للمصريين جميعاً[٨]. وقد نتج عن هذه السياسة كره الفلاحين الشديد لمحمد علي وأعوانه، وهروبهم من الأراضي الزراعية وترك قراهم فراراً من هذه السياسة الظالمة، وأعرضوا عن الاشتراك في جيشه، فقد بلغ عدد الفلاحين الفارين في عام واحد هو عام ١٨٣١م ستة آلاف فلاح[٩].

أما في المدن وبخاصة في القاهرة فيذكر الجبرتي أن محمد علي حين كلف الناس بتعميرها «اجتمع على الناس عشرة أشياء من الرزائل وهي السخرة والعونة وأجرة الفعلة والذل والمهانة وتقطيع الثياب ودفع الدراهم وشماتة الأعداء وتعطيل معاشهم وأجرة الحمام»[١٠]. ولا شك أن في ذلك تصويراً دقيقاً من مؤرخ معاصر لسياسة الظلم التي اتبعها محمد علي مع سكان القاهرة والمماثلة لنفس سياسته مع الفلاحين في الريف المصري نتج عنها مزيد من الكره في نفوس المصريين تجاهه. وقد صور الجبرتي نموذجا يدلل فيه على ذلك حين تحدث عن زواج ابنة محمد علي من أحد مماليكه وهو محمد بك الدفتردار في سنة ١٨١٤م، وهو الذي اتهم بقتل خليل ابن الجبرتي بعد ذلك، فيروي الجبرتي كيف أمر محمد علي

---

(٧) الجبرتي: المرجع السابق جـ ٤ ص ١٥٠.

(٨) م. أبير: التجديد والرجعية وإمبراطورية محمد علي، ترجمة: مكي حبيب المؤمن، مجلة المؤرخ العربي- العدد ١٨ سنة ١٩٨١م ص٢٠٥.، وسبق أن أشرنا إلى أن محمد علي كان ينظر إلى المصريين على أنهم «حمير وثيران»، د. سليمان الغنام: المرجع السابق ص ٨٤.

(٩) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص ٣٤٦.

(١٠) أحمد خاكي: المرجع السابق ص ٣٩١، نقلا عن عن الجبرتي.

شخصا اسمه «محمد آغا» أن يخلي داره حتى تسكن فيه ابنته، وكيف أمر الباشا بهدم المصاطب الواقعة في طريق الزفة، وكيف تحمل نساء الأمراء المصريين المنكوبين ما يزيد عن طاقتهم في تقديم «النقوط والتقادم والهدايا»، وكانت ابنة الباشا ترد الهدايا التي لا تجدها كافية مما أدى إلى أن يصبح أغلب الأمراء مجردين مديونين، ويعقب على ذلك بأن الله قد أظهر غضبه يوم الزفاف حيث حاصرت الأمطار الزفة واضطر الكثيرون لتركها وتلطخت ثياب من اضطر للبقاء فيها بالطين[١١].

وإذا كان بعض كتاب التاريخ قد رأى أنه لا ينبغي تعميم الأحكام على عصر محمد علي من خلال فترة حكمه الأولى التي صورها الجبرتي من منظور إسلامي - حيث تعد هذه الفترة فترة إعداد لما قام به محمد علي من إصلاحات في الفترة اللاحقة من حكمه كبناء القناطر والدور وشق الترع وتشييد المنشآت والاهتمام بالتعليم وبناء الجيش وغير ذلك، فمما لا شك فيه أن المصريين لم يستفيدوا استفادة تذكر من كل هذه الأعمال التي بنوها بالسخرة، وكان المستفيد الأول، إلى جانب محمد علي، الدول الأوروبية، حيث فتح الباب على مصراعيه للتجار الأوروبيين لدخول مصر والسيطرة على الحياة الاقتصادية فيها، وأصبحت مصر هي المزرعة التي تعتمد عليها أسواق أوروبا في المنتجات الزراعية، وارتبطت مصر - من خلاله - بذلك ارتباطا وثيقا بأوروبا تجارة وحضارة، وأصبح اعتماد طبقة التجار الناشئة في مصر اعتماداً كليا على الأسواق الأوروبية وبشكل جعلها تتأثر بأي دور يقوم به الأوروبيون من الناحية الاقتصادية وبالتالي السياسية، إلى جانب تمكين دعاة الثقافة الأوروبية من السيطرة على الحياة الفكرية بعد أن شل

---

(١١) أحمد خاكي: المرجع السابق ص ٣٨٥.

دعاة الاتجاه الإسلامي[١٢]، وأوقف مناهج التعليم القائمة على الديـن تنفيذاً لسياسة نابليون الماسونية، وهو أمر أكده المؤرخ الانجليزي أرنولد توينـي في قولـه: «كـان محمـد علي ديكتـاتورا أمكنـه تحويـل الآراء النابليونية إلى حقائق فعالة في مصر[١٣]».

وحتى لو جارينا القائلين بأن الإصلاح أدوم من صاحبه وأن استمرار هذه المنشآت قد أفاد شعب مصر على المدى البعيد، إلا أن الإصلاح ليس إصلاحا ماديا فقط، وقد حقق الاستعمار الأوروبي هدفه في الاستفادة من هذه المنشآت حتى منتصف القرن العشرين[١٤]. أما شعب مصر فقد خيم عليه اليأس ودفع ثمناً باهظاً يفوق حجم كل إصلاح وهو تحطيم هويته الحضارية التي صقلها الإسلام والتي ميزت دوره خلال العصور الإسلامية[١٥].

ولقـد علـق أحـد المؤرخين عـلى ذلـك العصر بقولـه بـأن سيـاسة الاحتكار التي اتبعها محمد علي في مصر كانت أفتك سلاح أضعف الفردية المصرية والشخصية الوطنية، ولا يمكن لقومية أن تقوم على أجساد عجاف ولا أرواح يستبد بها حاكم فينكر عليها حق الوجود[١٦]،

---

(١٢) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص ٣٢٢، ٣٢٣، د. أحمد عزت عبد الكريم: المرجع السابق ص٢٤٨.

(١٣) أرنولد توينبي: عبد الرحمن الجبرتي وعصره ص ١٤.

(١٤) حول دور بريطانيا في تحطيم الصناعة في مصر، وكذلك آثار معاهدة بالطليمان بين بريطانيا وتركيا سنة ١٨٣٨م انظر: د.أحمد عزت عبد الكريم: المرجع السابق ص ٢٥٠.

(١٥) عن الأحوال الصحيـة للفـلاحين وتطبيـق نظـام السخرة انظر: د. أحمد عزت عبد الكريم: المرجع السابق ص ٢٤٨.

(١٦) أحمد خاكي: المرجع السابق ص ٣٩٤.

وعلق مؤرخ آخر بأن صراعه أي محمد علي من أجل الاستقلال لم يكن صراعا من أجل استقلال مصر، بل كان من أجل ضمان ملك وراثي لأبنائه من بعده[17].

على أن أخطر اتجاه رعاه «محمد علي» هو الاتجاه إلى الدعوة الوطنية والقومية في ظل سياسة التضييق التي مارسها على دعاة الفكر الإسلامي من العلماء والمشايخ فكان هذا الاتجاه مسايراً لمساعيه الرامية إلى الاستقلال بمصر وبالتالي إبعادها عن الارتباط بدولة الخلافة الإسلامية[18]، وقد لقي في اتجاهه هذا عونا من المحافل الماسونية التي يعتبر هذا الاتجاه من صلب أهدافها.

ومن أبرز الذين عاونوه في هذا الاتجاه الشيخ حسن العطار سنة (١٧٧٦-١٨٣٥م) الذي تشير الدلائل على انضمامه للمحفل الماسوني المصري، فقد كان العطار يرى أن البلاد «لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها»، وكانت وجهته في هذا التغيير هو الاتجاه الكامل إلى الثقافة الأوروبية بعد أن عجز - في رأيه - المشايخ والعلماء عن مواصلة جهود المسلمين الأوائل[19].

وتبع العطار في اتجاهه تلميذه رفاعة الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣م) حيث ابتعثه محمد علي إلى فرنسا خمس سنوات (١٨٢٦-١٨٣١م) عاد بعدها لينشر ما يزكي الفكرة الوطنية وغيرها من الأفكار الاجتماعية

---

(١٧) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص ٣٢٣. د. مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل ص ٥٥٨ حيث يذكر كيف قتل محمد علي الروح الشعبية.

(١٨) د. محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ - ١٨١١م، جـ٣ ص١٢٣٢ وما بعدها، د. مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل ص٥٥٨.

(١٩) د. زكريا سليمان بيومي: التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين، دراسة في فكر الشيخ محمد عبده ص٢.

التي عايشها في فرنسا والتي لم تكن تتلاءم مع أوضاع المجتمع المرتبط بالفكر الإسلامي، وقد بدت هذه الأفكار في العديد من القصائد التي نظمها وكذلك الكتب التي ترجمها بعد توليه الإشراف على مدرسة الألسن[٢٠].

وكان اتجاه الطهطاوي يميل إلى الوطنية أو القومية المتعصبة دون أن يحاول دمجه بالفكر الإسلامي على الرغم من محاولاته حشد العديد من الأدلة المستمدة من كتّاب مسلمين لتدعيم أفكاره، كما أنه في أغلب ما طرحه من أفكار قد أكد بأنه قد تأثر بتيارات الفكر الأوروبي من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار بشكل فاق تأثره بالفكر الإسلامي، حيث أبدى في عديد من جوانب فكره، وفي كافة مراحل حياته، إعجابه بأفكار الحرية والمساواة وضرورة الاعتماد على العقل، وهي نفس الآراء التي أثارها نابليون إبان الحملة الفرنسية، والتي أكدت مدى تأثر الطهطاوي بآراء مونتسكيو، كما أشارت إلى تشبع الطهطاوي هو الآخر بالفكر الماسوني[٢١].

وتبع الطهطاوي كثيرون ممن واصلوا الدعوة إلى الوطنية وإلى ضرورة الاتجاه الكامل إلى الحضارة الغربية من أمثال «علي مبارك» و«إبراهيم أدهم» و«صالح مجدي» و«محمد عثمان جلال» و«عبد الله أبو السعود» و«عبد الله فكري» وغيرهم، وواصل الجميع هجومهم على التيار الإسلامي من كافة الجوانب، وتعد أخطر دعوة تبناها بعض من هؤلاء، ونقلوها من فرنسا، هي الدعوة إلى سيادة اللهجة العامية لتحل

---

(٢٠) المرجع السابق ص ٢٣.

(٢١) د. زكريا سليمان: المرجع السابق ص ٢٤، ٢٥. وأصحح هنا بعض ما سبق أن توصلت له في هذا الكتاب.

محل اللغة العربية[٢٢]، وعندما لم تلق هذه الدعوة قبولا من بعض المفكرين استخدمت اللغة العربية الفصحى لإثارة النعرة القومية العربية وهو تيار حمله المفكرون الشوام، والذين كانوا في أغلبهم من النصارى، إلى مصر واستخدموه في تدعيم اتجاههم الرامي إلى ضرب فكرة الجامعة الإسلامية والسعي لفصل العرب عن دولة الخلافة الإسلامية.

محمد علي وضرب الاتجاه الإسلامي في الجزيرة العربية:

سبقت الإشارة إلى أن الخلاف الذي قام بين الدولة السعودية والدولة العثمانية لم يصل إلى حد العداء الذي يستوجب إعلان الحرب، فلم يطلب أتباع الدعوة السلفية الخلافة أو حتى يبدو اعتراضهم على التبعية لها، ولكن الخلاف قد انحصر في أمرين أساسيين الأول هو مطالبة الوهابيين بضرورة التزام وفود الحجيج بمنهج الإسلام والإقلاع عن كل ما فيه خروج عليه، والأمر الثاني هو شعور الدولة العثمانية بالحرج والضعف أمام سيطرة الوهابيين على المدن المقدسة في الحجاز حيث أدركوا أن في ذلك إسقاطا لهيبتهم ولمكانتهم السياسية.

ويشير الجبرتي إلى ما ينفي شعور العداء بين الجانبين فيذكر في أخبار يوم ٩ رجب سنة ١٢٢١هـ (٢٢ سبتمبر سنة ١٨٠٦م) أن مندوب السلطان (كتخدا القبودان) حين وصل ومعه مرسوم استمرار محمد علي واليا على مصر ذكر أن السلطان يطلب منه «طلوع الحج ولوازم الحرمين الشريفين ووصول العلائف إلى أربابها على النسق القديم»[٢٣]، وقد أرسل السلطان مندوبا آخر في الشهر التالي ليؤكد

---

(٢٢) د. شوقي ضيف: فصول من الشعر ونقده - القاهرة - سنة ١٩٧١م ص٢٧٨ إلى ص٢٨٠، وحول هذه القضية انظر: د. محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. نفوسة زكريا: تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر.

(٢٣) محمد أديب غالب: من أخبار الحجاز ونجد ص ١١٠.

نفس المطالب. وأشار في نفس الوقت إلى موقف الوهابيين من وفود الحجيج حيث ذكر مطالبهم من عبد الله باشا أمير الحج الشامي في محرم سنة ١٢٢٢ هـ (٩ إبريل سنة ١٨٠٧ م) بألا يأتوا إلا على الشرط الذي اشترطوه عليهم وهو «أن يأتي بدون المحمل وما يصحبهم من الطبل والزمر والأسلحة وكل ما كان مخالفاً للشرع. فلما سمعوا ذلك رجعوا من غير حج ولم يتركوا مناكيرهم»[٢٤]. كما ذكر موقفا مماثلا من موكب الحج المصري[٢٥].

واقتصر مرسوم السلطان العثماني القاضي بطلب الحرب مع السعوديين من محمد علي، وبدافع من رسائل شريف جدة وكذلك بوحي وتشجيع من الإنجليز، على «استخلاص الحرمين والوصية بالرعية والتجار»[٢٦]، وتكرر نفس الطلب بعد ذلك مجدداً الاقتصار على تخليص الحرمين الشريفين. وفي أعقاب نجاح القوات العسكرية في الاستيلاء على بلاد الحجاز، بعد أن هزمت وأخفقت عدة مرات أمام الوهابيين، أرسل السلطان محمود الثاني مرسوما إلى مصر يقرأ في المساجد باستعادته للحرمين الشريفين[٢٧]، وهو أمر يوحي بأن السلطان العثماني ليس له هدف آخر سوى عودة الحجاز للسيادة العثمانية.

وكان من الممكن أن تنتهي هذه الحرب إلى هذا الحد فقد سيطرت القوات التركية على مدن الحجاز، وعين محمد علي شريفا جديدا على

---

(٢٤) المرجع السابق ص ١١١.
(٢٥) المرجع السابق ص ١١١، ١١٢.
(٢٦) المرجع السابق ص١١٤ (الجبرتي - أخبار يوم ٢٣ شوال سنة ١٢٢٢هـ (٢٤ ديسمبر سنة ١٨٠٧م).
(٢٧) محمد أديب غالب: المرجع السابق ص١٤٥ عن أخبار الجبرتي في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٢٨هـ (٢٥ يونية سنة ١٨١٣م).

منطقة الحجاز التي اضطر للسفر إليها وقام بطرد الشريف غالب الذي ساند قواته وساعدها على دخول الحجاز[٢٨]، كما أن قادة الدعوة السلفية السعوديين قد عرضوا عليه الصلح، لكن محمد علي وضع شروطاً صعبة التحقيق لقبول الصلح وكذلك ضمن رده على طلب الصلح تهديداً يرويه لنا الجبرتي فيقول: «وأما الصلح فلا نأباه بشروط وهو أن يدفع لنا كل ما صرفناه على العساكر من أول ابتداء الحرب إلى وقت تاريخه، وأن يأتي بكل ما أخذه واستلمه من الجواهر والذخائر التي كانت بالحجرة الشريفة، وكذلك ثمن ما استهلك منها وأن يأتي بعد ذلك ويتلاقى معي وأتعاهد معه ويتم صلحنا بعد ذلك وإن أبى ذلك ولم يأت... فنحن ذاهبون إليه»[٢٩].

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الحرب لم تكن بين قوات يدين طرفاها بالإسلام، كما لم تكن حرباً عربية عربية كما يحاول البعض أن يصفها[٣٠]، بل إن هذه الحرب كانت بين قوة إسلامية ليست لها أية أطماع سياسية ولكنها أبدت غيرة وحرصا على العودة إلى المبادىء الأساسية للدين الإسلامي وهي القوة السعودية، كما أبدت حماساً شديداً في دفع خطر المستعمرين «الكفار» عن الديار الإسلامية، أما القوة التي حاربتها والمرسلة من قبل والي مصر - والتي لم تكن مصرية بأي صورة من الصور - فأغلبها من الأرناؤود وبعض الأتراك والنصارى وبعض

---

(٢٨) ويقال ان السبب في طرد الشريف غالب يرجع إلى عدم تعاونه من قبل مع أحد البريطانيين بشأن عقد اتفاقية تجارية، كما أنه كان يعتقد أن الهدف من الحملة هو العودة للعثمانيين ولهذا كان استمراره معوقا للبريطانيين ومحمد علي، د. سليمان الغنام: ص٣١.

(٢٩) الجبرتي: عجائب الآثار، أخبار يوم آخر العقدة سنة ١٢٢٨ هـ (النصف الثاني من نوفمبر سنة ١٨١٣م)، أديب غالب ص١٤٩.

(٣٠) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص ٣٠٩.

الضباط الفرنسيين[٣١]، ولا يحمل أغلب قادتها من الإسلام سوى الإسم، ويصور لنا المؤرخ الجبرتي طبيعة هذه القوة من خلال تعليق من وصفه بالصلاح والورع، وهو شاهد عيان، على هزيمة هذه القوات في البداية أمام أتباع الدعوة السلفية فيقول: «أين لنا النصر.. وأكثر عساكرنا على غير الملة!، وفيهم من لا يتدين بدين، ولا ينتحل مذهبا، وصحبتنا صناديق المسكرات ولا يسمع في عرضينا آذان ولا تقام به فريضة، لا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين. والقوم (يقصد الوهابيون) إذا دخل الوقت أذن المؤذنون وينتظمون صفوفا خلف إمام واحد بخشوع وخضوع، وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائم، أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف فتتقدم طائفة الحرب وتتأخر الأخرى للصلاة... وعسكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته. وينادون في معسكرهم هلموا إلى حرب المشركين، المحلقين الذقون المستبيحين الزنا واللواط الشاربين الخمور، وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر فوجدوهم غلفا غير مختونين، ولما وصلوا بدرا واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف وبها خيار الناس وبها أهل العلم الصلحاء نهبوهم وأخذوا «نساؤهم» وبناتهم وأولادهم وكتبهم»[٣٢].

وإذا كان «محمد علي» قد وجد غطاء لهذه المرحلة من الحرب ضد هذه القوة الإسلامية والتي انتهت باستيلائه على الحجاز وهو الغطاء العثماني، فإن إعلان السلطان العثماني لاكتفائه بعودة الحرمين الشريفين، إلى جانب طلب الوهابيين للصلح وفرضه لشروط لا يستطيع السعوديون

---

(٣١) د. محمد أنيس: الدولة العثمانية ص٢٣٣.

(٣٢) الجبرتي: عجائب الآثار - ١٠ محرم سنة ١٢٢٧هـ (٢٥ يناير سنة ١٨١٢م)، نقلا عن: محمد أديب غالب: المرجع السابق ص١٣٤، ١٣٥. ويلاحظ أننا لم نغير في حديث الجبرتي ونقلناه بأخطائه النحوية.

الوفاء بها ثم يلحقها بتهديد واضح، كلا العاملين قد أسهما في توضيح طبيعة الدور الذي كان يقوم به محمد علي، فمهاجمة الدرعية لم تكن مطلبا ملحا أو ضروريا للدولة العثمانية، بل إن ظهوره بمظهر المطيع لأوامر السلطان العثماني في المرحلة الأولى من الحرب كان ستارا لحقيقة أهدافه بعد أن أكد من قبل عدم حرصه على هذه الطاعة، ومن هنا فإن الهدف الحقيقي من هذه الحرب في كل مراحلها كان لخدمة أطماعه التوسعية في إطار تسمح به أهداف السياسة البريطانية في المنطقة، بعد أن أصبحت الدولة السعودية تشكل خطراً بالغاً على الوجود البريطاني في المنطقة بأسرها سواء في البحر الأحمر أم في الخليج العربي أم في وصولها إلى الطريق البري عبر العراق، وأصبحت بريطانيا تحس بتهديد حقيقي لمصالحها في الشرق، ولهذا فإن وصف هذه الحملة بأنها حملة صليبية في ثوب إسلامي يعد وصفا حقيقيا[٣٣].

وإذا كان العثمانيون قد أثاروا غضب وعداء الدولة السعودية بقتلهم للأمير عبد الله بن سعود الذي أسره محمد علي وأرسله إلى السلطان إلا أن ذلك لم يسهم في ظهور أي نعرة قومية تشعل الروح العربية وتبدي الكره للترك لدى السعوديين الذين ظلوا على تمسكهم بالإسلام، وانحصر الأثر لهذه الواقعة وغيرها في الإطار السياسي.

محمد علي وضرب القوى الإسلامية في الشام:

حققت السياسة البريطانية نجاحا في دفع «محمد علي» للاشتراك في ضرب الثورة اليونانية تحت غطاء مساندة السلطان العثماني في حين كان الهدف الأساسي منها هو الوقوف أمام النفوذ الروسي ومنعه من التسرب إلى سواحل البحر المتوسط من خلال مساندة الروس للثورة اليونانية،

---

(٣٣) د. سليمان الغنام: المرجع السابق ص ١٥.

وانتهى الموقف بعقد اتفاقية بين بريطانيا وروسيا سنة ١٨٢٦م تقضي بألا يكون للروس نفوذ أو قاعدة على البلاد الواقعة على البحر المتوسط[٣٤]، واستطاع الروس أن يعوضوا ذلك بمكاسب هائلة تمثلت في زيادة نفوذهم في الدولة العثمانية إلى درجة كبيرة أقرت بها الدولة العثمانية في معاهدة أدرنة سنة ١٨٢٩م كنتيجة لهزيمتها أمام القوات الروسية[٣٥].

ومع أن هذا الوضع الذي أصبحت عليه روسيا في الدولة العثمانية قد أثار قلق البريطانيين، والفرنسيين بالتبعية، إلا أن بريطانيا لم تكن تريد أن تتخذ موقفا إيجابيا مباشرا حيث كانت تدرك أن إعلانها الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية ضد الأطماع الروسية سيكون لصالح روسيا في هذه الظروف[٣٦].

واتجهت أنظار البريطانيين، والفرنسيين أيضاً، إلى قيام « محمد علي » مرة أخرى بالتصدي للنفوذ الروسي المتزايد بتوجيه جيشه إلى الشام ثم الأناضول وتحت نفس الغطاء وهو الوقوف إلى جانب دولة الخلافة، وقد لقي هذا الأمر استجابة - بل ترحيبا - من جانب « محمد علي » سواء لكونه كان ما زال يأمل في تحقيق أطماعه التوسعية، وأن الشام قد تسمح له بها السياسة البريطانية نظير دوره السابق معها، أم سعيا منه لتنفيذ أهداف أصدقائه البريطانيين.

ومما يدعم وجهة النظر هذه أن البريطانيين قد عارضوا بشدة شروع « محمد علي » في تنفيذ العرض الفرنسي بغزوه الجزائر لحسابهم قبل

---

(٣٤) د. سليمان الغنام: المرجع السابق ص ٧٠، ٧١.

(٣٥) المرجع السابق ص ٨٠.

(٣٦) المرجع السابق ص ٩٢.

هجومه على الشام بعام واحد، وهددوه بالهجوم على أسطوله وجيشه إذا هو أقدم على مثل هذه العملية الأمر الذي دعاه إلى التراجع عن التنفيذ على الرغم من أنه كان قد عقد اتفاقية بهذا الخصوص مع الفرنسيين، وهو أمر يدعو للقول - بل الجزم - بأنه ما كان له أن يشرع في توجيه جيشه إلى الشام بدون موافقة بريطانيا، ومن هنا يمكن إدراك السبب الحقيقي لاتجاه محمد علي للشام والذي يتمثل في الوقوف أمام النفوذ الروسي داخل الدولة العثمانية. على أن بريطانيا لم تشأ أن تعلن عن اتفاقها مع والي مصر حتى لا يكون في ذلك إقرار منها بتقسيم الدولة العثمانية فتتخذ منه روسيا ذريعة لمزيد من التدخل الذي قد يجر إلى حرب ومواجهة[٣٦]، كما أنها - أي بريطانيا - كانت ترى أن الدولة العثمانية، وليس والي مصر - التي ينبغي أن تظل حاجزا أمام التوغل الروسي صوب البحر المتوسط[٣٧].

وعلى أية حال فقد حاول «محمد علي» أن يخفي حقيقة دوره وأن يتذرع بأسباب سطحية يبرر بها أمام الباب العالي هجومه على بلاد الشام مثل إيواء «عبدالله باشا» والي عكا لستة آلاف من المصريين الفارين هربا من التجنيد في جيش «محمد علي» خلال سنة ١٨٣١م فقط ورفضه إعادتهم، وكذلك قيام «عبدالله باشا» بعمليات ابتزاز للتجار التابعين للباشا. وكتب «محمد علي» إلى الباب العالي يبلغه بقيامه بمهاجمة «عبدالله باشا» لهذا السبب، ورد عليه الصدر الأعظم بما يفيد إدراكه لحقيقة أهدافه ولكن في نفس الوقت تضمن رد الصدر الأعظم ما يشير إلى مدى الضعف الذي كانت عليه الدولة العلية وعدم قدرتها على التصدي لمحمد علي فقال: «إن شكوى بعض التجار لا يمكن أن تسوغ

---

(٣٧) د. محمد عبد الرحمن برج: دراسات في تاريخ العرب الحديث ص ٤٣.

تحكيم الحسام وإشعال النار والحرب، وأن ما ينشب من نزاع بين الباشوات المتجاورين لا يمكن أن يسوى بإشهار السيف بل بتدخل الباب العالي »[٣٨].

ولم تكن مثل هذه الخطابات لتؤثر على ما عزم عليه « محمد علي » - أو دفع له- من احتلال الشام، فزحف جيشه وعلى رأسه ابنه « إبراهيم باشا » قبل أن يصله رد الصدر الأعظم، وعاونه « بشير الشهابي الثاني » الذي كان يعيش في كنف محمد علي منذ طرده من لبنان. ومع أن مساندة « بشير الشهابي » لجيش « إبراهيم باشا » كانت سببا في ثورة الدروز بزعامة أسرة جنبلاط التي تولت الزعامة بعد خروج الشهابيين إلا أن وقوف الموارنة « المسيحيين » ضدهم لم تكن دوافعه هي مساندة الأمير بشير فقط بل يرجع في حقيقة الأمر الى الدور الفرنسي الذي دعاهم لتأييد جيش « إبراهيم باشا »، وأمدوهم بالسلاح مما أدى إلى هروب بعض الزعامات الدرزية وانضمامهم إلى الجيش العثماني الزاحف للاقاة جيش والي مصر[٣٩]. ومن الأمور التي تؤكد ذلك إعلان نصارى بلاد الشام، إلى جانب الموارنة، بأن « إبراهيم باشا » صديق لهم، وأبدوا استعدادا تاما لمساعدته، كما أن « إبراهيم باشا » قد ألغى كافة القيود المفروضة على النصارى واليهود فقط في كل بلد سيطر عليه تحت دعوى المساواة والحرية[٤٠]، وهي أمور تشير إلى تأثير المحفل الماسوني عليه ودور هذا المحفل - التابع لفرنسا - في دعم أطماعه وأبيه[٤١].

---

(٣٨) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص ٣٤٦.

(٣٩) د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص٤٨.

(٤٠) د. محمد عبد العزيز: المرجع السابق ص٣٤٦.

(٤١) أحمد فهد الشوابكة: الجامعة الإسلامية ص ١٠١، ومما أعطاه إبراهيم باشا من امتيازات للنصارى فتح محلات علنية لبيع الخمور في دمشق والسماح بحمل الصلبان وشرب الخمر في الشارع.

وعلى الرغم من أن جيش «إبراهيم باشا» قد تمكن من هزيمة الجيش العثماني واستطاع أن يستكمل سيطرته على الشام إلا أن العثمانيين، ومعهم الإنجليز الذين خشوا زيادة النفوذ الفرنسي، قد تمكنوا من إثارة الأهالي ضد إبراهيم باشا مستغلين العديد من العوامل سواء أكانت عوامل دينية، بعد أن ضيق «إبراهيم باشا» الخناق على المسلمين في حين منح حريات واسعة للنصارى واليهود، أم عوامل سياسية اقتصادية بدت في حرص الإقطاعيين على أوضاعهم ومصالحهم بعد الإجراءات التي اتخذها «إبراهيم باشا» للتقليل من دور هذه الأوضاع وضرب هذه المصالح، وانتهى الأمر بعقد اتفاقية لندن سنة ١٨٤٠م التي حددت الوجود المصري - لوالي مصر - في الشام بحياة «محمد علي»[٤٢].

ولم يكن هدف «محمد علي» من القضاء على النظام الإقطاعي في الشام هو إتاحة الفرصة لنمو النظام الرأسمالي وما يصحبه من نمو الأفكار القومية لكن هدفه كان قاصراً على القضاء على الزعامات الإقطاعية المعارضة لوجوده واستمرار حكمه وحرمانها من مصادر قوتها وهي ثروتها، في حين كان الفرنسيون يقصدون من وراء مساعدتهم له في هذا الاتجاه توسيع السوق التجارية لهم اقتصادياً وزيادة نفوذهم سياسياً إلى جانب تحقيق أهدافهم الفكرية الرامية إلى إشعال الدعوة إلى القومية التي تنمو في ظل سوق اقتصادي موحد في المجتمع الرأسمالي وفي إطار علماني، وهي أهداف لا يمكن تحقيقها في ظل سيادة النظام الاقطاعي لكونه «يتحكم في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية وبالتالي

---

(٤٢) انضمت فرنسا إلى جانب بريطانيا والدولة العثمانية في الضغط على محمد علي لقبول شروط الاتفاقية بعد أن هاجمت روسيا الدولة العثمانية. وكانت بريطانيا تهدف في إثارة القوى الداخلية ضد جيش إبراهيم عدم إتاحة الفرصة لاستقرار الوجود المصري.

يحول دون ظهور الحركات القومية، فالإقطاع من شأنه تفتيت المجتمع إلى وحدات منعزلة أو شبه منعزلة فكرياً واجتماعياً واقتصادياً ويحول دون الانسجام التام والتمازج بين أجزاء المجتمع ويحول دون نمو مقومات التوحيد الموجودة كاللغة والتاريخ وقد يضعف منها ويقيم في وجهها العقبات ويحرمها من النمو والازدهار »[٤٣].

ومع أن مراحل احتلال قوات « محمد علي » للشام قد أكدت اتجاهه المعادي للمسلمين والمساند للنصارى واليهود، وكذلك ما أحدثه من تقسيمات إدارية جديدة لصالحهم، إلا أن سياسته العدائية ضد الاتجاه الإسلامي في الشام والتي تركت أثراً بعيد المدى على الحركة الفكرية والثقافية قد تجلت في الناحية التعليمية.

وقد يبدو الهجوم على نشر التعليم والتوسع فيه، وهو ما قام به « إبراهيم باشا » في الشام، أمراً مذموماً ورجعياً ومتخلفاً، لكن الأسلوب الذي تمت به هذه السياسة كان أسلوباً مغرضاً قصد به هدم التعليم القائم على الدين الإسلامي من جهة، وأنه لم يتح الفرصة لأتباع الاتجاه الإسلامي أو يسمح لهم بفرصة كالتي سمح بها للنصارى واليهود في القيام بدورهم - المغرض - في مجال التعليم من جهة أخرى، وقد أدى هذا إلى أن تصور البعض أن هذه الأقليات التابعة للغرب هي التي حملت لواء التعليم في هذه الفترة، كما أن ذلك يوحي بأن الذين تعرضوا للاضطهاد هم المسلمون وليس غيرهم كما يرى البعض[٤٤].

وعلى عكس ما يرى البعض أيضاً فقد سلك العثمانيون مسلكاً عادلاً

---

(٤٣) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ٢٦٢.

(٤٤) ذكر بعض كتّاب التاريخ أن المبشرين هم الذين كانوا يعانون من الاضطهاد، انظر د. عبد الرحيم عبد الرحمن: دراسات في تاريخ العرب ص١١٢.

مع غير المسلمين من الأقليات الطائفية وبخاصة في بلاد الشام، فقد سمح الحكم العثماني بوجود بعض البعثات التبشيرية الفرنسية منذ مطلع القرن السابع عشر، وأتاح لها فرصة إقامة عدد من المدارس والمعاهد في أماكن متفرقة، لكنه حدد مجال عملها في إطار رعاية الطوائف المسيحية دون غيرها، كما سمح بعدد قليل من البعثات الأمريكية لكنه حصر جهودها داخل بيروت فقط[٤٥].

وبقدر ما كان «محمد علي» وابنه «إبراهيم» منفذين للأهداف البريطانية على الصعيد السياسي كانا منفذين كذلك للأهداف الفرنسية على الصعيد الثقافي في بلاد الشام، سواء لتأثير المحافل الماسونية الفرنسية عليهما أم تحقيقاً لأطماع «محمد علي» التوسعية في الشام التي تؤيدها فرنسا بعد أن أبدت بريطانيا معارضتها في ذلك. فما إن نجحت قوات «إبراهيم باشا» من السيطرة على بلاد الشام سنة ١٨٣٣م إلا وبدأ في تنفيذ الأهداف الفرنسية، ففتح «إبراهيم باشا» الباب على مصراعيه لدخول البعثات التبشيرية الفرنسية والأمريكية، وألغى كافة القوانين الاستثنائية وجميع ما كان يسري على النصارى وحدهم، ويعتبر بعض الكتّاب أن عام ١٨٣٤م عام تحول تاريخي حيث عاد اليسوعيون، وتوسعت البعثات الأمريكية، وتم نقل مطبعة الإرسالية الأمريكية من مالطة إلى بيروت، وأسست مدرسة للبنات في بيروت على يد «إيلي سميث» وزوجته[٤٦]، وزودت بعض الأديرة بمطابع أخرى في إطار حرص الدول الأوروبية على حصر المطابع في يد المسيحيين فقط[٤٧]،

---

(٤٥) جورج أنطونيوس: يقظة العرب ص ٩٧.

(٤٦) جورج أنطونيوس: المرجع السابق ص ٩٧، د. عبد الرحيم عبد الرحمن: المرجع السابق ص١١٢.

(٤٧) جورج أنطونيوس: المرجع السابق ص ١٠٠، ١٠١.

حتى تتمكن من تحقيق أهدافها في ظل عجز المسلمين عن امتلاك وسيلة التعبير عن آرائهم أو نشر أفكارهم في هذا المجال[٤٨].

ويذكر «جورج أنطونيوس» أن دخول «إبراهيم باشا» إلى الشام يعد نقطة انطلاق لدور المبشرين، وأنه لولا تأييده لهم «لبقيت عقولهم مشلولة وأفكارهم آسنة»، فقد تمكنت كلية «عين طورة» التي أعيد افتتاحها - والتي ما زالت قائمة حتى الآن - من القيام بدور كبير في تكوين كوادر من الكتّاب والمفكرين. وفي نفس الوقت طبق سياسة تعليمية بين المسلمين كان الهدف منها إيقاظ الوعي القومي بينهم، واستدعى أحد الفرنسيين من مصر وهو «كلوت بك»[٤٩] ليشرف على تطبيق هذه السياسة بعد أن اكتسب خبرة تطبيقها في مصر، ووضع تحت يده مطبعة كاملة لنشر الكتب العربية لتعينه في تحقيق هدفه، وتمكن بكل هذه الأساليب - تشاركه الإرساليات التبشيرية ورجال الكهنوت في الأديرة من أن يقلب أساليب التربية والتعليم في مدى سنوات قليلة، ويحقق أهداف المحافل الماسونية الفرنسية على حساب الاتجاه الإسلامي الذي ظل سائداً طوال الحكم العثماني، وقد أرجع «جورج أنطونيوس» ثورة المسلمين على هذه السياسة المعادية لهم من كل جوانبها إلى تعصبهم وجهلهم بمعاني الوطنية[٥٠].

---

(٤٨) عن دور بعض هذه المدارس في إثارة الطائفية والولاءات المتعارضة انظر: د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص٤١٧.

(٤٩) أطلق اسم «كلوت بك» على أحد شوارع القاهرة، وتركز في هذا الشارع وجود دور البغاء الرسمية في مصر التي أنشأها الاحتلال البريطاني. وما زال هذا الشارع يحمل نفس الاسم حتى الآن كرمز للدلالة على الآثار الأخلاقية للأوروبيين في مصر.

(٥٠) جورج أنطونيوس: المرجع السابق ص٩٥، ١٠٢، ١٠٣ وذكر أحد الكتّاب أن دافع رجال الكهنوت المحليين في هذه السياسة هو حفظ الذات وحب الخير، انظر: د. عبدالرحيم عبدالرحمن: المرجع السابق ص١١٣.

وبشكل عام فقد ترتب على دور محمد علي في المنطقة بأسرها أن تنبهت الدول الأوروبية إلى مدى الضعف الذي أصبحت عليه الدولة العثمانية، وبالتالي استعدادها لتقسيم أراضيها حينما تتهيأ الظروف السياسية، واتجهت العديد من الآراء في أوروبا للدعوة لسرعة حدوث هذا التقسيم، ولم يكن جانب التوسع وحده هو الدافع وراء هذه الدعوة بل كان جانب العداء للإسلام والشعوب الإسلامية من العوامل البارزة وراءها، وهو أمر تؤكده الاتصالات الدبلوماسية في أوروبا في هذه الفترة. فقد أرسل «شاتوبريان» رئيس وزراء فرنسا رسالة عن طريق سفيره في روما إلى قيصر روسيا للتفاهم حول تقسيم المقاطعة العثمانية الأوروبية قال فيها: «إذا أردتم - أي القيصر - الذهاب إلى القسطنطينية فقوموا مع الدول المسيحية بتقسيم عادل لتركية الأوروبية، أما الدول التي ليست في موقع يسمح لها بالتوسع جهة الشرق فتحصل على تعويضات في مناطق أخرى»، كما وقعت انجلترا مع روسيا بروتوكول في سان بطرسبرج سنة ١٨٢٥م قبل الطرفان بمقتضاه مبدأ التدخل الأوروبي في الإمبراطورية العثمانية(٥١).

وفي أعقاب هزيمة الجيوش العثمانية أمام جيش «محمد علي» في الشام والأناضول اضطرت الدول العثمانية للاستنجاد بروسيا بعد أن لمست أن «محمد علي» يحظى بتأييد البريطانيين والفرنسيين، وعقدت معاهدة «انكيار اسكله سي» سنة ١٨٣٣م في أعقاب هدنة كوتاهية، وكانت المعاهدة بمثابة تحالف دفاعي بين روسيا والعثمانيين، مما أدى إلى مسارعة كل من بريطانيا وفرنسا بالتصدي لمحمد علي خشية المزيد من التدخل الروسي، وفرضت عليه اتفاقية لندن سنة ١٨٤٠م(٥٢). وقد ترتب على

(٥١) د. زكريا سليمان: التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين ص١٧.
(٥٢) جورج أنطونيوس: المرجع السابق ص٩٢، بيير رنوفان: تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٧-١٩١٤م، د. جلال يحيى ص١٣١.

هذه الأحداث إجهاض محاولة الإصلاح الجادة التي حاول السلطان « محمود الثاني » أن يقوم بها في الدولة العثمانية والتي كانت تتم في إطار إسلامي[٥٣]، مع فتح الباب للاستفادة من الأساليب الأوروبية الحديثة، واضطرت الدولة العثمانية لقبول وصاية الدول الأوروبية في مقابل حمايتها من أطماع « محمد علي »[٥٤].

ولعل في توضيح أبعاد الدور الذي لعبه « محمد علي » ما ينفي ما يحاول البعض أن يسنده إليه وهو محاولة إقامة دولة - أو وحدة - عربية، فقد نفى أغلب المؤرخين وجود أي تفكير عربي لدى « محمد علي » لكونه من أصل ألباني ولا يعرف العربية[٥٥]، كما أجمع كثيرون من المؤرخين على غياب الوعي القومي في هذه الفترة[٥٦]، بل إن أحد المؤرخين قد ذكر بوضوح أن محمد علي « لم يكن صادقا في عواطفه نحو العرب ولم يكن يتحدث لغتهم، كما أنه كان يستهين بمواهبهم وخصائصهم، وكان يرمي إلى أن يكون صحبه من الأتراك والألبان هم عماد السلطة وصرح الحكم في إمبراطوريته المقبلة وأن يكون العرب هم الرعية »[٥٧].

بل إنه بدور العمالة الذي لعبه لصالح الأوروبيين وضد مصالح شعوب المنطقة قد حطم محاولة جادة لوحدة الشعوب الإسلامية من الأناضول إلى بحر العرب ومن الخليج العربي إلى البحر الأحمر التي

---

(٥٣) د. سليمان الغنام: المرجع السابق ص١٦، د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص٢٦٦.

(٥٤) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ص٢٠.

(٥٥) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص٢٦٥.

(٥٦) جورج أنطونيوس: المرجع السابق ص٩٣.

(٥٧) المرجع السابق ص٨٩.

كادت أن تتحقق على يد الدولة السعودية الأولى[٥٨]، بل ربما كانت قد توافقت مع محاولة الإصلاح الإسلامية العثمانية وكان في ذلك إحياء قوة الخلافة الإسلامية، وهي حقيقة لا يروق للمؤرخين العلمانيين والماركسيين وغير المسلمين ذكرها أو طرحها كبديل لما يطرحونه حول «محمد علي» لما توحي به من أفكار إسلامية حول الماضي والحاضر والمستقبل.

وهكذا استطاع «محمد علي» أن يقوم بما لم يستطع الاستعمار الغربي أن يقوم به بشكل مباشر في العمل على تحطيم الهوية الإسلامية التي كانت أساسا في صمود الشرق الإسلامي ضد الموجات المعادية عبر مراحل تاريخية طويلة، وتسبب نتيجة لذلك في توسيع الهوية الحضارية بين الشرق والغرب، وهيأ المناخ اللازم لإقامة المؤسسات المعادية للدين الإسلامي وللمسلمين من محافل ماسونية وإرساليات تبشيرية وأديرة وكنائس ومدارس نجحت في بذر بذور القومية، وبث الأفكار المعادية لمصالح المسلمين، وإتاحة الفرصة لشركات تجارية أوروبية تتحكم في الاقتصاد، ومنح امتيازات واسعة للأوروبيين، وهي أمور لم تكن تمثل مصالح شعوب المنطقة أو تعبر عن رغباتها، وتنافست مع سياسة الاحتكار والظلم التي مارسها في ضياع موارد شعوب المنطقة دون أن يجني أبناؤها أية فائدة. وأسهم كل هذا في تهيئة المنطقة بأكملها لمرحلة استعمارية، وما زالت المنقطة تعاني من آثار تلك السياسة حتى تاريخنا المعاصر.

---

(٥٨)د. سليمان الغنام: المرجع السابق ص١٢٤.

الفصل التاسع

المخطط الماسوني الصليبي
وانتشار الفكرة القومية في العالم الإسلامي

- المحافل الماسونية في عاصمة الخلافة العثمانية
- انتماء الجمعيات القومية التركية إلى المحافل الماسونية
- الفكرة القومية في تركيا وتطورها
- التحالف الماسوني الصليبي والقومية العربية

المخطط الماسوني الصليبي
وانتشار الفكرة القومية في العالم الإسلامي

من الأمور التي تدعو للغرابة اتجاه الباحثين إلى دراسة انتشار الفكرة القومية في البلاد الإسلامية في ظل تجزئة للأجناس الإسلامية، حيث ان ذلك أمر يدعم مسبقاً الاتجاه إلى تعميق هذه الفكرة حتى قبل أن توجد أو تصبح ذات ملامح بارزة لها تأثيرها في الميدان الثقافي ثم الميدان السياسي وهو أمر لم يكن وارداً حين رصد هذه الفكرة، كأن تدرس القومية التركية أو العربية كل على حدة في وقت لم تبرز فيه الخصائص المميزة أو التحديد الدقيق لمن هو تركي أو من هو عربي، وبخاصة بعد مرور فترة تاريخية امتزج فيها الجانبان، ولم يكن أي منهما يستطيع أن يحدد هويته بشكل واضح برغم مكان ميلاده، فالرصيد الثقافي بينهم كان رصيدا واحداً، وعدم وجود قيود على حرية التنقل والاستقرار أدى إلى اختلاط شديد بين كافة رعايا الدولة. وابتعد بهذا المؤرخون العلمانيون عن الصواب والموضوعية في تحديد أبعاد الحركة التاريخية وبخاصة أنهم قد اتبعوا منهج دراسة التاريخ من منظور الصفوة والمشاهير الذي جعلهم تابعين لكارليل وتويني، وبعد بهم عن تصوير حقيقة الاتجاهات الشعبية وتحديد أهدافها وميولها وحياتها، فبدأ التاريخ على أيدي هذه المدرسة مزوراً وملفقاً.

وحتى إيران التي أسهم اعتناقها للمذهب الشيعي وصراعها السياسي

مع الجزء السني من العالم الإسلامي بقيادة العثمانيين في أن تبرز فيها ملامح قومية مبكرة فإنها ظلت - وما زالت - تحتفظ بجسور دينية وثقافية بالعالم الإسلامي في شرقها وغربها لم تكن تجعل عودة التصاقها بهذا العالم أمراً مستحيلاً على الأقل في نظر المجتمع الغربي، وهو أمر يفسر أسباب حرص المؤرخين الغربيين - والمؤرخين العلمانيين في بلادنا بالتبعية - على تعميق الجذور القومية في إيران كجزء من مخططهم في العالم الإسلامي كله حتى يحققوا أهدافهم في فصل القوى الرئيسية في العالم الإسلامي (إيران - تركيا - العرب) كمرحلة أولى، ثم إثارة الفتن الطائفية والعرقية من خلال الأقليات وكذلك القوميات المحلية المحددة كمرحلة ثانية.

ومع أن العداء بين الكنيسة الأوروبية والشرق الإسلامي يعود إلى جذور تاريخية قديمة إلا أن المحافل الماسونية التي تدعم موقفها في فرنسا بالذات بعد قيام ثورتها كانت أسبق من الكنيسة في القيام بهذا الدور، وإن كانت قد استعانت بجهود الكنيسة في إثارة الأقليات المسيحية في الشرق الإسلامي واستغلاله على طريق هدفها في تمزيق الدولة الإسلامية. ففي باريس كانت المحافل الماسونية التي كانت وراء حركة الترجمة الواسعة للعديد من الكتب الفرنسية المعدة لتحقيق الهدف إعداداً جيداً ومسبقاً ومخططاً إلى اللغات التركية والعربية والفارسية، وفي باريس كانت جمعيات الدعوة إلى القومية العربية والتركية على السواء. ولم تستطع فرنسا أن تتخفى طويلا في مساندتها لهذه الاتجاهات تحت قناع الحرية ومساندة دعاتها حيث خرجت حملتها بقيادة نابليون بونابرت إلى مصر، وتابعتها بحملة احتلت على أثرها الجزائر، في حين وقفت مدافعة عن استقلال أقاليم البلقان، وأكدت بهذا، وبعديد من المواقف المشابهة، أن الحرية المنشودة قاصرة على الشعوب الأوروبية، وأن العداء الشديد موجه للشعوب الإسلامية.

المحافل الماسونية في عاصمة الخلافة العثمانية:

تعود نشأة المحافل الماسونية في الدولة العثمانية إلى نهاية القرن الثامن عشر، في عهد السلطان سليم الثالث، وقد بدا ذلك من خلال احتفال الجالية الفرنسية في العاصمة العثمانية بذكرى الثورة الفرنسية سنة ١٧٩٣م حيث تليت وثيقة حقوق الإنسان، وشرب المحتفلون «الخمور نخب الجمهورية الفرنسية ونخب السلطان سليم الثالث أيضاً ونخب أصدقاء الحرية والأخوة العالمية». ومع أن هذه الأفكار لم تؤثر في البداية في المجتمع العثماني المسلم إلا أن ابتعاد هذه الأفكار عن الارتباط بالدين المسيحي قد سمح لها بفتح قنوات ثقافية وسط بعض المثقفين من المسلمين الذين بهروا بشعارها (حرية ومساواة وإخاء) وهي شعارات الحركة الماسونية[١].

ويبدو أن مثل هذه الأفكار قد أخذت في طريقها السلطان العثماني سليم الثالث نفسه، فقد وطد صلته بالأوروبيين، وبخاصة الفرنسيين، فاستقى العديد من المعلومات السياسية وغيرها من قادة فرنسيين كي تعينه على تطبيق خطته الإصلاحية، واعتقد أن فرنسا هي أرقى دول الفرنجة[٢]. وقد تولى سليم السلطنة في نفس العام الذي قامت فيه الثورة الفرنسية (١٧٨٩م) ورأى مصير لويس السادس عشر الذي ظل يراسله مدة طويلة.

ولم يكن هذا دافعه إلى الإصلاح فقط حتى يتقي مثل هذه النهاية بل إن أحوال الإمبراطورية العثمانية التي كانت تسير في طريق التدهور، وتوصية والده بضرورة إصلاحها، كلها كانت دوافع أقنعته، وهو في سن الشباب، على ضرورة السير في اتجاه الإصلاح.

---

(١) برنارد لويس: الغرب والشرق الأوسط ص ٦٩.

(٢) د. أحمد عبد الرحيم: في أصول التاريخ العثماني ص ١٧٤.

ويذكر الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى أن الثورة الفرنسية قد وفرت، من خلال حملة نابليون بونابرت على مصر، نموذجاً فرنسياً للاقتباس عن الغرب، وهو - في رأينا - النموذج - الماسوني - الذي اتبعه محمد علي، «كما أن تقلبات الثورة الفرنسية جعلت الآستانه تغص بعدد كبير من الفرنسيين الذين نشروا أفكاراً جديدة عن الحرية، وقدموا المساعدة العسكرية للعثمانيين، ورغم تذبذب النفوذ الفرنسي صعوداً وهبوطا، إلا أن أفكاراً غير تقليدية أخذت تنتشر لدى بعض شباب العثمانيين. بل في الباب العالي والقصر»[٣]، ولم تكن هذه الأفكار إلا الحركة الماسونية التي بدأت توطد أقدامها في عاصمة الخلافة الإسلامية.

وعرفت هذه الأفكار الخبيثة، من خلال الحكام الذين وقعوا فريسة لها وهم سليم الثالث في الآستانة ومحمد علي في مصر وعثمان باشا في البلقان، طريقها إلى الانتشار من خلال حركة ترجمة واسعة كانت في بدايتها حكومية الطابع، وقد نقلت العديد من الكتب الفرنسية إلى العربية والتركية، وأسهمت في خلق جيل جديد من المثقفين في العالم الإسلامي يتبنى أفكارها ويروج لها، ويعتبرونها الأساس الذي لا بديل عنه إلى الإصلاح والتقدم. وزاد من حجم وكيف هذا الاتجاه البعثات العلمية التي أرسلها هؤلاء الحكام إلى فرنسا حيث عاد المبتعثون متشبعين بالاتجاه العلماني المقترن بالدعوة إلى القومية[٤].

وقد توارت - إلى حد ما - الحركة الماسونية في تركيا في بداية عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) وذلك بسبب الثورات

---

(٣) د. أحمد عبد الرحيم: ص ١٧٥، ١٧٦.

(٤) برنارد لويس: المرجع السابق ص ٥٧.

الدينية التي قامت ضد سليم الثالث ثم قتله، إلا أنها سرعان ما عادت لتمارس نشاطها حيث نجحت في أن تضم العديد من المثقفين والعسكريين والسياسيين الأتراك إلى صفوفها كان من أبرزهم مصطفى رشيد باشا الذي وصل إلى منصب وزير الخارجية في أواخر عهد السلطان محمود الثاني.

وكان مصطفى رشيد سفيراً للدولة العثمانية في لندن وباريس، وتعلم اللغة الفرنسية، وأبدى من خلال ما قرأه بالفرنسية سعيه لمسيرة الإصلاح على نمط غربي علماني ملحد وهو نفس الخط الذي سلكه محمد علي الذي كان رشيد يحبه ويغبطه على حب الأوروبيين له. وكان أول عمل يقوم به في هذا السبيل، وقد ساعده صغر سن السلطان الجديد «عبدالمجيد» حيث لم يكن يتعدى السادسة عشرة عند توليه السلطة، هو «خط شريف جلخانة» الذي يعتبر بمثابة دستور ينظم خطوات الإصلاح المنشود. فلم يكن هذا الدستور مستمداً من الشريعة الإسلامية[٥]، بل سار على هدى كثير من الدساتير الأوروبية وبخاصة الفرنسية التي كانت بعيدة عن معالجة مصالح المسلمين العثمانيين.

وقد استغل رشيد باشا صغر سن السلطان وعدم خبرته، وساعدته الأزمات التي كانت تحيط بالدولة وبخاصة الخارجية، فلم يجد أمام هذه الظروف عناء في إقناع السلطان الشاب بمنهجه الإصلاحي. وحاول أن يستحوذ على رضا السلطان ودعمه، فعقد حفلا أرضى فيه غرور الشباب في الظاهر ولكنه قصد به دعم خططه، فجمع حشداً كبيراً من موظفي الدولة وممثلي الدول الأجنبية وأحاطه بالقوات العسكرية، وسمح لبطريركي الكنيستين اليونانية والأرمنية وكبير حاخامات اليهود بحضور

---

(٥) د. أحمد عبد الرحيم: ص ١٩٩.

الحفل، وقرأ مصطفى رشيد «خط شريف جلخانة» على أنه من السلطان، ثم قدمه إلى الصدر الأعظم وفي حضور شيخ الإسلام، فأقر ذلك «الخط» أو الدستور في هذا الحفل المدبر(٦). وكان أبرز ما تضمنه ذلك الدستور هو الإعلان عن المساواة بين جميع رعايا الدولة وتوفير الإخاء بين الجميع، وهو أمر اعتبره بعض الأوروبيين بمثابة «العهد الأعظم» بالنسبة إلى العثمانيين(٧).

ولم يلق «الخط الشريف» أو الدستور الذي سانده مصطفى رشيد وقلة من المحيطين به، ترحيباً أو تأييداً من الرأي العام العثماني المسلم، فأعلن رجال الدين تكفيرهم لرشيد باشا، واعتبروا الخط الشريف منافياً للقرآن الكريم في مجمله وبخاصة في مساواته المسيحيين بالمسلمين، ورأوا أن ذلك وبغض النظر عن النواحي الدينية سيؤدي إلى إثارة القلاقل بين رعايا السلطان(٨). وكان هذا الهدف بالفعل هو ما خططت له الحركة الماسونية وهو إثارة الشعور القومي لدى الشعوب المسيحية في البلقان، سواء أكان رشيد باشا قد تنبه له أم لا، وذلك على الرغم من انضمام بعض رجال الدين المسيحيين الذين أضيروا بسبب هذا الدستور حيث أضعف من قبضتهم على رعاياهم المسيحيين، إلى الاتجاه الإسلامي المعارض للدستور الجديد.

ومع أن هذه المعارضة لرشيد باشا ودستوره قد نجحت في إقصائه سنة ١٨٤١م إلا أنه عاد بعد أربع سنوات سنة ١٨٤٥م تسانده مجموعة من أعضاء المحافل الماسونية الذين ركزوا على السير في طريق

---

(٦) د. أحمد عبد الرحيم: ص ٢٠٠.

(٧) نقلا عن د. أحمد عبد الرحيم: المرجع السابق ص ٢٠١.

Pears,: Life of Abdul Hamid, P. 2.

(٨) د. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية جـ ١ ص ٩٧.

التحول العلماني، وإفساح المجال لتدعيم الدعوة إلى القومية الطورانية، وتدريب عناصر عسكرية من الولايات تكون قادرة على مساندة هذه الدعوة في الولايات في الوقت المناسب وليكتمل مخطط تمزيق الإمبراطورية الإسلامية، وتم تجنيد عناصر مسيحية ويهودية لهذا الغرض، تحول بعضها إلى الإسلام مثل الكونت قسطنطين بورزيسكي الذي تسمى باسم «مصطفى جلال الدين باشا» وهو مسيحي من أصل بولندي، دخل إلى الدولة العثمانية بعد فشل ثورة سنة ١٨٤٨ م، وانضم إلى المحفل الماسوني، ومارس نشاطاً كبيراً في نشر الفكرة الطورانية(٩).

وهكذا استطاعت المحافل الماسونية من خلال انتشارها في دولة الخلافة الإسلامية أن تبث أفكارها من خلال عناصر مجندة ومدربة تحركها أطماعها الشخصية، وبغض النظر عن إدراكها لحقيقة الدور الذي تلعبه أم لا، أن تسهم في المرحلة الأولى لتمزيق دولة الخلافة الإسلامية، ففي وقت واحد كان دور محمد علي في مصر والمنطقة العربية، وعثمان باشا في البلقان، وإصلاحات تنحو إلى العلمانية يتبناها بعض السلاطين العثمانيين ودعاة الطورانية والتحديث الذين تحولوا من المسيحية واليهودية إلى الإسلام اسما حتى يكتمل المخطط المنشود. وتؤكد بروتوكولات حكماء صهيون هذا المخطط، فقد ورد في البروتوكول الخامس عشر «سنعمل كل ما في وسعنا على منع المؤامرات التي تدبر ضدنا حين نصل إلى السلطة متولين إليها بعدد من الانقلابات السياسية

---

(٩) برنارد لويس: المرجع السابق ص١٢٧.؛ وظهر في عصر السلطان سليم الثالث من هذه العناصر «باسبان أوغلي» النمساوي الأصل الذي اعتنق الإسلام وسمي باسم عثمان باشا، وقاد حركة تحرر في البلقان ضد دولة الخلافة، ولم يكن ملتزماً بما ينسبه إلى الإسلام، وانتهت حركته بموته ١٨٠٧م، وكذلك «انجليز مصطفى» وهو مسيحي إنجليزي دخل الاسلام وقام بتدريب الجيش، د. الشناوي: جـ ١ ص٥٢٢.

المفاجئة التي سننظمها بحيث تحدث في وقت واحد في جميع الأقطار »... «وإلى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة سنحاول أن ننشيء ونضاعف خلايا الماسونية الأحرار في جميع أنحاء العالم »[١٠].

انتماء الجمعيات القومية التركية إلى المحافل الماسونية:

يتفق أغلب المؤرخين على أن ظهور الدعوة إلى القومية التركية يرجع إلى حركة تركيا الفتاة التي تأسست في عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦م) أو قبله بسنوات قليلة[١١]، وقد اتخذت في البداية من باريس ولندن مقراً لها حوالي سنة ١٨٦٠م، ثم انتقلت بعد ذلك إلى جزيرة سالونيك وتسمت باسم الاتحاد والترقي. ويبرر المؤرخون نشأتها خارج تركيا بأنه يرجع إلى استبداد السلاطين دون أن يبحثوا عن الأسباب الحقيقية في ذلك والتي ترجع - في رأينا - إلى انتماءات مؤسسيها وطبيعة مبادئها.

أما عن انتماءات مؤسسيها فيذكر أحد المستشرقين أنهم كانوا «خليطا من الأتراك واليهود وعناصر عثمانية من أجناس أخرى »[١٢]، والحقيقة أن العناصر التركية التي شاركت في هذه الجمعيات كانت في أغلبها من اليهود الذين استوطنوا جزيرة سالونيك بعد خروجهم من الأندلس، ثم تحولوا في أغلبهم إلى الإسلام ظاهريا، وهم من يطلق عليهم إسم يهود الدونمة، وقد استمر ارتباط هذه العناصر باليهود أكثر من

---

(١٠) أبو الغد. محمد عزت محمد عارف: نهاية اليهود ص ١٣١.

(١١) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ٢٤٨. د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص٢٨٦.

(١٢) جورج أنطونيوس: يقظة العرب ص١٧٦.

ارتباطهم بالدولة العثمانية بعد تحولهم إلى الإسلام، وشاركوا العناصر اليهودية في العمل على تحقيق أهدافهم في تمزيق الإمبراطورية العثمانية. ومن الدلائل التي تؤكد هذه الحقيقة ما قاله رئيس دولة إسرائيل «إسحاق بن زفي» في كتاب له بعنوان: «الدونمة» صدر سنة ١٩٥٧م فيذكر: «أن يهوداً كثيرين، وكثيرين جداً يعيشون بين الشعوب بطبيعتين إحداهما ظاهرة وهي اعتناق دين الشعب الذي يعيشون فيه اعتناقا جاعيا وظاهريا، والثانية باطنية وهي إخلاص عميق لليهودية»[١٣]. وفي تعريفه للدونمة ذكر أنها «طائفة مسلمة يهودية لا تزال منذ زعمت الإسلام تعيش في تركيا بوجه مسلم، وهذا ما ساعدها على التداخل في شؤون تركيا السياسية والاقتصادية والتربوية والتوجيه الفكري»[١٤]. ولم تمتزج هذه العناصر بالعناصر الإسلامية سوى من الناحية الظاهرية في حين ظلت تحافظ على استمرار يهوديتها وفقا لتعاليم ثابتة ومتوارثة يحفظونها بينهم ويواصلون الالتزام بها، ويوضح رئيس دولة إسرائيل في مؤلفه هذه التعاليم فيقول: «لا تتزاوجوا إلا فيما بينكم، ولا تأخذوا من عادات الآخرين إلا الظاهر، ينبغي أن نعمي عيونهم عن الحقيقة، ونحافظ على الاسم المزدوج»[١٥]، وكان من أبرز

---

(١٣) د. محمد علي الزغبي: الماسونية في العراء ص٢١٩، محمد صفوت السقا وسعدى أبو حبيب: الماسونية ص١٥٨.

(١٤) د. محمد علي الزغبي: المرجع السابق ص٢١٩؛ د. أحمد عبدالرحيم مصطفى: المرجع السابق ص٢٦٣، حيث يذكر أن يهود الدونمة هم من أبناء اليهود من أتباع المسيح الدجال شبتاي (١٦٣٢-١٦٧٥م) الذين تحولوا معه إلى الإسلام سنة ١٦٦٦م حين أرغمه السلطان على إعلان زيف ادعاءاته بأنه المسيح، وقد حافظوا طويلاً على شخصيتهم باعتبارهم جماعة متميزة، فكانوا لا يتزاوجون مع المسلمين أو مع اليهود، كما مارسوا سراً بعض الطقوس اليهودية.

(١٥) د. محمد الزغبي: المرجع السابق ص٢١٩.

هذه العناصر في الجمعية أنور وطلعت وجمال وجاويد وخالدة أديب ثم مصطفى كمال الذي عرف بعد ذلك بأتاتورك.

أما العنصر الأخير الذي تكونت منه جمعية الاتحاد والترقي فكان من بعض النصارى العرب وبعض المسلمين، وهم جميعا من أعضاء المحافل الماسونية من أمثال خليل غانم وهو عربي مسيحي من بيروت ونائب في مجلس المبعوثان، وأنشأ جريدة أسماها «تركيا الفتاة»، وكذلك «أحمد رضا» الذي أصدر مجلة «المشورة»[١٦].

أما عن أهداف هذه الجمعية فقد تعددت بتعدد عناصر تكوينها، وبالقطع كان هدفها الرئيسي هو تحقيق الأطماع اليهودية التي تشكل العنصر الغالب فيها والذي يتركز في الهجرة إلى فلسطين، ورأت أن ذلك لن يتحقق إلا بالسيطرة على مقاليد الأمور في الحكومة التركية، وهو ما يسميه أحد المستشرقين إقامة حكومة صالحة للدولة على أساس انصهار الأجناس كلها[١٧]، وبشكل يمكنهم من تغيير القوانين التي تعوق تحقيقهم لهذا الهدف، إلى جانب بعض الأهداف التي تسهم في توجيه الدولة إلى الاتجاه العلماني وهي الأهداف التي كان يرمي إليها دستور سنة ١٨٧٦ م الذي أعده مدحت باشا. وحين تنبه السلطان عبدالحميد لأبعاد هذه الجمعية وحقيقة أهدافها المنافية لتمسكه بالاتجاه الإسلامي، واتخذ العديد من التدابير لمحاصرة نشاطها تحولت إلى جمعية سرية[١٨]، واتخذت مقرها سالونيك حيث الأغلبية اليهودية إلى جانب الحماية الأوروبية، ورأت أن كل أهدافها عرضة للتجمد أو الفشل إذا ما

---

(١٦) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص٢٨٦.

(١٧) جورج أنطونيوس: المرجع السابق ص١٧٦.

(١٨) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص٢٨٦.

استمرت هذه السياسة، فجعلت هدفها الرئيسي هو السعي لخلع أو قتل السلطان عبد الحميد، واتهمته بالاستبداد والرجعية، وهي تهم التصقت باسمه وشاعت بين كثيرين من المؤرخين باختلاف منظورهم[١٩]، وتناقلها كثيرون من كتّاب التاريخ - بوعي أو بغير وعي - حتى جعلوها من البديهيات والمسلمات.

ويؤكد بعض المؤرخين صلة الحركة القومية التركية بشكل عام وجمعية الاتحاد والترقي بشكل خاص بالحركة الماسونية، فيذكر الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى أن بعض الشباب العثماني الذي تلقى تعليمه في أوروبا قد أسسوا جمعية «شباب العثمانيين» سنة ١٨٦٥ م والتي «كانت تستلهم أفكار الكاريوناري الإيطاليين، ومن أعضائها نامق كمال والأمير مصطفى فاضل الأخ غير الشقيق للخديوي إسماعيل حاكم مصر[٢٠]، وأن «نامق كمال ورفاقه قد حاولوا نشر أفكارهم عن طريق تربية الرأي العام على نمط ما كان يجري في أوروبا الغربية»[٢١]. وقد وقف هذا الفريق من الشباب ضد السلطان عبد العزيز حين أراد أن يستعيد السلطة بيده ويقوي مركزه مستعينا ببعض المحافظين المسلمين، وساندهم أحد أعضاء المحفل الماسوني وهو مدحت باشا في اتجاههم الرامي إلى إثارة القلاقل ضد السلطان وتعيين ولي العهد الأمير مراد الذي كان هو الآخر منتميا لهذه المحافل[٢٢].

---

(١٩) د. عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص٢٨٦، جورج أنطونيوس: المرجع السابق ص١٧٦ وغيرهما من المؤرخين.

(٢٠) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ص٢٢٧. والكاربوناري أسلوب من أساليب الحركة الماسونية.

(٢١) المرجع السابق ص ٢٢٦.

(٢٢) حسين عمر حمادة: المرجع السابق ص١٠٦، ١٠٨، د. محمد أنيس: المرجع السابق ص٢٤٨ وقد وصف السلطان عبد العزيز بالاستبداد.

وتؤكد الوثائق البريطانية ارتباط جمعية تركيا الفتاة أو الاتحاد والترقي بالمحافل الماسونية، فقد ورد في رسالة السفير البريطاني «جيرارد لاوثر» إلى وزير خارجيته «هاردينغ» في ٢٩ مايو سنة ١٩١٠م أن «عمانوئيل قرة صو وهو يهودي من سالونيكا، ويمثلها في مجلس المبعوثان العثماني، بالتعاون مع الماسونية الإيطالية محفلا في سالونيكا، سماه محفل (ماسيدونيا ريزورتا) ويبدو أن قرة صو أقنع رجال تركيا الفتاة ضباطا ومدنيين بالانتماء إلى الماسونية، وهدفه من ذلك فرض النفوذ اليهودي غير المستساغ على الأوضاع الجديدة في تركيا، وإن كان يتظاهر بأنه إنما يريد مساعدة رجال تركيا الفتاة في تضليل جواسيس السلطان عبدالحميد، ومنحهم الأمن في محفله الماسوني، لأن المحفل الذي ينعقد في بيت أجنبي يتمتع بالحصانة الممنوحة للأجانب في الدولة العثمانية ضد الملاحقة والتفتيش. ويظهر أن المخططين لحركة تركيا الفتاة في سالونيكا كانوا بالدرجة الأولى من اليهود، وكانت شعارات أعضاء تركيا الفتاة الحرية العدالة والإخاء من ابتكار الماسونيين الإيطاليين. وكانت ألوان علم الحركة الأحمر والأبيض هي نفس ألوان علم الماسونية الإيطالية، وبعد مدة قصيرة من انقلاب ١٩٠٨م، وحالما انتقلت جمعية الاتحاد والترقي إلى القسطنطينية استانبول أصبح معروفا أن عدداً كبيراً من قادتها كانوا ماسونيين، وأخذ قرة صو يلعب فيها دوراً كبيراً، ومن ذلك نجاحه في السيطرة على فرع جمعية الاتحاد والترقي في البلقان. وقد لوحظ أن اليهود المحليين والأجانب على اختلاف انتماءاتهم كانوا متحمسين للعهد الجديد، ومع أن جمعية الاتحاد والترقي تظاهرت كذبا وزيفا بتحويل نفسها من جمعية ثورية سرية إلى حزب سياسي وجمعية اجتماعية ذات نظام داخلي معلن، إلا أنه لوحظ في الوقت نفسه أن المحافل الماسونية أخذت تظهر بكثرة، كما ينبثق الفطر من باطن الأرض، في جميع المدن الرئيسية والصغرى في مقدونيا والعاصمة كذلك.

ولا يحتاج المرء إلى كثير من التحري والتحقيق ليعلم أن سرية المحافل الماسونية قد استخدمت جزئياً لإخفاء الإجراءات الداخلية للجمعية، التي أعلنت أنها لم تعد سرية. ويبدو أن جمعية الاتحاد والترقي ما زالت تقوم بدعاية سرية، ويبدو أن ذوي المناصب المهمة وغيرهم من الموظفين قد أفهموا أن مناصبهم وترقياتهم، وبالتالي موارد رزقهم تتوقف على دخولهم في المحافل الماسونية حيث يصبحون أخوة، وقد دخل في الماسونية معظم نواب جمعية الاتحاد والترقي في مجلس المبعوثان والأعيان، وأصبحوا أعضاء في المحفل الماسوني (الدستور)، والذي كان من كبار رؤسائه طلعت بك وزير الداخلية وجاويد بك وزير المالية »(٢٣).

ولعل هذه الوثيقة ترد على ما ذهب إليه كل من الدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى والدكتور محمد أنيس في أن المحافل الماسونية لم تلعب دوراً رئيسياً في الثورة بحكم أن الكثيرين من أعضاء تركيا الفتاة كانوا يقيمون في المناطق الريفية الداخلية التي لم تشهد نشاطاً ماسونياً، وأن التنظيم الذي ساعد المحافل الماسونية تمثل في الطريقة البكتاشية الصوفية(٢٤)، فمع أننا لا ننكر الدور الذي لعبته هذه الطريقة في مساندة الحركة الماسونية في الدعوة للقومية التركية المناهضة للسلطان عبدالحميد إلا أننا نؤكد انتماء الكثيرين من مشايخ هذه الطريقة للمحافل الماسونية(٢٥)، وأن الأعضاء الماسون كانوا أسبق من غيرهم في مساندة الثورة.

---

(٢٣) F.O. 8001, 193. A.
نقلا عن: حسين عمر حمادة: المرجع السابق ص١١٢، ١١٣.

(٢٤) د. أحمد عبد الرحيم: ص٢٦٥؛ د. محمد أنيس: المرجع السابق ص٢٥٥.

(٢٥) محمد صفوت السقا وسعدى أبو حبيب: الماسونية ص٢١٤.

الفكرة القومية في تركيا وتطورها:

على ضوء ما سبق توضيحه من طبيعة الحركة القومية التركية وأهدافها وانتماءات دعاتها يمكن تتبع أبعادها وتطورها. فقد بدأت هذه الحركة تعبر عن نفسها من خلال الأدب، فاهتمت بإحياء نماذج أدبية قديمة في الأدب التركي، واستبدلت ما كان لديها من نماذج بالفارسية والعربية بنماذج أوروبية وبخاصة الفرنسية، وابتعدت كثيراً عن المؤثرات الإسلامية في كل جوانبها، ونحت منحا علمانياً يهتم بآراء المفكرين الفرنسيين كالحرية الفردية والدستور والحياة النيابية وغير ذلك(٢٦)، كما ركزت على إحياء الأمجاد التركية القديمة السابقة لدخولهم في الإسلام كغزوات وغارات المغول الكبار مثل جنكيزخان وتيمورلنك فصوروهم في صور الأبطال العظام. ولا نتفق مع ما أورده الدكتور محمد أنيس في أن الهدف من تأليف الكاتب الفرنسي الشهير «ليون كاهون»، اليهودي الماسوني، لهذه القصص كان لمجرد تسلية الشبان الفرنسيين في الربع الثالث من القرن التاسع عشر، حيث كانت المحافل الماسونية تتبع هذا الأسلوب في بقية الولايات العثمانية الإسلامية مثل اكتشاف حجر رشيد في مصر وتأليف كتاب وصف مصر ومحاولة إحياء الحضارة السابقة للإسلام، وإحياء الأدب الجاهلي في الشام، وإذا جاز قبول هذا التفسير الخاطىء فلماذا ترجمت هذه الكتب إلى اللغة التركية؟ وهل كان القصد من ذلك هو تسلية الأتراك أيضاً؟(٢٧).

وبعد أن نجحت هذه الحركة في أن تجمع حولها بعض المؤيدين من خلال المحافل الماسونية كما سبق التوضيح، ومن خلال ما طرحته من

---

(٢٦) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ٢٤٨.
(٢٧) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ٢٦٠.

أفكار في الصحف التي أصدرتها أو الأعمال الأدبية التي روجت لها مثل مسرحية «الوطن» التي كتبها «نامق كمال» وهي أعمال في أغلبها مولتها المحافل وساعدت على انتشارها، تحولت إلى حركة سياسية، وتركت في أغلبها باريس التي احتضنت نشأتها وأيدت خطواتها وأهدافها وتسربت إلى داخل الدولة العثمانية.

وقد هيأت الظروف الخارجية والداخلية التي أحاطت بالدولة العلية الطريق لظهور أحد قواد هذه الحركة وهو مدحت باشا، فقد اضطربت الأحوال في ولايات البلقان وبشكل هدد بإمكانية استقلال بعضها عن الدولة كالصرب والبلغار، وأسهمت هذه الظروف إلى جانب التهديدات الأوروبية إلى إفلاس خزانة الدولة وهو أمر يحاول البعض إرجاعه إلى إسراف السلطان عبدالعزيز. واستدعى السلطان عبدالعزيز مدحت باشا لمنصب الصدر الأعظم أملا في إسهامه في حل هذه الأزمة من خلال الولايات التي تولاها، لكن مدحت باشا الذي مكن نفسه من خلال استعانته بأعضاء المحافل الماسونية من جماعة تركيا الفتاة، اغتنم الفرصة وأجبر السلطان عبدالعزيز على الاستقالة ليحل محله السلطان مراد الخامس حيث كان قد انتمى إلى المحافل الماسونية، وعرف عنه بعده عن الإسلام وإقباله على الأفكار العلمانية الغربية، ثم أبعده مدحت لصرعه وهوجائيته وإفراطه في ملذاته، وعرض تولي عبدالحميد الثاني بشرط قبوله لإعلان الدستور، وصدر الدستور بالفعل سنة ١٨٧٦م في بداية تولي السلطان عبد الحميد الثاني.

وقد اضطرت الظروف الخارجية المتمثلة في الحرب الروسية، وكذلك إدراك عبدالحميد لأهداف مدحت ورفاقه، وما تضمنه الدستور من التحول الى العلمانية، وعدم ثقته في كفاءتهم ونزاهتهم، أن يقوم السلطان عبدالحميد بإبعاد مدحت عن منصبه وتعطيل الدستور،

فتحولت حركة تركيا الفتاة إلى حركة سرية[٢٨]، ولم تجد أمامها سوى التخطيط لإبعاد السلطان، فكونت جمعية سرية أخرى بجانبها من العسكريين على غرار الجمعية العسكرية الماسونية الإيطالية «كربوناري» التي تشكلت في إيطاليا قبل توحدها، وترأسها أحد الماسون الألبان وهو «أدهم أونيمو»[٢٩].

وفتحت المحافل الماسونية أبوابها وبذلت أموالها لتكوين العديد من الجمعيات داخل قطاعات الجيش، وجهزت لانقلاب عسكري سنة ١٨٩٦ م، لكنها سرعان ما أصيبت بإحباط وخيبة أمل بسبب اكتشاف السلطان عبدالحميد لهذا الانقلاب، وإلقاء القبض على رجاله ونفيهم[٣٠]، وكان عدول السلطان عن محاكمتهم وقتلهم والاكتفاء بنفيهم دليلاً على حرج موقف السلطان، وكثرة عدد المتآمرين عليهم وتسلطهم على مناطق كثيرة وحساسة في الدولة. لكن الأمر الذي أصاب دعاة الحركة القومية، والمحافل الماسونية، والدول الأوروبية التي كثرت اجتماعاتها لتقسيم الدولة العثمانية، أصابهم بالاهتزاز ودعاهم إلى سرعة تنظيم صفوفهم وهو إعلان السلطان عبد الحميد عن فكرة الجامعة الإسلامية.

---

(٢٨) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ٢٥٠، د. أحمد عبد الرحيم: المرجع السابق ص٢٤١.

(٢٩) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ٢١٥.

(٣٠) د. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية، جـ ٢، ص١٠١٠ ويوضح دور أحد المشتركين في هذه الحركة وهو (كليانتي أسكاليري) وهو رئيس أحد المحافل الماسونية، وصلة هذا الماسوني وغيره من الماسونيين الأوروبيين بالسلطان مراد الخامس.

المحافل الماسونية في الشام:

بعد أن نجحت الحركة الماسونية في تثبت أقدامها في مصر بعد حملة نابليون، ومن خلال تمكين أحد أتباعها في تولي السلطة وهو محمد علي باشا، كانت الخطوة التالية هي الانتشار في الولايات العربية. وسبقت الإشارة إلى أن الدور الذي لعبه محمد علي وابنه إبراهيم باشا في الشام وما أحدثه من تغييرات كانت في مجملها لصالح العناصر غير الإسلامية من المسيحيين واليهود، وكذلك ما قام به من فتح الباب للعديد من الإرساليات التبشيرية والجمعيات السرية ودور التعليم التابعة لها قد هيأ الفرصة لتأسيس المحافل الماسونية في بيروت ودمشق وغيرها، وبخاصة أن فرنسا قد أبدت حرصا في التنويه على استمرار رعايتها لهذه المؤسسات في اتفاقية لندن سنة ١٨٤٠ م التي أقرت عودة هذه الولايات إلى الدولة العثمانية بعد محمد علي.

وتشير المراجع إلى أن أول محفل ماسوني في بلاد الشام قد تأسس في بيروت سنة ١٨٦٢م تحت رعاية الشرق الأعظم الاسكتلندي بشرقي فلسطين رقم ٤١٥، وانضم إليه عدد غفير من أعيان البلاد وطنيين وأجانب، وكانت لغته الرسمية الفرنسية، وقد توقف سنة ١٨٦٨م بسبب غياب رئيسه، وظل كذلك حتى جددت رخصته سنة ١٨٨٨ م[٣١]. وتلاه محفل آخر في دمشق في عهد الوالي راشد باشا سنة ١٨٦٤ م[٣٢]، وهو المحفل الذي تشير بعض الدراسات إلى سعيه لدعم اتجاه الأمير

(٣١) حسين عمر حمادة: المرجع السابق ص ١٧٦.
(٣٢) المرجع السابق ص ١٠٣.

عبدالقادر الجزائري، الذي كان منتميا لهذه الحركة، والرامي إلى الاستقلال بالشام بنفس الطريقة التي ساعدت بها الحركة الماسونية اتجاه محمد علي في مصر(٣٣).

على أننا لا نتفق مع ما ذكره جورجي زيدان من أن أول محفل تأسس في فلسطين كان في سنة ١٨٧٣م حيث أشير في تأسيس محفل بيروت الأول إلى تبعيته لمحفل الشرق الأعظم الاسكتلندي بشرقي فلسطين مما يوحي بوجود محفل في فلسطين سابق لهذا التاريخ(٣٤)، ولعدم وجود دلائل بين أيدينا تؤكد وجهة نظرنا فإننا نميل إلى أن هذا التاريخ (١٨٧٣م) هو تاريخ الإعلان عن وجود المحفل وليس تاريخ بدايته وبخاصة أن السرية والتخفي هي من الأمور الهامة التي تعتمد عليها الحركة الماسونية.

ولا شك أن هناك ارتباطا وثيقاً بين تبعية محفل فلسطين للمحفل الاسكتلندي وبين قوة نفوذ بريطانيا السياسي في المنطقة العربية في هذه الفترة، وارتباط العديد من المحافل الماسونية التي أنشئت بعد ذلك في فلسطين بالمحافل المصرية فترة الاحتلال البريطاني، وكذلك يوجد ارتباط بين نمو هذا الاتجاه وبين تبعية فلسطين للإنجليز وفقا لاتفاقية سايكس بيكو سنة ١٩١٦م، وهو أمر ساعد كثيرا على صدور وعد بلفور سنة ١٩١٧م، فضلا عن دور بعض النصارى في دعم هذا النشاط في فلسطين منذ بدايته وبخاصة دور «الأخ الماسوني» «وليم أسعد خياط» الذي كان يعمل مترجما في القنصلية الإنجليزية والذي رأس المحفل الفلسطيني سنة ١٨٨٤م ولمدة أربعة سنوات(٣٥).

---

(٣٣) المنار: جـ ١١ م ١٢ ص ٨٣١ سنة ١٩٠٩م مقال بعنوان: «العرب والترك».

(٣٤) حسين عمر حمادة: المرجع السابق ص ٢٥٥.

(٣٥) حسين عمر حمادة: المرجع السابق ص ٢٥٥.

وتوالى بعد ذلك تأسيس المحافل في بلاد الشام فتأسس محفل آخر في بيروت تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنسي سنة ١٨٦٩م، وتبعه العديد من المحافل في سوريا وفلسطين، وبلغ مجموع هذه المحافل سنة ١٩٢٣م وبانتماءاتها المختلفة ثلاثون محفلا ضمت في عضويتها خمسة عشر ألف ماسوني بخلاف المحافل الموجودة في مصر التي كانت تعد المركز الرئيسي لهذه الحركة في المنطقة بأكملها[٣٦].

التحالف الماسوني الصليبي وراء القومية العربية:

ترتبط بداية ظهور حركة القومية العربية بالفترة التي سيطرت فيها قوات محمد علي باشا على بلاد الشام (١٨٣٣-١٨٤٠م) حيث سمح للعديد من الإرساليات التبشيرية الفرنسية والأمريكية بالدخول بشكل واسع، وسمح كذلك ببناء العديد من الأديرة والكنائس والمدارس التي ألحقت بها كما سبق التوضيح. وامتلكت هذه المدارس والكنائس المطابع دون غيرها من المدارس حيث حرصت الدول الأوروبية على حصرها في يد المسيحيين، وقامت بطبع الكتب وبتوزيعها في شتى أنحاء البلاد، ولهذا ارتبط ظهور هذه الحركة بدور المسيحيين[٣٧].

واحتوت هذه الكتب والنشرات وغيرها على ما يدعو إلى إحياء التراث العربي السابق للإسلام، وما يثير العناصر العربية على دولة الخلافة الإسلامية. وعلى الرغم من مساندة إبراهيم باشا لهذا الاتجاه بنفس قدر مساندته للعناصر المسيحية واليهودية المروجة له إلا أنه لم يكن يمثل اتجاه العرب المسلمين الذين ظلوا على ولائهم للنظام الإسلامي

---

(٣٦) حسين حمادة: المرجع السابق ص ١٨٤.

(٣٧) جورج أنطونيوس: المرجع السابق ص ١٠٠، ١٠١، ١٠٥.؛ د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ٢٦٦.

الممثل في دولة الخلافة[٣٨]، وظلت هذه القلة من المسيحيين، وبرغم مساندة جيش محمد علي ونفوذ الدول الأجنبية والمحافل الماسونية وامتلاكها لأسباب انتشارها، لا تمثل إلا نفسها وقلة من الذين انضموا إليها.

ولم يكن أغلب هؤلاء النصارى من دعاة القومية مخلصين في اتجاههم لإحياء الأمجاد العربية حيث كان هدفهم الأساسي، المرتبط بأهداف المحافل الماسونية والاستعمار الغربي، هو تمزيق دولة الخلافة الإسلامية، واستبدال حكم العثمانيين المسلمين بحكم دول أوروبية مسيحية،فقد رفعت مجموعة ذكرت أنها تمثل نصارى الشام عريضة إلى الملك لويس فيليب في باريس سنة ١٨٤٤ م أكدوا فيها عبوديتهم له وأنهم يعتبرون أنفسهم من جملة رعاياه وأنه وحده الذي يملك تقرير مصيرهم بالشكل الذي يمكنهم من الخلاص من دائرة النفوذ العثماني ويؤهلهم كيا يكونوا عبيدا طيعين لجلالة ملك فرنسا. ورفعت عريضة أخرى إلى رابطة نساء فرنسا أعرب فيها نصارى الشام عن ضيقهم بمظالم العثمانيين، وذكّرت نساء فرنسا بالجامعة الدينية التي تجمعهن بمسيحيي الشرق، وأن الجميع يدينون بدين واحد وينتمون إلى كنيسة واحدة ويخضعون لرئيس روحي واحد، وذكروا فيها التاريخ المشترك للمقاتلين الفرنسيين مع أبناء دينهم مسيحيي الشرق خلال الحروب الصليبية مما أدى إلى تخالط الدماء والأنساب بين أبناء الديانة الواحدة[٣٩].

ومن أبرز دعاة القومية النصارى «نصيف اليازجي» (١٨٠٠-١٨٧١ م)، ولد في لبنان وتعلم في الأديرة، بدأ حياته بالعمل كسكرتير لأحد رجال الدين، ثم اتصل بالإرسالية التبشيرية

---

(٣٨) برنارد لويس: المرجع السابق ص ١٣٢.

(٣٩) أحمد فهد الشوابكة: الجامعة الإسلامية ص ١٠٢.

الأمريكية - التي وظفته - لتستعين به في وضع كتب باللغة العربية توزع على المدارس بعد طباعتها وتخدم هدف هذه المدارس في إثارة الاتجاه القومي العربي من جهة وبقصد تدعيم نفوذهم في المنطقة من جهة أخرى[٤٠]. وقد أمدته هذه الأديرة بالعديد من المخطوطات المحفوظة لديها والمتعلقة بقضايا ثقافية وأدبية في العصر الجاهلي، وقد استعان اليازجي بها وبغيرها في سبيل تحقيق هدفه وهو ما يطلق عليه البعض «إحياء روح العروبة». وبالطبع فإنه من السذاجة أن ينساق كتّاب التاريخ في بلادنا إلى حد تتبع نشأة هذا التيار من خلال عناصر مأجورة تعلمت في مدارس لا تخدم أهداف شعوب المنطقة مثل اليازجي، وهذه العناصر لا تمثل اتجاه الأغلبية المسلمة أو حتى العربية ولا تنتمي إلى هذه الأغلبية كذلك، ووصل حد السذاجة ببعض هؤلاء الكتبة للتاريخ إلى اعتبار اليازجي «رسولاً يبشر ببعث ذلك الأدب»[٤١].

وفي نفس الفترة - تقريباً - ظهرت شخصية مماثلة لليازجي في أسلوب التعليم والتكوين والهدف وهو شخصية «بطرس البستاني» (١٨١٩-١٨٨٣م)، فهو مسيحي لبناني تعلم في مدرسة «عين ورقة» القائمة على نظام الأديرة، وقد اختاره الرهبان ليدرس على نفقتهم في الكلية المارونية في روما، لكنه لم يسافر إلى روما مفضلا النعلم في بيروت بعد أن توثقت صلته بالإرسالية الأمريكية فيها، ووظفته كما وظفت اليازجي قبله في تعليم اللغة العربية في مدارسها، وتأليف الكتب المدرسية[٤٢].

---

(٤٠) د. محمد عبد الرحمن برج: دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر ص ٥٤.

(٤١) د. عبد الرحيم عبد الرحمن: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص ١١٥، وقد تبع في هذا جورج أنطونيوس في يقظة العرب ص ١١١، ١١٢.

(٤٢) جورج أنطونيوس: المرجع السابق ص ١١٣-١١٤. د. عبد الرحيم عبد الرحمن: المرجع السابق ص ١١٥، ١١٦، د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص ٨٢.

ومع أن البستاني قد أسهم بإضافة معجم للغة العربية استغرق منه وقتا وجهداً كبيرين، وصدر سنة ١٨٧٠م باسم «محيط المحيط»، وكذلك قام بتصنيف ستة أجزاء من دائرة معارف عربية، إلا أن هذه الأعمال كانت تدور في محيط هدفه وهو إثارة النعرة القومية العربية بغية الخلاص من الإطار الإسلامي الذي كانت تمثله في ذلك الوقت الدولة العثمانية، وهو اتجاه حظي في عمومه بتأييد كافة المفكرين من النصارى في العالم العربي.

وعلى الرغم من التنافس الظاهري بين الإرساليات التبشيرية الأمريكية البروتستنتية والإرساليات الفرنسية الكاثوليكية والذي كان القصد منه هو توسيع دائرة نفوذهم، إلا أنهم التقوا على هدف واحد رأوا فيه الوسيلة لتحقيق هذه الأهداف وهو إثارة الروح القومية من خلال إحياء الثقافة العربية، فسعى كل فريق من الفريقين لتأسيس الجمعيات التي تتولى هذا الدور. وتأسست أولى هذه الجمعيات سنة ١٨٤٧م بناء على اقتراح تقدم به كل من اليازجي والبستاني إلى الإرسالية الأمريكية، وأطلق عليها اسم «جمعية الآداب والعلوم»(٤٣).

ولم تنجح هذه الجمعية في أن تضم إليها عضوا واحدا من المسلمين، واقتصر أعضاؤها على مجموعة من النصارى الشوام إلى جانب اليازجي والبستاني، وكان رئيسها هو الدكتور «فان ديك» رئيس مبشري الأمريكان، كما ضمت لعضويتها الكولونيل ونستون تشرشل الإنجليزي الذي أصبح من رجال السياسة المشهورين في بريطانيا بعد ذلك(٤٤)،

---

(٤٣) جورج أنطونيوس: المرجع السابق ص ١١٧؛ د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص ٩١؛ د. عبد الرحيم عبد الرحمن: المرجع السابق ص ١١٧.

(٤٤) د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص ٩٢؛ جورج انطونيوس: المرجع السابق ص ١١٧.

والذي كان موجودا في بيروت.

ولا يرجع عزوف العناصر الإسلامية عن الاشتراك فيها إلى كون أغلب أعضائها من المبشرين فقط بل لأنها قد ركزت في نشاطها على ما اعتبره المسلمون استفزازا وإثارة ليس فقط لتقاليدهم الاجتماعية المستمدة من الدين الإسلامي بل لأركان هامة في الدين الإسلامي نفسه، فقد اشتملت مجموعة الخطب والمقالات التي تظهر نشاط هذه الجمعية على تعليم النساء للموسيقى إلى جانب الزراعة والطب[٤٥]، وحث المرأة على السفور وغير ذلك من الأمور التي تستفز استقرار الأسرة وتهز البنيان الاجتماعي.

وعلى غرار هذه الجمعية أقام المبشرون الفرنسيون (اليسوعيون) جمعية أخرى سنة ١٨٥٠م هي «الجمعية الشرقية»، وضمت مجموعة من نصارى الشام إلى جانب مجموعة من المبشرين الفرنسيين والأجانب، ولم يشترك فيها هي الأخرى أي من الأعضاء المسلمين[٤٦].

وكان من الطبيعي أن ينتهي دور هاتين الجمعيتين وذلك لأن الأهداف التي قامتا من أجلها ليس القصد منها أن يعرفها النصارى ولكن الهدف هو إثارة النعرة القومية لدى المسلمين إلى جانب الأهداف الاجتماعية التي كان الهدف منها هو اهتزاز القواعد الاسلامية التي يقوم عليها البناء الأسري وغير ذلك من أهداف. ولهذا تركز نشاط المبشرين واليهود وأعضاء المحافل الماسونية على ضرورة تحقيق هذه الأهداف من خلال جمعية تضم عناصر إسلامية، وتنشر أفكارها بين المسلمين،

---

(٤٥) د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص ٩٢.

(٤٦) جورج أنطونيوس: المرجع السابق ص ١١٨.؛ د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص ٩٢.؛ د. عبد الرحيم عبد الرحمن: المرجع السابق ص ١١٨. وقد ذكر أن مؤسس هذه الجمعية من اليسوعيين الأمريكان وهذا ليس صحيحا.

فظهرت «الجمعية العلمية السورية» سنة ١٨٥٧ م. وكان أغلب أعضاء هذه الجمعية من أعضاء المحافل الماسونية، وركزوا هدفهم على إثارة النعرة القومية العربية الذي كان هو الهدف الرئيسي للجمعيات السابقة التي أقامها المبشرون، ولهذا فحينما اشترط مؤسسو الجمعية الجديدة ألا يدخلها مبشرون وافق المبشرون على ذلك في نفس الوقت الذي قدموا فيه كل التسهيلات والمعونات للجمعية، وإن كانت قد ضمت عناصر من كل الطوائف كان من بينهم من هم أوثق صلة بمدارس التبشير كإبراهيم اليازجي ابن ناصيف اليازجي الذي ألقى قصيدة في افتتاحها السري دعا فيها العناصر العربية للتمرد على الأتراك، وتغنى بأمجاد العرب في نفس الوقت الذي ندد فيه بالترك واتهمهم بالظلم(٤٧).

مسئولية النصارى والدول الأوروبية عن أحداث سنة ١٨٦٠ م.

لا شك أن نشاط هذه الجمعيات، إلى جانب التنظيمات الحكومية التي صدرت في الشام منذ عصر إبراهيم باشا، ومساندة الدول الأجنبية التي ساعدت على قصر الرواج الاقتصادي على النصارى دون المسلمين، كل هذه العوامل قد أسهمت في أن يصبح للنصارى وضعٌ متميز على المسلمين. وأدت هذه الأوضاع إلى تطاول أغلب النصارى على كثير من المسلمين الذين لم يعتادوا على ذلك، ولدرجة وصفها أحد الكتّاب النصارى فذكر أن الأمر «زاد عقولهم تصلبا وصاروا يتباهون به وظنوا أنهم قبضوا على مفاتيح السماء»(٤٨). وفي نفس الوقت ظلت بعض

---

(٤٧) د. عبد الرحيم: ص ١١٩

(٤٨) د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص ٥٨، نقلا عن ميخائيل مشاقة.

الطوائف الدينية المسيحية تتجه إلى الدول الأوروبية لحمايتها وتأييد وضعها شبه المستقل.

وكانت هذه الأوضاع مقدمة طبيعية لمذابح سنة ١٨٦٠م بين المسيحيين والمسلمين، وقد زادت اشتعالا بفعل تدخلات الدول الأوروبية وتدبيرها حيث وقف الفرنسيون وراء الموارنة في حين وقف الإنجليز وراء الدروز، فكان لذلك أثر بالغ في التهيئة لاحتدام الموقف بين الجانبين[٤٩]. وإذا كان هناك دور للتنظيمات العثمانية في هذه الأحداث فينبغي أن يكون واضحا أن التنظيمات الجديدة التي صدرت في الدولة العثمانية في هذه الفترة - كما سبق التوضيح - كانت بفعل الاتجاهات الماسونية ودور الدول الأوروبية، وأن ما تضمنته من السعي لتطبيق المساواة على أسس علمانية لم يكن من السهل تقبلها والانصياع لها فور صدورها لكونها لم تسلك سبيل التدرج. على أن ذلك لا يعني أن التنظيمات العثمانية السابقة عليها والتي كانت مستمدة من الأحكام والمفاهيم الإسلامية لم تكن تطبق المساواة بل كانت تراعي حقوق الأقليات ومساواتهم بالمسلمين في حدود ما تقره الشريعة الإسلامية، وارتضاها جميع رعايا الدولة بكل طوائفهم، ولم تظهر أية مظاهر للتمرد عليها إلا بفعل الدور الذي قامت به الدول الأجنبية التي طالما سعت لإثارة العوامل الطائفية بغية أن توجد مبرراً لتدخلها ثم لتوسيع دائرة نفوذها وتحقيق مصالحها الاقتصادية والسياسية.

ولم يكن من السهل على العناصر الإسلامية التي تعرضت للكثير من الضغوط منذ حكم إبراهيم باشا أن تقبل هذه الأوضاع التي تتطور في غير صالحها من كافة الجوانب، تنظيمات وقوانين تصدر لتعلي من شأن

---

(٤٩) جورج أنطونيوس: المرجع السابق ص ١٢٢.

النصارى، ومساندة واضحة من قبل الدول الأجنبية التي ازداد نفوذها في البلاد، ورواج اقتصادي أدى إلى اتساع دائرة الطبقة البورجوازية التي أصبحت في أغلبها من الطوائف المسيحية، ومساندة فرنسية للفلاحين المارونيين لإثارتهم ضد الإقطاعيين الدروز، وإعلان صريح بالعداء للديانة الإسلامية. ويسوق بعض الكتّاب ما يؤكد هذا فيما حدث من نصارى زحلة، وهي قرية قريبة من دمشق تسكنها أغلبية نصرانية، فيذكر أن النصارى فيها كانوا يسبون النبي محمداً ﷺ جهراً، ويجبرون الراكبين من المسلمين أن يترجلوا إذا ما دخلوا زحلة، وساند الفرنسيون التجار النصارى كي ينافسوا التجار المسلمين(٥٠)، ولهذا كانت هذه البلدة مستهدفة من قبل المسلمين والدروز إبان أحداث سنة ١٨٦٠م.

وعلى الرغم من كل هذا الاستفزاز المستمر من النصارى للمسلمين إلا أن الأسباب المباشرة لأحداث سنة ١٨٦٠م كانت من العناصر النصرانية، فقد قامت عناصر منهم من قرية «بيت مري» سنة ١٨٥٩م بالهجوم على مسلمي القرية والاعتداء عليهم وطردهم من القرية، وحاولوا حث النصارى في القرى الأخرى على أن يقوموا بأعمال مماثلة(٥١). ونتج عن هذا الحادث سريان روح عدائية لدى المسلمين وتحفز وهيبة لدى العناصر النصرانية التي انتظرت رد فعل الدروز على هذه الأحداث. وفي مايو سنة ١٨٦٠م قامت مجموعة من نصارى زحلة بمهاجمة قرية درزية هي قرية «عين دارا» فتصدى لهم أهلها من الدروز وردوهم على أعقابهم، وتشجع الدروز وقاموا بمهاجمة العديد من القرى

---

(٥٠) د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص ٦٤.

(٥١) المرجع السابق ص ٦٥ نقلا عن ميخائيل مشاقة.

التي يسكنها نصارى وحدثت العديد من المذابح بين الطرفين التي تحمل فيها النصارى النصيب الأكبر[٥٢]، وهو أمر جعل بعض المؤرخين ينظرون إلى نتائج الأحداث وليس إلى أسبابها ودوافعها، فأدانوا المسلمين والتنظيمات العثمانية وليلصقوا بتاريخ المسلمين والعثمانيين ما ليس صحيحا ولا يستند إلى دليل.

وعلى أية حال فقد وجدت الدول الأوروبية في هذه الأحداث مسوغا لتدخلها في شئون بلاد الشام ومنحوا جبال لبنان نظاما للحكم يضمن تسيد العناصر النصرانية على حساب الأغلبية المسلمة[٥٣].

التحالف النصراني اليهودي وقيام الجمعيات الماسونية:

عاود نصارى الشام نشاطهم بعد أن ساندهم التدخل الفرنسي الذي جاء في أعقاب أحداث الصراع الطائفي، فعادت الجمعية العلمية السورية لتزاول نشاطها من جديد في الدعوة إلى القومية وتهاجم استمرار الارتباط بدولة الخلافة الإسلامية. وتكونت جمعيات أخرى في بيروت ودمشق ذات هدف ديني غايتها نشر المبادىء المسيحية، إلى جانب جمعيات عديدة تدرب المدرسين على الخطابة حتى يمكن توظيفهم لأهداف الدعوة إلى القومية في كل ربوع الشام[٥٤].

ولعل أخطر هذه الجمعيات جميعاً جمعية بيروت السرية التي أسسها خمسة من خريجي الكلية البروتستانتية سنة ١٨٧٥ م[٥٥]،فقد اتجهت إلى

---

(٥٢) المرجع السابق ص ٦٩ وما بعدها، وقد أدان جورج أنطونيوس الدروز المسلمين واتهمهم ببدء الاعتداء ووصفهم بالمعتدين، يقظة العرب ص١٢٤.

(٥٣) جورج انطونيوس: المرجع السابق ص ١٢٦.

(٥٤) د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص ٩٥.

(٥٥) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ٢٦٧.

تحويل دورها إلى النشاط في الدعوة إلى القومية ومناهضة فكرة الجامعة الإسلامية(٥٦). وقد استطاعت هذه الجمعية أن تضم اثنين وعشرين عضوا من الطوائف المختلفة ضمت عدداً من اليهود، وكان من بينهم يعقوب صروف وإبراهيم اليازجي وفارس نمر وإبراهيم الحوراني وشاهين مكاريوس وإلياس حبالين، وأعلنوا انضمامهم جميعا إلى الجمعية الماسونية حيث رأوا أن في ذلك كل الخير لقضيتهم(٥٧).

وقد دأبت هذه الجمعية على توزيع المنشورات السرية الداعية إلى الثورة على العثمانيين وإقامة نظام ذاتي لسوريا ولبنان. ولم تقتصر منشوراتها على الدعوة للانفصال عن دولة الخلافة فقط بل إنها أعربت عن عدم رغبتها في أن تقوم أية حكومة إسلامية، وفضلت صراحة الخضوع لحكم دولة مسيحية أجنبية، فاقترح المارونيون فرنسا في حين اقترح البروتستانت بريطانيا أو أمريكا(٥٨).

ومن الأمور التي أسهمت في دعم هذا التيار القومي الماسوني دور مدحت باشا الذي عينه السلطان عبد الحميد والياً على سوريا سنة ١٨٧٨م، فعلى الرغم من الجهود التي قام بها في سبيل الإصلاح والتحديث في العراق ثم في سوريا إلا أنه قد سار في سبيل تعميق

---

(٥٦) أحمد فهد بركات الشوابكة: فكرة الجامعة الإسلامية ص ١٠٣.

(٥٧) حسين عمر حمادة: المرجع السابق ص ١٧٦، ١٧٧؛ وقد انتقل بعض أعضاء هذه الجمعية إلى مصر ليقوموا بنشاط مماثل في الدعوة إلى القومية والانفصال النهائي عن دولة الخلافة، وساعدتهم بريطانيا على ذلك بعد احتلالها لمصر، وانضموا للمحفل الماسوني فيها، وقاموا بنشر بعض الصحف ومنهم فارس نمر ويعقوب صروف؛ جورج أنطونيوس: المرجع السابق ص١٤٩.

(٥٨) أحمد فهد الشوابكة: المرجع السابق ص ١٠٣؛ حسين عمر حمادة: المرجع السابق ص١٧٧.

الشعور القومي المعادي لفكرة الجامعة الإسلامية بغية أن يستقل بالشام كما فعل محمد علي، كما سار في طريق تحقيق الهدف المنشود للجمعيات المسيحية والماسونية وهوالتخطيط لتقسيم الدولة العثمانية(٥٩)، واستبدال القوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية بأخرى غربية، ويعتبر الدستور الذي أصدره سنة ١٨٧٦م في بداية عهد السلطان عبدالحميد من أهم الخطوات التي ترجمت الخطوات إلى علمنة الدولة العثمانية وتمزيق ولاياتها. وقد استعان في تنفيذ أهدافه بمجموعة من المسلمين الشوام ممن استطاع أن يضمهم إلى المحافل الماسونية كي ينفذ من خلالهم إلى داخل البلاد بعيداً عن عنصر الإثارة الذي كان يواجه العناصر النصرانية، فأنشأ جمعية المقاصد الخيرية بناء على اقتراح من الشيخ طاهر الجزائري الذي كان يريد إحياء العلوم الإسلامية مع الاستفادة من علوم الغرب. وحين ساند السلطان عبدالحميد رجال هذه المدرسة من المسلمين وكون منهم مجلسا للمعارف، وزاول بعضهم نشاطاً يتسم بالترويج للثقافة الإسلامية، دهمها - بعد ذلك - أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الماسونية وأنهوا ذلك النشاط(٦٠).

---

(٥٩) جورج أنطونيوس: المرجع السابق ص ١٥٣ وعندما كان مدحت واليا على الدانوب أمر بإضافة الصليب على العلم العثماني ذي الهلال والنجمة ليصبح علماً محلياً، ورأى تدريس اللغات القومية كالبلغارية في مدارس الدولة الرسمية، وقام بتعيين ولاة يهود ومسيحيين في ولايات تسكنها أغلبية مسلمة، ولعب دوراً.

(٦٠) د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص ٨٦، ٨٧.

التحالف الماسوني الصليبي ورواج فكرة القومية في مصر:

سبقت الإشارة إلى الدور الذي لعبه الشيخ رفاعة الطهطاوي في الترويج لفكرة القومية المصرية متأثرا بما تعلمه في فرنسا وفي كل ما كان يحظى به من التأييد الحكومي الذي يرمي إلى الاستقلال بمصر عن دولة الخلافة الإسلامية، إلى جانب اشتراكه في المحافل الماسونية، ونمو هذا التيار في ظل أبناء محمد علي.

وخلال عهد الخديو إسماعيل وفد إلى مصر مجموعة من المثقفين اليهود والنصارى الشوام والمنتمين إلى المحافل الماسونية إما فراراً من سياسة التضييق التي كان يقوم بها بعض ولاة الدولة العثمانية لهذه العناصر أو تدعيما لهذا الإتجاه في مصر وفي ظل ما كانت توفره الحماية الأجنبية لهم من أمان وحماية بعد تزايد النفوذ الأجنبي في مصر[٦١]. بل إن النظام الحاكم في مصر قد أبدى ترحيبا غير معلن بهذه العناصر سواء لاتفاق آرائهم مع أهدافه في تعميق الشعور القومي لدى المصريين أم لاتساع دائرة المحافل الماسونية في مصر في عهد الخديو إسماعيل خاصة، واشتراكه الشخصي فيها، سنة ١٨٧٣م وتعضيده إنشاء المحفل الأكبر المصري[٦٢].

وخلال هذه الفترة قامت مجموعة من اليهود بترويج الدعوة إلى القومية المصرية من خلال صحف أنشأوا لهذا الغرض من أمثال الصحفي اليهودي «أبو نضارة» و«سليم نقاش» و«أديب إسحاق»، فكتب أبو نضارة في جريدة مصر الفتاة الصادرة في الإسكندرية سنة ١٨٧٩م يقول: «يا

---

(٦١) كان من أبرز الأعضاء الماسونيين البرنس مصطفى فاضل باشا شقيق الخديو اسماعيل الذي وضع ثروته لخدمة أغراض الثائرين على السلطان عبد العزيز، وتأييده.

(٦٢) حسين عمر حمادة: المرجع السابق ص ٢٢٠، ٢٢١.

أيتها الأمة المصرية انهضي من عثرة الغفلة، وانظري إلى الذين نالوا السعادة فإنك أهل لأعظم المواهب»[٦٣].

ومع أن مصر قد شهدت نتيجة ذلك حركة فكرية واسعة عالجت فروع العلم المختلفة في الغرب، وبصرت المثقفين المصريين بحقيقة هذه العلوم[٦٤]، إلا أن أغلب هذه التراجم قد زكت الفكرة القومية باتجاهيها المحلي والعربي لدى أغلب المثقفين على حساب الفكرة الإسلامية وفي ظل حظر كامل على دعاتها وعلمائها. وإذا كان لنا أن نسلم - جزئيا - بالضعف الذي انتاب الفكر الإسلامي إلا أن ذلك لم يؤثر في أن تبقى الروح الإسلامية مشتعلة لدى غالبية الشعب المصري، وظل ارتباطهم بدولة الخلافة هو السمة الغالبة التي رصدها العديد من المفكرين[٦٥].

وأنشأت مجموعة من المصريين إلى جانب اليهود والمبشرين الشوام حزباً سرياً هو «الحزب الوطني»، وكان أول حزب سياسي أنشىء في مصر. وعلى الرغم من أنه قد ضم بعض دعاة الجامعة الإسلامية من أمثال السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده إلا أنه كان بمثابة محفل ماسوني أكثر منه حزبا يمثل المصريين، حيث كان أغلب أعضائه من اليهود والمبشرين، كما أنه أعلن في مقدمة برنامجه أنه حزب سياسي لا ديني يجمع كل طوائف المصريين. وقد ضم هذا الحزب العديد من

---

(٦٣) د. زكريا سليمان: مصر الحديثة بين الانتماء العقائدي والقومي ص ٣٠.

(٦٤) برز من المثقفين العلمانيين في هذه الفترة «أحمد فتحي زغلول» و«أحمد لطفي السيد»، انظر:

Nadav Safran: Egypt in Search of Political Community (Cambridge: Harvard University Press 1961. P. 58.

(٦٥) د. زكريا سليمان: التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين - دراسة في فكر الشيخ محمد عبده ص٢٧.

أعضاء المحفل الماسوني المصري من أمثال ولي العهد توفيق باشا وبعض زعماء الثورة العرابية كمحمود سامي البارودي وعبد الله النديم وسعد زغلول إلى جانب فارس نمر صاحب جريدة المقطم الذي جاء من الشام وصهره مكاريوس صاحب «اللطائف المصورة»، وقد دعت اتجاهات هذا الحزب، وانتماء أعضائه للمحفل الماسوني إلى الربط بين الثورة العرابية والحركة الماسونية[٦٦].

وقد توارت الدعوة القومية في مصر في أعقاب وقوعها تحت الاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢ م، إلا أنها سرعان ما عادت في إطار يعادي فكرة الجامعة الإسلامية سواء في اعتمادها على العامية بعيدا عن لغة القرآن كما بدا عند عبد الله النديم أم في حصرها في بعض المثقفين ثقافة غربية وممن تأثروا بالاتجاه العلماني، وفي نفس الوقت كانوا من المنتمين للمحافل الماسونية من أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وأحمد فتحي زغلول وغيرهم.

ومن الأمور التي ينبغي أن نلقي الضوء عليها هو أن هذه الفترة في تاريخ مصر قد ظهر فيها الصحفيون ثم المحامون، وتركز دورهم في نشر الثقافة الغربية والترويج لها. فقد كانت مدارس القانون هي أسبق المدارس النظرية ظهورا على الساحة المصرية لتكون على المدى البعيد بديلا، أو على الأقل، منافسا قويا لدراسة أحكام الشريعة الإسلامية، وفتحت لها المحاكم لتطبيق القوانين، والمجال لصياغة الدساتير الجديدة التي نحت بالبلاد منحاً علمانياً بعيداً عن أحكام الدين، فظهرت طبقة جديدة من المحامين العلمانيين الذين لعبوا دورا في الحياة السياسية[٦٧].

---

(٦٦) د. زكريا سليمان: التيارات السياسية ص ٥٨.

(٦٧) برنارد لويس: المرجع السابق ص ٥٨.

وكان من الطبيعي - كما ذكر برنارد لويس - «بعد ظهور الضباط إلى جانب الصحفيين والمحامين أن يبحثوا عن نظام جديد للتعليم يحل محل الأسلوب التقليدي في تعليم الدين والأدب»[٦٨]، ولعل هذا كان من الأهداف التي حظيت بتأييد - بل بتخطيط - القوى والتيارات والطوائف المعادية للتيار الإسلامي، ذلك التيار الذي تبنته الدول الأوروبية المتحالفة مع المحافل الماسونية اليهودية، وعبرت عنه قلة من المثقفين النصارى وغيرهم من المنتمين للمحافل الماسونية، أو من ارتبطت مصالحهم بمصالح الاحتلال البريطاني، وكانوا هؤلاء هم القبضة التي سيطر بها أعداء البلاد على الشعب فيما بعد الحرب العالمية الأولى.

---

(٦٨) المرجع السابق.

الفصل العاشر

فكرة الجامعة الإسلامية

- السلطان عبد الحميد والدعوة للفكرة.
- التيار المؤيد للفكرة.
- التيار المناهض للفكرة.

فكرة الجامعة الإسلامية

لم تكن فكرة الجامعة الإسلامية تعبيراً عن اتجاه شخصي أو رغبة ذاتية من السلطان عبد الحميد بقدر ما كانت استجابة منه لنداءات الشعوب الإسلامية التي تعرضت لحلقة من الهجمات الشرسة من الاستعمار الأوروبي والمنظمات السرية اليهودية، وبعد أن أحاطها شعور كامل باليأس من إمكانية الدفاع عن وجودها. ولم تكن هذه الشعوب مستعدة لأن تأخذ من الحضارة الغربية ما يساعدها على المقاومة بعد أن كرهت كل ما هو غربي، وكانت - وما زالت - لديها الثقة الكاملة - برغم الشعور بالضعف - في الإطار الإسلامي كي يكون سبيلها إلى الصمود والمواجهة.

وقد أزكت الدول الغربية - تساندها المنظمات اليهودية في هذه الجولة - هذا الاتجاه لدى الشعوب الإسلامية بتحيزها الواضح للشعوب المسيحية في البلقان، والتغاضي - بل ربما الاشتراك - في قتل المسلمين بالجملة في البلقان وأواسط آسيا[1]، وتأييدها للأقليات المسيحية في العالم العربي وبخاصة في مصر والشام على حساب حقوق المسلمين،

---

(١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ص ٢٥٠.

ولهذا أدرك المسلمون - كما أدرك السلطان عبدالحميد - أن الاحتماء بالإسلام هو السبيل الوحيد للتصدي للحملات الصليبية اليهودية المعاصرة.

وكان الأوروبيون قد أحكموا قبضتهم على أغلب الأراضي والشعوب الإسلامية فخضعت الجزائر وتونس، وخضعت مصر والسودان للإستعمار البريطاني، وسيطر البريطانيون على شواطىء الخليج العربي وتسللوا إلى أنهار العراق، وسيطر الفرنسيون على بلاد الشام من خلال الإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية، كما نجحوا في أن يتسللوا إلى نظام الحكم العثماني ومؤسساته لدرجة وصلت - كما يصفها مراقب غربي - إلى أن «يعم المجتمع التركي في الأناضول بأسرها شعور باليأس وفقدان الأمل في مستقبل البلاد، وقد انتشرت النبوءات التي ذهبت إلى أن نهاية سلطة الأتراك وشيكة الوقوع»، ولهذا كان على السلطان عبدالحميد - كما كتب هذا المعلق - «أن يوجد شعوراً بالأمل لدى رعاياه المسلمين»[٢]، فنادى بفكرة الجامعة الإسلامية.

وكانت لدى السلطان عبد الحميد قناعة كبيرة بأن تجاوز الأخطار الخارجية والداخلية التي تحيط بالدولة لن يكون إلا بالإسلام، ورأى فيه القوة الوحيدة التي تمكنه من ذلك، ويبدو ذلك في قوله: «إن الإسلام هو القوة الوحيدة التي تجعلنا أقوياء ونحن أمة حية قوية ولكن شرط أن نصدق في ديننا العظيم»[٣].

وكان الرجل في سلوكه الشخصي قدوة طيبة توحي بالأمل لنجاح الفكرة، فكان يتمتع بسمعة طيبة لدى القريبين منه تسربت مع الوقت

---

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ص ٢٤٧.
(٣) أحمد فهد الشوابكة: الجامعة الإسلامية ص ٢٣.

إلى رعاياه، لا يميل إلى التبذير ولا يشرب الخمر، يحافظ على أركان الإسلام وأولها الصلاة، وقد استطاع أن يفرض هذه الأمور الطيبة على المحيطين به في القصر أولا وأن يمنع كافة العادات السيئة التي تسربت إلى القصر قبل توليه السلطة(٤).

ثم بدأ السلطان عبد الحميد يجمع حوله بطانة من علماء الدين من ذوي السمعة والمكانة العالية، ووجههم إلى ضرورة إنشاء معهد ديني لتخريج الدعاة، وفي نفس الوقت بدأ يهتم بالوعظ والإرشاد في تركيا ثم في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي من خلال المتخرجين من هذا المعهد. وفي الوقت الذي ألزم فيه نفسه بسياسة تقشفية أغدق الكثير من أمواله في الصدقات للمحتاجين من المسلمين وبخاصة في مواسم الحج. وكثف من حجم الدعوة لفكرته في مواسم الحج، فحملها الحجاج إلى بلادهم، وأقاموا لها دوراً خاصة في بلادهم نعمت بدعمه المالي، كما نعمت المدارس الدينية بدعم مماثل في عديد من أماكن الدولة، وأنشأ في النهاية بعض الصحف والمجلات التي سخرها للترويج لهذه الدعوة بين كافة العناصر الإسلامية الموجودة في عاصمة الخلافة والأقطار الإسلامية التي أمكن تسلل هذه الوسائل إليها(٥).

وفي الوقت الذي يرى فيه البعض أن حرص السلطان عبد الحميد على جمع السلطات بيده يعد مظهراً استبدادياً(٦)، يرى البعض الآخر أن

---

(٤) د. أحمد عبد الرحيم: المرجع السابق ص ٢٤٨.

(٥) د. أحمد عبد الرحيم: المرجع السابق ص٢٤٤٨.

(٦) جورج أنطونيوس: يقظة العرب ص ١٠٨، وتبعه الكثيرون فيما وصف به عهد عبد الحميد انظر: د. عبد الرحيم عبد الرحمن: تاريخ العرب الحديث ص٢٤٦؛ د. عبد الرحمن برج: التاريخ العربي الحديث والمعاصر ص ١١٦.؛ د. رأفت الشيخ: تاريخ العرب الحديث ص ٢٥٤.

ذلك كان أمراً ضرورياً لإصلاح الأوضاع بعد أن أصبحت الحكومة البرلمانية المفروضة لا تعبر عن هذه المصالح، ولم تكن تعبر حقيقة عن رغبة الجماهير التي ظلت على احترامها للسلطان - الخليفة - كرمز لارتباطها بالمفاهيم الإسلامية[٧]، وسارت هذه الحكومة التي سيطرت عليها عناصر مغرضة ومشبوهة في سبيل التحول إلى علمنة الدولة سواء أكان ذلك معبراً عن اتجاهها الذاتي أم عن رغبات مؤيديها من القوى الأوروبية والمحافل الماسونية.

وواصل السلطان عبد الحميد تدعيمه لفكرته فلم يقف عند إحياء لقب الخلافة بل أحاطه بكل مظاهر الهيبة والوقار اللائقة به، وخصص نصيباً واضحاً من ميزانية الدولة لبناء المساجد في البلاد العربية ودعم المدارس الدينية وبناء العديد منها وجعلها على درجة تستطيع بها منافسة المدارس الأخرى لغير المسلمين. وزاد مخصصات وإعانات العلماء، كما أضاف مناهج عن الإسلام واللغة العربية إلى مناهج المدارس العلمانية التي أقامها الأجانب أو تتبع الإرساليات التبشيرية. وأبدى اهتماما بالغا بالمناسبات الإسلامية وأقام الحفلات العلنية لها ودعمها دعماً واضحاً[٨]، كما اهتم باللغة العربية وقرب العديد من علمائها العرب إليه وأوكل إليهم مهام في وظائف الدولة العليا كان من أبرزهم الشيخ أبو الهدى الصياد وعزت باشا العابد.

واستخدم السلطان عبد الحميد حقه في تعيين موظفين دينيين في الأملاك العثمانية التي خضعت للاحتلال، ولعله في ذلك قد أبدى حرصاً على دوام صلته بالشعوب الإسلامية أكثر من حرصه بالارتباط بشخص

---

(٧) د. أحمد عبد الرحمن: المرجع السابق ص ٢٤٧.

(٨) د. أحمد عبد الرحيم: المرجع السابق ص ٢٥١.

الحكام، ويبدو ذلك أيضا في تتبعه لأمور المسلمين الخاضعين لنفوذ أجنبي واحتجاجه الدائم على ما يتعرضون له من قبل الدول المحتلة.

ومن أبرز ملامح التجاوب بين السلطان عبد الحميد والشعوب الإسلامية وخاصة العربية تبرع المسلمين بنفقات خط سكة حديد الحجاز الذي أنشأه السلطان بين دمشق والمدينة المنورة بقصد دعم الترابط بين المسلمين وبين المنطقة المقدسة، وكان ذلك المشروع بمثابة انتصار لسياسته الرامية إلى دعم فكرة الجامعة الإسلامية وتعبيراً عما حققته من نجاح في فترتها الأولى.

ولعل ما يتوج عهد عبد الحميد وسياسته الإسلامية هو موقفه من الأطماع اليهودية في فلسطين، حيث رفض السلطان المسلم العروض المتتالية منهم والخاصة بدفعهم منحة مالية كبيرة في مقابل السماح لهم بالهجرة إلى فلسطين، ومما يؤثر عنه في هذا الأمر قوله: «لماذا نترك القدس.. إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان، وستبقى كذلك، فهي من مدننا المقدسة، وتقع في أرض إسلامية ولا بد أن تظل القدس لنا»(٩).

وحاول اليهود الضغط على السلطان عبد الحميد من خلال الدول الأوروبية لكن هذه الضغوط لم تسفر عن نتيجة سوى إطالة مدة إقامة اليهود في فلسطين إلى ثلاثة أشهر بدلا من شهر واحد، واختار السلطان عبدالحميد بنفسه باشوات بيت المقدس حتى لا تؤثر فيهم أساليب اليهود ويكونوا ملتزمين بتنفيذ أوامر السلطان للوقوف أمام أطماعهم(١٠).

---

(٩) أحمد فهد الشوابكة: الجامعة الإسلامية ص ٢٣.

(١٠) د. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، جـ ٢ ص ٩٧٩.

وحين استغل الزعيم الصهيوني هرتزل ما يحيط بدولة الخلافة من ظروف اقتصادية صعبة وعرض على السلطان رشوة بمبلغ مليوني جنيه مقابل الحصول على فلسطين، رد عليه السلطان رداً قاطعاً بقوله: «إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض، فهي ليست ملك يميني، بل هي ملك شعبي، لقد ناضل شعبي في هذه الأرض، ورواها بدمه، فليحتفظ اليهود بملايينهم. وإذا مزقت امبراطوريتي يوما فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن. أما وأنا حي فإن عمل المبضع في بدني لأهون علي من أن أرى فلسطين قد بترت من امبراطوريتي، وهذا أمر لا يكون. إني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة»(١١).

ولا شك أن موقف السلطان عبد الحميد من الأطماع اليهودية إذا كان قد أثار عليه اليهود ومعهم الدول الأوروبية وذلك لاتفاق مصالح وأطماع الجانبين تجاه تقسيم الدولة، إلا أنه قد لقي استحسانا لدى كافة رعايا الدولة المسلمين وبخاصة العرب وهو أمر قد بدا واضحا في اتساع دائرة التأييد لفكرة الجامعة الإسلامية.

التيار المؤيد لفكرة الجامعة الإسلامية:

أتاحت سياسة السلطان عبد الحميد الإسلامية الفرصة لظهور بعض المفكرين المسلمين في تركيا ومساندتهم لفكرة الجامعة الإسلامية، ويأتي في مقدمة هؤلاء أحمد جودت باشا (١٨٢٢-١٨٩٥م)، فقد دعا إلى ضرورة التمسك بالإسلام والابتعاد عن الغرب الأوروبي وعدم الثقة في دوله والتنبه لمخططاته العدائية.

---

(١١) د. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٩٠، ٩٩١.

وظهر أيضا الشيخ عاطف اللاسكليبي (١٨٧٦-١٩٢٦م)، وقد ركز فكره وجهده لدعم اتجاه الجامعة الإسلامية وكذلك دعم سلطة الخليفة، ودعا الناس إلى ضرورة الالتفاف حول الخليفة، والتبرع لدعم مشاريعه الإصلاحية بالأموال حتى لا يقع فريسة للديون الأوروبية أو تتوقف هذه المشاريع، كما دعا إلى عدم تقليد الغرب تقليداً أعمى يأخذ بالشكليات بل عليهم الأخذ بما ينفعهم من هذه المدنية(١٢).

ومن الذين نبهوا إلى خطر الوحدة القومية وضرورة العمل على وحدة المسلمين «أحمد نعيم بابان زاده» (١٨٧٦-١٩٣٤م)، فقد اعتبر القومية دعوى جاهلية وهي مذمومة ومرفوضة وأنها أقوى ضربة توجه للأمة الإسلامية. أما «بديع الزمان سعيد النورسي» (١٨٧٦-١٩٦٠م) فقد ركّز على رفض الأخذ عن الحضارة الغربية، ودعا إلى العودة إلى الإسلام الصحيح الأول وإلى ضرورة مساندة فكرة الجامعة الإسلامية(١٣).

وإلى جانب هؤلاء كان دور الشاعر «محمد عاكف» (١٨٧٣-١٩٣٦م) و«أبو الهدى الصيادي» (١٨٤٩-١٩٠٩م) و«عبد القادر المغربي» (١٨٦٧-١٩٥٦م) و«رفيق العظم» (١٨٦٧-١٩٢٥م).

ومن دعاة الجامعة الإسلامية الذين ذاع صيتهم أكثر من غيرهم السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا..

---

(١٢) أحمد الشوابكة: المرجع السابق ص٤٢، ٤٣.
(١٣) أحمد الشوابكة: المرجع السابق ص ٤٥، ٥٠، ٥٤.

جمال الدين الأفغاني وفكرة الجامعة الإسلامية:

ما زالت نشأة السيد جمال الدين موضع خلاف بين المفكرين وكذلك آراؤه وأفكاره، فمنهم من يراه أفغاني المولد والنشأة، ومنهم من يشكك في ذلك ويراه إيرانيا في مولده ونشأته، وانسحبت هذه الخلافات حول النشأة على مذهبه هل هو سني أم شيعي؟، وقد جعل بعض المفكرين المغرضين من هذا الخلاف منفذا لمهاجمة بعض الآراء والمذاهب الإسلامية وكذلك فكرة الجامعة الإسلامية، وآخر محاولة في هذا المجال ما قام به مفكر مسيحي مصري هو الدكتور لويس عوض.

والثابت أن السيد جمال الدين أفغاني المولد ولد في مدينة «أسعدأباد» من أعمال «كابل» سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م)، ويقال إن ارتباط اسمه بلقب السيد يرجع إلى انتسابه إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما. وقد درس جمال الدين علوم اللغة العربية والتاريخ والعلوم الدينية والفلسفة في «كابل»[١٤]. وقد أهلته هذه العلوم لأن ينال حظوة لدى الأمير «دوست محمد خان» والأمير «محمد أعظم خان». وخلال عمله الإداري اطلع على أبعاد الصراع البريطاني الروسي على بلاده فاكتسب بعداً جديداً في الأمور السياسية، وازداد هذا البعد من خلال جولاته التي قام بها في كثير من بلاد الشعوب الإسلامية حتى كان وصوله للآستانة ومصر فانصهر مع فكرة الجامعة الإسلامية.

وبشكل عام فإن تصور جمال الدين للجامعة الإسلامية قد تأثر بعاملين رئيسيين أولهما اشتراكه في المحافل الماسونية والثاني هو الواقع الفعلي الذي أصبحت عليه الأقطار الإسلامية بعد أن تقاسمت الدول

---

(١٤) د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص ٢٥٨.

الاستعمارية وبخاصة انجلترا وفرنسا السيطرة على أغلبها، ولهذا بدت رؤيته لهذه الجامعة وحدة سياسية تقوم على تعاون الحكام المسلمين - لا على الشعوب - يكون سلطانهم القرآن الكريم ووجه وحدتهم الدين على أن يحتفظ كل وطن اسلامي بملامحه القومية(١٥)، وهو ما ارتكز عليه البعض في أن يلقب جمال الدين بأبي القومية(١٦). ويعتبر هذا الاتجاه عند جمال الدين مناقضاً لدعوة الجامعة الإسلامية في نظر أتباع الفكر الإسلامي حيث لا يمكن قبول وحدة إسلامية على أطر قومية، كما أن ذلك هو السبب الرئيسي الذي جعله يصطدم بالسلطان عبد الحميد الذي غضب عليه وطرده خارج البلاد(١٧).

وعلى الرغم من أن اتجاه جمال الدين قد لقي رواجاً لدى بعض المفكرين ممن سموا بالمجددين أو دعاة الإصلاح، وأنه قد استمد الكثير من آرائه في الإصلاح من الأسس الإسلامية، إلا أن انغماسه في قضايا الشعوب التي زارها وتركيزه على قصر الدعوة للثورة فيها من خلال ظروفها قد جعله يبدو في صورة ثائر قومي أكثر من كونه ثائراً إسلامياً، وان كان في ذلك أقرب إلى التأثر باتجاه المحافل الماسونية أكثر من تأثره بمنظور الخلافة الاسلامية التي كانت في أمس الحاجة للتعضيد والمؤازرة. ومن الأمور التي تؤكد ذلك تأكيده على ضرورة تحويل الممالك الإسلامية إلى ممالك دستورية حتى تصبح الدولة الاتحادية الإسلامية دولة

---

(١٥) د. زكريا سليمان: الاخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية المصرية ص١١.

Smith, W.C. Islam in Modern history. P. 89.

(١٦) د. زكريا سليمان: التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين - دراسة في فكر الشيخ محمد عبده ص٦٣.

(١٧) د. زكريا سليمان: التيارات ص ٦٣.؛ د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص ٢٦٢.

دستورية دونما إشارة إلى مدى اعتماد هذه الدساتير على الشريعة الإسلامية، بل إنه ذهب إلى أكثر من ذلك حينما ضرب مثلا بدستور مدحت باشا ذلك الدستور الذي كان بداية لعلمنة الدولة وتحللها من أحكام الشريعة الإسلامية[18].

الشيخ محمد عبده وفكرة الجامعة الإسلامية:

هو محمد عبده بن حسن خير الدين المصري، ولد في قرية شبشير من قرى مديرية الغربية، ونشأ وتربى في «محلة نصر» إحدى قرى مركز شبراخيت محافظة البحيرة (١٢٦٦ هـ/١٨٤٩ م).

بدأ حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم، ثم انتقل للتعلم في المسجد الأحمدي بطنطا، ذلك المسجد الذي كان يعج بكثيرين من رجال الطرق الصوفية، وقد تأثر الشيخ محمد عبده ببعض المتصوفة من أمثال الشيخ درويش. لكنه سرعان ما وقع أسيراً لوافد جديد على مصر هو السيد جمال الدين الأفغاني، فقد تبعه في آرائه وفي نشاطه السياسي وغير ذلك، فدرس عليه الفلسفة وعلوم الكلام، وانضم معه إلى المحافل الماسونية.

وقد اقتنع محمد عبده في بداية حياته برأي أستاذه جمال الدين حول فكرة الجامعة الإسلامية، وصاغ العديد من المقالات في العروة الوثقى التي تقدم العصبية الدينية على العصبية الجنسية، ورمى دعاة العصبية الجنسية (القومية) بالغفلة وبأنهم أبواق المستعمر الذي يحاول توهين العصبية الدينية ليقطع الرابطة التي تجمع بين شعوبها، وأكد أن المستعمر أكثر عصبية للدين فيما تجري عليه سياستهم. وفي مقال آخر بعنوان: «الوحدة الإسلامية» قال إنه لا جنسية للمسلمين إلا في

---

(١٨) د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص ٢٦٣.

دينهم، وأن تعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة، وأرجع التدهور الذي حاق بالأمة الإسلامية إلى تنازع الرؤساء واستنصارهم بعدوهم على أنفسهم من أجل الحفاظ على ملكهم(١٩).

وقد ارتبط هذا التصور ارتباطاً وثيقا بموقفه آنذاك من الدولة العثمانية التي كان يعتبر «أن المحافظة عليها ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله، فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزته وليس للدين سلطان في سواها، وأكد أنه على هذه العقيدة يحيا وعليها يموت»(٢٠).

إلا أنه سرعان ما عدل عن هذه الآراء مفضلا عليها رأي أستاذه جمال الدين فدعا إلى أن تنصرف الأقطار العثمانية إلى ترقية نفسها بنفسها من غير معاداة ولا مباراة لتركيا، وأن تنصرف كل لرعاية شئونها، وهو أمر يفسر بعده عن السياسة وانصرافه عنها إلى الانغماس في قضايا الإصلاح الاجتماعي في مصر.

ومع أنه أكد أنه: «لا يوجد مسلم يريد بالدولة «العثمانية» سوءاً، وأنها سياج في الجملة يجمع المسلمين وعليهم المحافظة عليه وأن يعملوا لأنفسهم قبل زوال هذا السياج وإلا أصبحوا كاليهود بل أقل من اليهود»، إلا أنه عارض اتجاه المنار للتدخل في السياسة العثمانية وخدمة الدولة العلية، وعلل ذلك بأن المسلمين ليس لهم إمام في هذا العصر غير القرآن وأن الخوض في السياسة العثمانية فتنة يخشى ضررها ولا يرجى نفعها، وأن الناس - في مصر - لا يحبون أن يسمعوا في السلطان والدولة إلا ما يشتهون، ومصر ليس فيها سياسة، والمسلمون لا ينهضون

---

(١٩) د. زكريا سليمان: التيارات السياسة والاجتماعية ص ٨٦.
(٢٠) المرجع السابق ص ٨٦.

إلا بالتربية والتعليم فلا تخلط السياسة بمقاصدك الإصلاحية لئلا تفسدها عليها فإنها ما دخلت في عمل إلا وأفسدته ». ومع أنه قد حاول التبرير بأن ذلك لا يتعارض مع الاستمرار في الدعوة لفكرة الجامعة الإسلامية ومن خلال تصوره لها وهو التعاون والاتحاد بين أوطان العالم الإسلامي بعد إصلاحها والنهوض بها، إلا أن ذلك كان يعني أنه قد غلّب الدعوة المصرية على حساب الفكرة الإسلامية(٢١).

ورأى محمد عبده أن تحقيق الوحدة السياسية بين بلدان العالم الإسلامي - وهم على ما هم عليه من تخلف وضعف - يعد ضربا من الجنون، حيث كان يرى أنه لكي تتحقق هذه الوحدة لا بد أن تسبقها حركة إصلاحية شاملة، وهو أمر دعاه لتأييد رجال تركيا الفتاة ومخالفة السلطان عبد الحميد، ودعاه أيضا إلى الاختلاف مع أستاذه جمال الدين مما اضطر جمال الدين إلى اتهامه بأنه « مثبط للهم »(٢٢). بل لقد حاول محمد عبده أن يقنع أستاذه بأفكاره حيث اقترح عليه، بعد أن تعطلت مجلة العروة الوثقى (أواخر سنة ١٨٨٤ م) وبعد فشل مشروعات الجامعة الإسلامية، أن يعتزلا الاشتغال بالسياسة وأن ينشئا مدرسة لتربية النشء وفقاً لمنهج ومقاصد لتكوين صفوة من الشباب(٢٣).

وكان من الطبيعي أن تلقى آراء محمد عبده تجاه الجامعة الإسلامية قبولا لدى أصحاب الثقافة الغربية أو ممن سموا أنفسهم بالمجددين من المفكرين المصريين، في حين لقي الشيخ بسبب هذه الآراء معارضة

---

(٢١) د. زكريا سليمان: التيارات السياسية ص ٨٧، ٨٨.

(٢٢) المرجع السابق ص ٩٠، ٩١.

(٢٣) د. زكريا سليمان: المرجع السابق ص ٩١، ويقول صاحب المنار أن الذي دعا الأفغاني إلى الاشتغال بالسياسة هو اعتقاده أن الدعوة لا تكون إلا حيث تكون الحرية وحكومة الشورى، المنار: جـ ١٠ م ١١ ص ٧٤٠.

واضحة من أتباع الفكر الإسلامي الذين كانوا يعبرون عن مشاعر وميول غالبية الشعب المصري المسلم. وحين وجد أتباع التيار الإسلامي مساندة - بفعل الظروف السياسية - من السلطة الشرعية ممثلة في الخديو عباس حلمي الثاني، تحالف الشيخ محمد عبده مع المندوب السامي البريطاني كرومر، والتفت حوله أو اقتربت من آرائه جماعة من أعضاء المحافل الماسونية في مصر من أمثال سعد زغلول وقاسم أمين مكنت لها سلطات الاحتلال في التسلل إلى امتطاء الركب الثوري وتسيد الحركة السياسية في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

السيد محمد رشيد رضا:

على الرغم من أن الشيخ رشيد رضا يعد من أبرز تلاميذ الشيخ محمد عبده إلا أنه يختلف عن الذين يطلقون على أنفسهم - أو يطلق عليهم - مدرسة الشيخ محمد عبده من المفكرين من دعاة التجديد والمثقفين ثقافة غربية، وذلك لأن رشيد رضا قد تعلم من شيخه واقتنع بآرائه في الفترة الأولى السابقة على تأثر محمد عبده بالعناصر الماسونية في بيروت وفرنسا وبالآراء التي اطلع عليها في هذه الأماكن. على أن ذلك لا يعني أن رشيد رضا نفسه لم ينغمس هو الآخر في الآراء - لا المحافل - الماسونية التي سمعها من محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغاني، ولعل من الدلائل التي تشير إلى ذلك اشتراكه في حزب اللامركزية مع بعض الأعضاء الماسونيين مثل شبلي شميل ورفيق العظم واسكندر عمون وداود بركات[٢٤]، وهي جمعية شنت هجوما شديدا على

---

(٢٤) سالم عبد النبي قنيبر: عبد العزيز جاويش، حياته وفكره، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب اسكندرية ص ٢٩٠، ٢٩١؛ المنار: جـ٢ م١٦ فبراير سنة ١٩١٣م ص ٢٢٦-٢٢٩.

السلطان عبدالحميد لدرجة أنه أطلق عليها اسم «الجمعية الفاسدة»[٢٥].

على أن رشيد رضا قد عاد وحمل على هذه الحركة (الماسونية) حملة شديدة على صفحات المنار، وأصدر بعض الفتاوى التي تحرم التعامل معها أو اعتناق مبادئها[٢٦]، وكان يعتبر الهجوم على العناصر المنتمية لها في جماعة تركيا الفتاة دعما لفكرة الجامعة الإسلامية.

ومن المرجح أن يكون الشيخ رشيد رضا قد اطلع على بعض الآراء الماسونية في لبنان التي شهدت ميلاده ونشأته ومراحل تعليمه الأولى، كما أن تعليمه في المدرسة الرشيدية، ودراسته للغة التركية، ثم دراسته في بعض المدارس الدينية التي حفظ فيها القرآن صغيراً كلها أسهمت في توجهه لمساندة فكرة الجامعة الإسلامية التي كانت من بين عوامل لقائه وخلافه مع شيخه محمد عبده، وتوجهه لمهاجمة المحافل الماسونية وأصحاب الدعوة للإصلاح على أسس علمانية.

لكن الشيخ رشيد رضا قد تقلب في ولائه بين بعض الحكام السياسيين في أعقاب إلغاء الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م فأيد ترشيح ملك مصر «فؤاد» للخلافة، وعدل بعض الشيء عن ذلك الترشيح بعد مدة. كما أن نشأته المتأثرة بالصوفية لم تمنعه من التأييد الكامل للدعوة السلفية في جزيرة العرب، وتأييد إمامها عبدالعزيز آل سعود في موقفه ضد الأشراف وضم الحجاز[٢٧]، وهو أمر جلب عليه الشك أحيانا فلم تبتعد عنه أصابع الاتهام من قبل أتباع التيار المعادي للاتجاه الإسلامي.

---

(٢٥) د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص ١١٥.

(٢٦) محمد علي الزغبي: الماسونية في العراء ص٢٢١. وانظر نص الفتوى في: محمد صفوت السقا وسعدي أبو حبيب: الماسونية ص١٨٠-١٨٣.

(٢٧) د.. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص ٢٦٩.

التيار المناهض لفكرة الجامعة الإسلامية:

على الرغم من كثرة الصحف التي صدرت للتصدي لفكرة الجامعة الإسلامية أو لمهاجمتها ومهاجمة دعاتها والتنديد بهم إلا أنها - أي الصحف - لم تكن تعبر عن تيار شعبي في أي من البلاد الإسلامية. فقد احتمى أصحاب هذه الصحف - وكانوا في أغلبهم من النصارى واليهود - بنفوذ الدول الأجنبية في بلاد الشام، وساعدتهم هذه الدول بالأموال والمطابع على الترويج لآرائهم. أما في مصر فقد قاد التيار المعادي للجامعة الإسلامية مجموعة من الصحفيين الشوام من النصارى واليهود - كما سبق التوضيح - ومن انضم إليهم من أعضاء المحافل الماسونية في مصر، واحتموا بنفوذ الدول الأجنبية وبخاصة بريطانيا. وبعد خضوع مصر للاحتلال البريطاني نشط هذا التيار عن ذي قبل وزاد عدد الصحف في مطلع القرن العشرين، وقامت حولها أحزاب سياسية كانت أحزاب حكومية أكثر منها أحزاب شعبية، وكان قادتها زعماء يبحثون عن قاعدة أكثر من كونهم قادة أفرزتهم قوى أو فئات شعبية، وبالتالي كانت الأحزاب أحزاباً صحفية ولم تكن الصحف صحفاً حزبية.

وعلى الرغم من وجود بعض من هذه الصحف المناصرة لفكرة الجامعة الإسلامية كصحيفة «المؤيد» التي كان يرأس تحريرها «الشيخ علي يوسف»، وصحيفة «اللواء» التي أصبحت لسان حال الحزب الوطني المصري بزعامة «مصطفى كامل» و«محمد فريد» إلا أن هذه المساندة كانت في نظرهم سبيلا لمقاومة الاحتلال من جهة ولدعم سلطة الخديو أكثر منها تأييدا لاتجاه السلطان عبد الحميد، ومع ذلك فقد نعم هذا الاتجاه في مصر بتأييد السلطان، وبترحيب جماهيري كبير وضعهم في صدارة الحركة الوطنية.

ومما لا شك فيه أن الدول الأوروبية والمنظمات والجمعيات اليهودية قد تحالفت في خلق الوسائل لضرب فكرة الجامعة الإسلامية. ومع ذلك فقد حاولت بعض هذه القوى الاستفادة من هذه الفكرة وتوجيهها لحسابها، فقد حاول بعض الإنجليز مساندة تيار الجامعة الإسلامية واستخدامه في مقاومة التوسع الروسي، وفي نفس الوقت الاحتفاظ بولاء المسلمين في الهند عن طريق إبداء المساندة للدولة العثمانية ولخليفة المسلمين[٢٨].

كما سعى اليهود للتسلل إلى هذا التيار وتوجيهه من خلال زعامات ماسونية مؤيدة للجامعة الإسلامية ولكن مع الحفاظ على الإطار القومي للولايات العثمانية وهو تيار لا يتفق مع رؤية السلطان عبدالحميد، ومن جهة ثانية توجيه تيار العداء لدى الشعوب الإسلامية إلى الشعوب الغربية المسيحية دون اليهود على الرغم من دور العديد من العناصر اليهودية وكذا الجمعيات السرية التي أسسوها في ضرب الاتجاه الإسلامي وتحطيم وحدة الدول الإسلامية[٢٩].

ونعرض بعد ذلك لأهم الكتّاب المعارضين للجامعة الإسلامية، ونذكر منهم فرانسيس مراش الحلبي (١٨٣٦-١٨٧٣م) وهو مسيحي كاثوليكي من حلب، درس الطب على يد طبيب إنجليزي في حلب، ثم سافر إلى باريس واستقر فيها، وانضم في باريس إلى التيار الذي يهاجم الحكم العثماني الذي يمثله السلطان عبد الحميد، واتهمه بأنه حكم عنصري طائفي، ودعا إلى ضرورة الثورة عليه[٣٠].

---

(٢٨) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق ص ٢٥٠.

(٢٩) من أهم هذه الزعامات جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد الرحمن الكواكبي.

(٣٠) أحمد الشوابكة: المرجع السابق ص ١٠٥.

ومن حلب أيضا ظهر « رزق الله حسون » (١٨٢٥-١٨٨٠ م) وهو أرمني تعلم في حلب اللغة العربية والفرنسية والتركية، انتقل للعمل سكرتيرا لفؤاد باشا وزير خارجية الدولة العثمانية في أواخر سنة ١٨٦٠ م، ثم عين ناظرا لجمارك التبغ، فاتهم بالاختلاس وأودع السجن، ثم فر منه إلى روسيا ثم لندن. وفي لندن بدأ نشاطه المعادي لحكم السلطان عبد الحميد وهجومه على الجامعة الإسلامية. وعلى الرغم من أنه قد دعا العرب للثورة والاستقلال عن الدولة العثمانية إلا أنه في نفس الوقت قد دعا إلى أن تكون انجلترا هي البديل عن الترك في حكم العرب، وكذلك دعا الطوائف المسيحية في الشام إلى الارتباط بفرنسا لأنها حامية المسيحيين في الشام[٣١].

وظهر أيضاً « جبرائيل دلال الحلبي » (١٨٣٦-١٨٩٢ م) وهو مسيحي كاثوليكي من حلب، وظفته فرنسا للعمل في جريدة « الصدى » التي كانت تصدر بالعربية للترويج للسياسة الفرنسية في الشرق، وتبنى في جريدته الدعوة للثورة على العثمانيين[٣٢].

ويختلف شبلي شميل «(١٨٥٠-١٩١٧ م) عن سابقيه حيث تأثر بالأفكار الليبرالية التي درسها في باريس فأصبح ملحدا وكان عضواً ماسونيا، وهاجم المعتقدات الدينية واعتبرها العلة الوحيدة لشرور المجتمع الشرقي، وأنكر الوحي والبعث وأكد أن الدين هو علة انحطاط الشرق وتأخره، وهاجم المجتمعات الشرقية لأنها ما زالت تقيم وزنا للرابطة الدينية في حياتها، كما هاجم العاطفة الدينية والوطنية معا. وهاجم الدولة العثمانية كذلك واتهمها بأنها تخلو من العلم والعدل والحرية،

---

(٣١) المرجع السابق: ص ١٠٥.
(٣٢) المرجع السابق: ص ١٠٦.

وانحاز لحزب تركيا الفتاة ضد السلطان عبدالحميد. وقد أسرف كثيرا في مدح الانجليز وأنكر على المصريين مقاومتهم، ورأى أن الاستعمار الغربي للشرق هو المنقذ الوحيد للشرقيين[٣٣].

ومن أبرز المناهضين لفكرة الجامعة الإسلامية كذلك أحد الروم الكاثوليك وهو «نجيب عازوري» (؟ - ١٩١٦م)، وهو سوري تربى تربية فرنسية، عين موظفا في لواء القدس (١٨٩٨-١٩٠٤م)، ثم ترك وظيفته وسافر إلى باريس لينضم إلى ركب المعادين للجامعة الإسلامية. وقد أسس هناك جمعية سنة ١٩٠٤م باسم (عصبة أو جامعة الوطن العربي) جعل هدفها تحرير الشام والعراق من السيطرة التركية. وأصدر كتبا بالفرنسية عن يقظة العرب، كما أصدر مجلة شهرية باسم «الاستقلال العربي»، وقد دعا على صفحات مجلته إلى نبذ الرابطة الدينية وإحلال الرابطة الجنسية والوطنية بين العرب مسلمين ومسيحيين، لكنه عاد فدعا إلى قيام كنيسة عربية واحدة، وخلافة عربية يفصل فيها بين الدين والدولة[٣٤].

أما عن التيار المناهض لفكرة الجامعة الإسلامية في مصر فقد تمثل في مجموعة من المفكرين الشوام من النصارى واليهود وبعض أعضاء المحافل الماسونية، إلى جانب بعض المفكرين الماسونيين المصريين والمفكرين الأقباط في عمومهم. فمن الشوام ظهر سليم سركيس الذي (أصدر صحيفة «المشير» سنة ١٨٩٤م في الإسكندرية، وانتقلت إلى القاهرة في العام التالي (١٩٨٥م) ثم إلى نيويورك سنة ١٨٩٩م حتى توقفت سنة ١٩٠٢م. وركزت مقالاتها على مهاجمة الجامعة الإسلامية،

(٣٣) المرجع السابق: ص ١٠٨.
(٣٤) المرجع السابق ص ١٠٨، د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص ١٠٩.

وأيدت حكم الأوروبيين للعرب. وقد نعم بحماية السلطات البريطانية في مصر، وحين صدر قرار من المحكمة في مصر بتسليمه للدولة العثمانية رفض «كرومر» المندوب السامي البريطاني في مصر ذلك ووفر له الحماية مما دعاه للاستمرار في حملته المعادية للعثمانيين والجامعة ألاإسلامية(٣٥).

وصدرت في نفس الاتجاه صحيفة أخرى في مصر باسم «تحرير سوريا» عن «جمعية الإصلاح السورية» في القاهرة بإشراف «محمد أمين الدمشقي» و«جورج عساف»، وأبدت كرها للحكم العثماني وأعربت أن السوريين يكرهون ذلك الحكم ويتعلقون بفرنسا(٣٦).

وقد التفت العناصر القبطية في مصر خلف صحيفتي «الوطن» وكانت مملوكة لأحد الشوام البروتستانتيين، و«المقطم» وكانت لكاثوليكي من الشام أيضاً، إلى جانب صحيفة «مصر». فقد وقفت صحيفة «مصر» موقفا معادياً لفكرة الجامعة الإسلامية، ورفضت الاتجاه الداعي إلى ضرورة مساعدة مصر للدولة العثمانية في حربها مع اليونان سنة ١٨٩٧م معللة ذلك بأن الحرب بين دولتين لا علاقة لمصر بها. وحين استجاب المصريون لحملة التبرعات للدولة العثمانية علقت الصحيفة على ذلك بأن الدولة العثمانية ليست في حاجة إلى هذه التبرعات، وأنه إذا كان لا بد منها فتكون باسم الجامعة الوطنية والرابطة المصرية وبعيداً عن الجامعة الإسلامية والرابطة الدينية. وفي نفس الوقت امتدحت هذه الصحيفة الإنجليز وأيدت احتلالهم لمصر وأشادت بفوائد ذلك وما أدخلوه من إصلاحات فيها(٣٧).

---

(٣٥) أحمد الشوابكة: المرجع السابق ص ١١٤.
(٣٦) المرجع السابق: ص ١١٥.
(٣٧) المرجع السابق ص ١٦٥، ١٦٦.

أما صحيفة « المقطم » فقد شاركت مثيلاتها وهاجمت الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية، وأعلنت مساندتها للفئات الثائرة على العثمانيين كالأرمن وغيرهم. وسارت في نفس تيار جريدة « مصر » في مهاجمة حملة التبرعات للدولة العثمانية، وطالبت الإنجليز بردع المظاهرات المؤيدة للعثمانيين في مصر، ودعت إلى ضرورة فصل الدين عن السياسة وعدم الخلط بين الحرب والجهاد[٣٨].

أما صحيفة « الوطن » فلم تقف عند حد الهجوم على الجامعة الإسلامية بل تعدته إلى الهجوم على العقيدة الإسلامية ذاتها، ونشرت العديد من مقالات التجريح في التاريخ الإسلامي والعقيدة الإسلامية، فتحت عنوان « الإنسانية تتعذب » نشر « فريد كامل » مقالا قال فيه: « إذا رجعتم إلى تاريخ الإسلام في عصر زهوه وعزه وعظمته ومجده وأردت أن تستخرج من الدفائن المكنونة سر ذلك العز الخالي وسبب تلك العظمة البالية وكشف مواطن الرجال الذين قاموا بالفتوحات واطلعت على دخائل وخفايا القلوب والسرائر في تلك الأيام الماضيات، لعرفت أن الأثرة هي التي أراقت الدماء وأن الأنانية هي التي أزهقت الأرواح وطوحت بالمهج الغالية في هوة البوار، ولأدركت أن الاعتزاز بالقوة والاستهتار بالضعيف هما الحجران اللذان بني عليهما ما يسمى حد الإسلام فكفاهم تعذيبا للإنسانية وكفاهم تمزيقا لجسدها، كفاهم ما أنزلوه عليها من مجالدهم الجهنمية وليسقط المنافقون المكابرون »[٣٩].

---

(٣٨) المرجع السابق ص ١٦٦.

(٣٩) الوطن: ١٥ يونية سنة ١٩٠٨م؛ د. زكريا سليمان: الحزب الوطني ص٤٦؛ أحمد الشوابكة: المرجع السابق ص١٦٢.

وقد وقفت صحيفة «اللواء» لسان حال الحزب الوطني لهذا التيار المعادي للإسلام والجامعة الإسلامية، على أن موقفها كان موقفا تكتيكيا وليس مبدئيًّا فترة مصطفى كامل كما سبق التوضيح.

وعلى الرغم من أن محمد فريد كان في أصله تركيًّا إلا أنه قد سار في تدعيم الإتجاه الوطني على حساب الاتجاه للارتباط بالدولة العثمانية، وكان ذلك بسبب انضمامه للمحفل الماسوني المصري وحصوله على رتبة عالية فيه(٤٠). أما الزعيم الثالث في الحزب، والذي ترأس تحرير «اللواء» بعد وفاة مصطفى كامل وهو الشيخ «عبدالعزيز جاويش» فقد وقف مؤيداً لفكرة الجامعة الإسلامية ومهاجماً لتيار الصحف القبطية المعادي لها والمهاجم للإسلام، وكذلك لدعاة القومية المصرية الذين كونوا حزب الأمة برعاية المندوب السامي البريطاني.

ولم يكن باستطاعة رجل مثل الشيخ جاويش أن يصمت أمام التيار المهاجم للعقيدة الإسلامية والتاريخ الإسلامي، فكتب مقالا يرد فيه على مقال «فريد كامل» بعنوان «الإسلام غريب في بلاده» قال فيه: «أقمتم في أحضان الإسلام زهاء ثلاثة عشر قرنا يعلمكم وينميكم حتى ازداد عددكم وامتلأت بالمال خزائنكم، ولو كنتم عشتم ربع هذا الزمن مع الإنجليز لألحقوكم بالجنس الأحمر في أمريكا أو الصنف الأسمر في استراليا، ولو كنتم من رعايا الملك ليوبولد في بلاد الكونغو لاتخذ من شعوركم حبالاً ومن جلودكم نعالاً، ومزق أجسامكم بالسياط وأنتم ترسفون بالأغلال وتنوؤون بالأحمال الثقال، ولو كنتم من أهل أيرلندا لنبذكم الإنجليز نبذ الحذاء الخلق ولأخرجوكم من دياركم مهينين مقهورين»(٤١).

---

(٤٠) محمد صفوت السقا: الماسونية ص ٢٣٥.

(٤١) اللواء: ١٧ يونية سنة ١٩٠٨م؛ ذ. زكريا سليمان: الحزب الوطني ص٤٨؛ أحمد الشوابكة: المرجع السابق ص١٦٥.

كما أبدى بعض المصريين - من المثقفين ثقافة غربية - تعاطفا مع بعض العناصر الثائرة على السلطان عبد الحميد والتي كانت موجودة في باريس ثم اتخذت من مصر وجنيف مأوى لها بعد أن تمكن السلطان من اكتشاف أمرها. وقد سمحت لهم الظروف في مصر - بوجود الاحتلال البريطاني وحمايته لهم - للتعبير عن آرائهم فأصدروا جرائد خاصة بهم هاجموا فيها السلطان عبدالحميد واتهموه بالاستبداد وفساد الحكم، ومن هذه الصحف صحيفة «أناضولي» التي كان يصدرها «آدنة لي سليمان وحيد» وصحيفة «أرناؤوطلق» للزعيم الألباني «درويش هيما» وصحيفة «جورجونة» لـ«علي حافي»، و«آتين مظلوم» لـ«مصطفى راغب»، و«فريات» لـ«أحمد توفيق»، و«ميزان» لـ«مراد بك» والتي كانت تنشر آراء تدعو إلى الحرية والدستور والقومية، وقد صدرت أغلب هذه الصحف في المدة من سنة ١٨٩٥م إلى سنة ١٩٠٧م.

ومع ذلك فإن هذه الصحف كانت تعبر عن وجهة نظر أصحابها سواء كانوا من دعاة الحرية أم من التابعين المأجورين من رجال تركيا الفتاة، وأن وجود الامتيازات التي تمتع بها الأجانب في مصر في ملكية الصحف في ظل الاحتلال قد مكنهم من ذلك وهي أمور تظهر أنهم لم يلقوا تأييدا من غالبية المصريين وأن تأييدهم كان قاصراً على قلة من المثقفين الليبراليين في مصر.

وظهر اتجاه بين أفراد الأسرة الحاكمة في مصر يناصر بعض رجال تركيا الفتاة في اتجاههم المعادي للسلطان والسعي لخلعه. من ذلك أن البرنس مصطفى فاضل باشا وضع ثروته لخدمة أغراض الثائرين على السلطان في عهد السلطان عبدالعزيز، وأن الخديو عباس حلمي الثاني دفع أربعة آلاف جنيه لأحد أعضاء تركيا الفتاة وهو إسماعيل كامل بك الذي يدبر المؤامرات لخلع السلطان عبدالحميد، كما أن الخديو قد

استقبل البرنس صباح الدين حين أتى إلى مصر طلباً لمساعدته لنفس الهدف، كما انضم أحد أعضاء الأسرة المالكة إلى جماعة الاتحاد والترقي وهو البرنس سعيد حليم، ويلاحظ أن هؤلاء جميعا كانوا من أعضاء المحافل الماسونية(٤٢).

ويرى كثيرون من المفكرين المسلمين أن التيار الداعي إلى الخلافة العربية والذي دعا إليه «عبد الرحمن الكواكبي» وعبد الحميد الزهراوي والمفكر الإنجليزي «بلانت» يعد من التيارات المعادية لفكرة الجامعة الإسلامية وذلك لكونه قد دعا إلى الفصل بين المسلمين وتمزيق وحدتهم، كما أن الفكر الشمولي الإسلامي لا يمكن وضعه في إطار قومي، فضلا عن أن دعاة هذا التيار قد طرحوا فكرة فصل الدين عن الدولة فأكدوا سبق تأثرهم بالأفكار العلمانية عن الأفكار الإسلامية(٤٣).

وبشكل عام فإنه يمكن القول بأن السلطان عبد الحميد قد حقق للجامعة الإسلامية نجاحا يبدو أمام الباحثين محدودا، وفرض على أوروبا ضرورة الحذر من استمرار استخدام سلاح الإسلام، وكان من نتيجة ذلك أن أوقفت دول أوروبا هجومها العسكري على الولايات العثمانية، بعد احتلال بريطانيا لمصر، وزاولت بسط نفوذها من خلال المجال الاقتصادي والثقافي في الفترة المتبقية من حكم عبد الحميد(٤٤)، وحاولت محاصرة الفكرة من خلال الصحف والكتب التي أشرفت على إنشائها وعلى اتجاهاتها، ومولت الدعاة المعادين لهذه الفكرة، وحجبت

---

(٤٢) انظر: د. زكريا سليمان: موقف مصر من المتغيرات في تركيا ص ١٤-١٦.
Kamal Karpat, Turkey's Politics: The Transition to a Multi-party System, Perncetin University Press. N.J. 1909. P. 18, 19.

(٤٣) د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص ١٠٤.

(٤٤) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق ص ٢٥٣.

بقواتها العسكرية، إلى جانب عملائها، بين الجماهير المسلمة وبين إبداء التعاطف الشعبي المؤيد للجامعة الإسلامية، ووقفت أمام الوسائل المعبرة عن ذلك الأمر الذي جعلها تبدو محدودة أمام الباحثين الذين يقفون عند حد تفسير المدون والمكتوب، في حين أن المتتبع لاتجاه الشعوب يرى أن الفكرة تمثل اتجاها شعبياً جارفاً بين المسلمين أكدته العديد من الأحداث بعد ذلك والتي يمكن أن يقال حتى الآن. كما أن هذه الحركة قد بدت أشمل وأعم حيث تعاطف معها مسلمو الشام والشعب المصري، وكما مثلت إطارا هاما لحركة الكفاح ضد الفرنسيين في الشمال الأفريقي، وكذلك في برقة حيث رفض السنوسيون الفرمان العثماني القاضي بمنحهم الاستقلال عن الدولة العثمانية بعد انسحاب قواتها من طرابلس وتركها للإيطاليين[٤٥]، وظلت اليمن على ولائها للدولة العثمانية، كما أن الفكرة الإسلامية كانت أساساً للدولة السعودية الثالثة برغم بعدها عن الأحداث وانشغالها بالأحداث المحلية داخل الجزيرة العربية[٤٦].

وعلى العكس من ذلك كانت الحركة القومية حركة محدودة في أشخاص دعاتها، ولم تنل تأييداً سوى من أقليات من النصارى في كل من الشام ومصر، وكذلك اعتمدت اعتماداً رئيسياً على مساندة الدول الأوروبية التي استطاعت أن توجهها لحسابها في زيادة حجم نفوذها واستمرار وجودها وزيادة نشاطها التجاري، وكذلك استغلتها الجمعيات السرية اليهودية لتحقيق أطماعها في تمزيق وحدتها وضرب الكيان الإسلامي العثماني الذي شكل عقبة في سبيل تحقيق أهدافها. ولا نتفق في

---

(٤٥) د. رأفت الشيخ: المرجع السابق ص ١٨٨.
(٤٦) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ٢٧٠.

هذا مع الذين فسروا لجوء الاتجاه القومي إلى العمل السري بأنه كان دليلاً على سياسة الاستبداد والكبت حيث كان السبب الحقيقي للجوء الجمعيات القومية إلى السرية هو فقدانها لقاعدة جماهيرية تؤيدها، ومما يؤكد ذلك أن الجمعيات والأحزاب التي جنحت إلى الاتجاه الإسلامي كالحزب الوطني في مصر قد جاهرت باتجاهها واحتمت بتأييد الشعب لها برغم معارضة سلطات الاحتلال البريطاني لهذا الاتجاه[٤٧].

(٤٧) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ٢٧١.

الفصل الحادي عشر

الماسونية وتصاعد التيار القومي وإلغاء الخلافة الإسلامية

- دستور سنة ١٩٠٨ وآثاره.
- رد فعل التيار الإسلامي.
- اليهود يخلعون السلطان عبد الحميد ويسيطرون على تركيا.
- التحالف اليهودي الاستعماري وتمزيق الدولة العثمانية بعد إسقاط عبد الحميد.
- أتاتورك وإعلان الثورة في تركيا.
- إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤م.

الماسونية وتصاعد التيار القومي والغاء الخلافة الاسلامية

في الوقت الذي يكتفي فيه أغلب المؤرخين برصد ظاهرة اتحاد الحركة القومية العربية بالحركة القومية التركية في المرحلة الأولى (١٩٠٨-١٩١١ م)، يفسر البعض هذا الوفاق بأن دعاة الحرية في الحركتين قد التقوا على طريق مهاجمة السلطان عبدالحميد الذي وصفوه بالاستبداد[١]. لكن التفسير الحقيقي لهذا الوفاق- غير الطبيعي- كان رد فعل لنشاط حركة الجامعة الإسلامية التي أصابت المخططات الإستعمارية والأطماع اليهودية بالجمود المرحلي والارتباك الشديد. فليس من المقبول أو المستساغ التقاء دعاة القومية العربية الذين يهدفون للتخلص من حكم الأتراك ويؤكدون أحقية الجنس العربي في حكم ذاته وجذوره الحضارية العريقة، مع دعاة القومية التركية التي انجرف تيار كبير منها إلى الدعوة لعثمنة الولايات العربية[٢]، كما أن التداخل بين دعاة الحركتين كان من الأمور التي تحتاج إلى تحديد وتفسير حيث وجدت عناصر عربية من دعاة القومية يدعون إلى القومية التركية كخليل غانم وأحمد رضا وعزيز المصري، ووجد أتراك يدعون إلى القومية العربية أو القوميات المحلية كمحمد فريد بك في مصر.

---

(١) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص٢٦٧.؛ د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص١١٤

(٢) د. أحمد عبد الرحيم: المرجع السابق ص٢٦٠.

على أن من بين العوامل التي شجعت بعض المفكرين العرب على تأييد جماعة الاتحاد والترقي هو ما أبدته هذه الجماعة من حرص في إقناع العناصر العربية (من خلال اتجاه العثمنة) على تأييدها لقاء وعدها بالمحافظة على أحكام القانون الأساسي (الدستور) وجمع كلمة الملل في الدولة العثمانية دون تفريق في الجنس والمذهب(٣)، وتأييدها لجمعية الإخاء العربي العثماني(٤)، وإظهار تأييدها لإقامة فروع لها بالبلاد العربية. ولا شك أن ذلك كان بديلا - مقبولا لدى البعض - لفكرة الجامعة الإسلامية حيث ينشد الترابط بين الجميع مع السماح بقيام أطر إقليمية قومية يسودها حكم دستوري يلتقي مع إعلان الدستور في تركيا سنة ١٩٠٨م.

ولم يكن هذا الاتجاه يتماشى مع مخططات ومصالح الدول الاستعمارية أو الجمعيات اليهودية السرية ولهذا سعت هذه القوى لإثارة الأقليات المسيحية في البلقان لرفض أي نوع من الارتباط بالأتراك وعدم قبول مبدأ المساواة، وكان نجاح الوحدة الإيطالية والوحدة الألمانية من الأمور التي استغلتها هذه القوى في إثارة هذه الأقليات. كما ساعدت، بل أوجدت، القوى الاستعمارية والجمعيات اليهودية العديد من المتخصصين في الدراسات التركية وشجعتهم على إصدار العديد من المؤلفات التي تربط الأتراك بماضيهم السابق لارتباطهم بالعرب والإسلام، وإظهار ما لعبوه من دور حضاري في آسيا الوسطى ودور لغتهم وثقافتهم في التاريخ الأمر الذي أدى إلى ظهور اتجاه ثقافي يربط الأتراك بحضارات السومريين والطرواديين والحثيين بعد أن كان ارتباطهم بآل عثمان

---

(٣) د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص١١٧.
(٤) تأسست هذه الجمعية في الخامس من أغسطس ١٩٠٨م.

والإسلام هو الاتجاه الذي ظل سائداً طوال فترة وجودهم السياسي(٥).

ولهذا ركّزت المحافل الماسونية في تركيا والولايات العربية على توحيد جهودها، وساعدتها الدول الاستعمارية، على هدفين الأول ضرب السلطان عبد الحميد الذي كان يرمز إلى الاتجاه الإسلامي، تهيئة الجو لتولي عناصر ماسونية تمثلها جماعة الاتحاد والترقي حتى تسير في تطبيق التغيير الدستوري البعيد عن الاتجاه الإسلامي، ولكي ينمو التيار القومي ويختفي تيار العثمنة تمهيداً لتمزيق الروابط بين الشعوب الإسلامية، وبهذا - وبهذا فقط - تتاح الفرصة للسيطرة الاستعمارية ثم تحقيق الأطماع اليهودية في إقامة الوطن القومي في فلسطين.

ولم تكن هذه الأهداف لتتحقق إلا بتجنيد عناصر عسكرية، وكانت هناك العديد من هذه العناصر يهودية الأصل من يهود الدونمة التي تحولت إلى الإسلام اسما مع استمرار صلتها باليهود - كما سبق التوضيح -، فتكونت منها الجمعيات التي لعبت الدور الهام في الاحداث التركية بعد ذلك. فمن بين عناصرها في سالونيك، التي كان أكثر من نصف سكانها من اليهود، تكونت «جمعية الحرية العثمانية» ومن بين عناصرها أيضا تكونت جمعية «الوطن» التي أسسها الضابط «مصطفى كمال»، الذي عرف بعد ذلك بأتاتورك، وتأسست في دمشق، ومن خلال المحفل الماسوني فيها، سنة ١٩٠٦ م، وكانت فروعها في هذه المحافل، في بيروت وفي القدس وفي العريش ثم في سالونيك (مسقط رأسه) حيث تلقت دعما من اليهود، وفتحت أبواب المحافل الماسونية لاجتماعاتها، وفي ظل رعوية إيطالية وأوروبية جعلتهم في مأمن من متابعة الحكومة التركية، وكما يذكر الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى أن «كثيراً من

---

(٥) د. أحمد عبد الرحيم: المرجع السابق ص٢٦١.

ضباط مقدونيا أصبحوا ماسونيين، وكان بإمكانهم أن يعقدوا اجتماعاتهم ويضعوا مخططاتهم في منازل اليهود وهم آمنون»[٦].

وبعد أن مكنت هذه العناصر لأنفسها في الجيش من خلال العناصر الماسونية والمساعدات اليهودية والاستعمارية التي أمدتها بالأموال ودربت عناصرها العسكرية، أعلن هؤلاء القادة تمردهم على السلطان، أنور في مقدونيا، ونيازي ومعه بعض أفراد العصابات، وطلعت بك الذي كان موظفاً في البريد، وكلهم من العناصر الماسونية.

وحين استطاعت جواسيس السلطان عبد الحميد الإبلاغ عن وجود فرع لهم من مجموعة ماسونية من الاتحاد والترقي التي يرأسها نيازي، فروا إلى التلال وبدأوا حرب عصابات، وكذلك قوة أخرى بزعامة أنور باشا[٧]. وحين أرسل السلطان قائدا آخر ليحل محل نيازي دبرت له العناصر الماسونية مؤامرة واغتالته، ولعبت المحافل الماسونية والعناصر اليهودية دوراً بارزاً في إثارة القلاقل وإعلان العصيان الأمر الذي أدى إلى قبول السلطان عبد الحميد لإعلان عودة الدستور[٨]. وأعقب ذلك تدبير مهرجانات شعبية ترفع شعارات الماسونية (الحرية والعدالة والمساواة)، وأعلنت العناصر المدسوسة ابتهاجاً بالدستور الذي لم يكن له مدلول واضح لدى الجماهير التي شلت حركتها ووقفت مجبرة في موقف المتفرج، وأصبح الطريق مفتوحا لإنهاء عبد الحميد كآخر رمز للجامعة الإسلامية[٩].

---

(٦) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق ص٢٦٤، ٢٦٥.

(٧) أبلغ إسماعيل باشا ماهر السلطان بأبعاد المؤامرة، وقد اغتيل في ظروف غامضة، انظر: محمد صفوت السقا: الماسونية، ص ٢٠٤.

(٨) د. أحمد عبد الرحيم المرجع السابق ص ٢٦٨.

(٩) المرجع السابق ٢٦٩.

وعلى الرغم من نجاح هذا الإنقلاب، ونجاح الأساليب الدعائية الماسونية والاستعمارية في جعل أنور باشا ونيازي بطلين شعبيين إلا أن ذلك كان هدفا مرحليا من أهداف هذه القوى، حيث كان الهدف الرئيسي هو إنهاء حكم عبد الحميد تمهيداً لإنهاء نظام الخلافة الإسلامية، ومما يدل على ذلك بقاء القيادة المركزية من ضباط مقدونيا الماسونيين سرية، وبقاء مساعيها في التغلغل داخل الجيش، وهي أمور كانت تشير إلى اقتراب القيام بحركة أخرى في طريق هدفها الحقيقي(١٠).

رد فعل الاتجاه الإسلامي على إعلان الدستور سنة ١٩٠٨م:

وعلى الرغم من سيطرة أعضاء جماعة الاتحاد والترقي في السيطرة بأعداد كبيرة على المجالس النيابية التي أسفرت عنها الانتخابات من خلال مساندة القوى المعادية الممثلة في الدول الإستعمارية والمحافل الماسونية اليهودية إلا أن العناصر الإسلامية في هذه المجالس وفي تركيا قد أبدوا اعتراضهم على ذلك التحول إلى العلمانية وأعلنوا رفضهم للدستور، وقد لقي هذا الاتجاه استجابة شعبية واسعة النطاق، وتداول الجميع مقولة أن الشريعة الإسلامية أصبحت في خطر وأن الدول المسيحية في طريقها للسيطرة على البلاد. ولم يستطع الاتحاديون الماسونيون تحمل تنامي هذا الاتجاه الذي يهدد بعودة إحياء الجامعة الإسلامية، وبخاصة بعد أن سرت هذه الأفكار بين جنود الجيش، وخروج بعضهم لمهاجمة مجلس المبعوثان، ومطالبتهم بإسقاط حكومة الاتحاد والترقي، وتجاوب الكثيرون من العناصر الإسلامية في الأناضول والشام مع هذا الاتجاه(١١).

---

(١٠) المرجع السابق ٢٦٩.

(١١) د. أحمد عبد الرحيم: المرجع السابق ص٢٧١، ٢٧٢.

وأسفر هذا الاتجاه عن قيام الاتجاه الإسلامي في تركيا بتمرد مسلح في استانبول في إبريل سنة ١٩٠٩م سبقه اجتماع في ٥ إبريل في مسجد أياصوفيا أسفر عن قيام جماعة أطلقت على نفسها اسم «الاتحاد المحمدي» بزعامة أحد دراويش البكتاشية ويسمى (فاهديتي) التي دعت من خلال جريدتها «البركان» إلى ثورة إسلامية عالمية، ورفعت شعارات «نريد الشريعة»، «الشريعة في خطر»، لكن جماعة الاتحاديين - بمساعدة استعمارية ويهودية - نجحت في القبض على زعمائها وإعدامهم وإنهاء نشاطهم(١٢). وقد استمر هذا الاتجاه حتى بعد خلع السلطان عبدالحميد حيث قامت ثورة قادها أحد ضباط الدرك ويسمى علي كمال سنة ١٩١٠م، وكان هدفها الاطاحة بالحكومة القومية وإعادة الشريعة الإسلامية، لكنها منيت بالفشل هي الأخرى(١٣).

اليهود يخلعون السلطان عبد الحميد ويسيطرون على تركيا:

ورأى الاتحاديون أن وجودهم لا يمكن له أن يستمر مع استمرار السلطان عبد الحميد، ولهذا تحركت القوات العسكرية من سالونيك، حيث المؤامرات اليهودية والامداد الإستعماري، بزعامة محمد شوكت باشا، وانضمت إليه عصابات نيازي وأنور. واجتمع مجلس المبعوثان في ظل هذه الحماية العسكرية وأعلن خلع السلطان عبدالحميد، واستصدار فتوى من شيخ الإسلام تقر ذلك، وتعيين السلطان محمد رشاد، الذي كان على صلة وطيدة بالمحافل الماسونية، ليحل محله، وليصبح ألعوبة في يد عناصر الاتحاد والترقي الماسونية اليهودية. ونجحت الحركة الماسونية

---

(١٢) برنارد لويس: المرجع السابق ص١٦٤.

(١٣) المرجع السابق ص١٦٤.

اليهودية، التي ساعدتها القوى الاستعمارية لاتفاق مصالحها، في ضرب عاصمة الخلافة الإسلامية[١٤]، وبدا ذلك واضحا في الوفد الرباعي الذي أبلغ عبد الحميد بقرار خلعه حيث ضم الوفد أحد المحامين اليهود الذي كان رئيسا لأحد المحافل الماسونية في سالونيك وهو «عمانويل كاراسوفتوس»[١٥]، كما قام السلطان محمد رشاد بتعيين يهودي ماسوني هو العقيد رمزي بك رئيسا لأركان حرب السلطان، وجاويد بك وهو يهودي ماسوني أيضا وزيراً للمالية، وطلعت بك وزيراً للداخلية، فضلا عن سيطرة عناصر يهودية أخرى على المطبوعات ووكالات الأخبار والمحاكم العرفية العسكرية وضباط في الشرطة وأمين العاصمة ونائبه وغير ذلك[١٦]، الأمر الذي أدى إلى انتشار شائعات بين الناس أكدوا فيها أن الثورة على السلطان عبد الحميد حركة يهودية وليست ثورة تركية.

ومما دفع الناس على زيادة هذا الاعتقاد قيام العديد من الصحف اليهودية في سالونيك بإعلان فرحة اليهود بانتهاء عهد عبد الحميد الذي لقبته بـ «مضطهد إسرائيل» والذي حال دون تحقيق أحلام اليهود في فلسطين[١٧]، وكذلك ما تسرب من أنباء المؤتمر اليهودي الصهيوني في هامبرغ سنة ١٩٠٩م وإعلان المؤتمرين بأن انقسام اليهود قد انتهى وعادوا موحدين بفضل «معجزة الثورة التركية»[١٨].

---

(١٤) د. أحمد عبد الرحيم: المرجع السابق ص٢٧٢، ٢٧٣.
(١٥) د. عمر عبد العزيز: تاريخ المشرق العربي ص٢٩١.
(١٦) محمد صفوت السقا: المرجع السابق ص٢٠٧.
(١٧) المرجع السابق: ص٢٠٦.
(١٨) المرجع السابق ص٢٠٨.

التحالف اليهودي الاستعماري وتمزيق الدولة العثمانية بعد إسقاط عبد الحميد:

لم يعد استمرار الجمعيات التي تدعو لدوام ارتباط الأتراك بالعرب أمرا مرغوباً فيه من قبل العناصر القومية في جماعة الاتحاد والترقي بعد أن استفادت بجهودها في خلع السلطان عبد الحميد، ولهذا بادرت حكومة الإتحاديين بحل جمعية «الإخاء العربي العثماني» في أعقاب إسقاط عبد الحميد. وفي نفس الوقت سمحت هذه الحكومة لعديد من الصحف، أو دفعتها، لكتابة العديد من المقالات المستفزة للعناصر العربية كصحيفة «طنين» التي استغلت قيام بعض الثورات في اليمن ووجهت العديد من الإهانات للشعب اليمني، وكانت مثل هذه المقالات، وغيرها من تصرفات الحكومة الاتحادية، تشير بوضوح إلى سيرها في طريق التعصب الجنسي للتركية[١٩].

وكان من أبرز ملامح الدور الذي لعبه الاتحاديون في تنفير العناصر العربية، إلى جانب دور الصحافة، مسألة اللغة حيث أصروا على أن تكون اللغة التركية هي لغة التخاطب الرسمي والتعليم والدواوين وغير ذلك ولدرجة وصلت إلى حد السعي لإبعاد أحد الوزراء العرب في الحكومة العثمانية بسبب لجوئه إلى دعاء باللغة العربية في آخر خطاب له ألقاه بالتركية أمام مجلس المبعوثان، وقيامه بتعيين أربعة من المفتشين العرب بين خمسمائة من الأتراك[٢٠]. كما سلكت الحكومة الاتحادية في تطبيق مبدأ المركزية في الحكم وتشددت في ذلك لدرجة جعلت العديد من العناصر، ومنها العرب، ينفرون من هذه السياسة، وكانوا قد عابوا

---

(١٩) د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع الساق ص١٢٠، ١٢١.

(٢٠) د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص ١٢٦، ١٢٧.

من قبل على السلطان عبد الحميد إتباعه لمبدأ مركزية الحكم واتهموه بالاستبداد مع أنه كان يشرع في إصلاح أحوال البلاد(٢١).

ومع أن هذه السياسة قد دفعت الولايات البلقانية للسير في طريق الإستقلال الكامل وبمساعدة الدول الإستعمارية، وهو كان مخططا له، إلا أن بعض العناصر العربية، برغم تأثيرها، قد ظلت تنادي بأي شكل من أشكال الترابط والاتحاد بين العرب والأتراك كالجمعية القحطانية التي تأسست في أواخر سنة ١٩٠٩م، وقد انقسم أعضاؤها إلى فريقين حيث دخل العسكريون منهم جمعية العهد وأسس المدنيون جمعية العربية الفتاة.

ولكي ينهي الاتحاديون هـذا الاتجـاه كليـة كشفوا من مواقفهم العدائية، ووفق سياسة يهودية استعمارية مرسومة، تجاه العرب، فمنحت حكومتهم امتياز الملاحة النهرية في نهري دجلة والفرات لشركة لنج الإنجليزية سنة ١٩٠٩م دون عرضه على مجلس المبعوثان(٢٢)، وأثار الولاة الاتحاديون القلاقل بين المسيحيين والمسلمين في الشام، إلى جانب الموقف المتقاعس والواضح من حكومتهم في الحرب الطرابلسية في ليبيا سنة ١٩١١م أمام إيطاليا وإعطاء الأوامر لجيشهم بالانسحاب من طرابلس بعد الاحتلال الإيطالي لها(٢٣).

---

(٢١) قامت العديد من الجمعيات العربية التي تعلن رفضها للمركزية وتطالب بدوام الارتباط بالعثمانيين؛ د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص ١٤٨، ١٤٩.

(٢٢) د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص١٣٤.

(٢٣) كان إخلاص عزيز المصري في مقاومة إيطاليا في طرابلس مثار خلاف بينه وبين أنور وإن كان قد بدا في صورة أخرى، د. محمد عبد الرحمن برج: المرجع السابق ص١١٩.

وفور عودة أنور بك من الحرب الطرابلسية التي سلم فيها القوات الإيطالية ليبيا، دبر انقلاباً ضد الحكومة الاتحادية القائمة في يناير سنة ١٩١٣م وأقال الصدر الأعظم وعين مكانه محمود شوكت باشا الذي قاد جيش سالونيك ضد السلطان عبد الحميد، وتحولت الحكومة إلى حكومة عسكرية ديكتاتورية أغلبها عناصر ماسونية، وأصبح لا أمل في الإصلاح، وظلت هكذا حتى حققت هدفها وسلمت كل ولايات الدولة للإستعمار الغربي في نهاية الحرب العالمية الأولى. وبخاصة بعد أن تحقق الهدف اليهودي في صدور وعد بلفور سنة ١٩١٧م لإقامة وطن قومي لهم في فلسطين.

ومع التسليم بأن الجيش العثماني كان في حالة من الضعف جعله لا يستطيع التصدي للأطماع النمساوية في البلقان وضمها للبوسنة والهرسك وكذلك تمكن البلقان من إعلان استقلالهم بمعاونة الدول الأوروبية، إلى جانب الدور الروسي في البلقان وفي الولايات المجاورة له وأطماعه في المضائق[٢٤]، إلا أن هذه الأخطار الخارجية لا يمكن أن نعلق عليها كافة الأسباب في تفسير التخبط الذي أحاط بحكومة الاتحاديين، ذلك لأن ضعف هذه الحكومة وتخبطها يرجع في الأساس إلى اختلاف أعضائها في توجهاتهم بين العثمنة والطورانية واستغلال الجانب الإسلامي، كما أن ولاء الكثيرين من أعضاء جماعة الاتحاد والترقي لأطماعه الشخصية قد فاق ولاءه لبلاده، فضلا عن التزام الكثيرين منهم بالارتباط بالمحافل الماسونية وبخاصة في سالونيك والحرص على تحقيق أهداف اليهود بخاصة أنهم كانوا في أغلبهم من أصول يهودية، إلى جانب كل هذا فإنهم لم ينعموا بتأييد كامل داخل الجيش أو يكونوا لهم ظهيراً شعبياً، ولهذا

---

(٢٤) د. أحمد عبد الرحيم: المرجع السابق ص٢٧٦، ٢٧٧.

فإنهم المسؤولون عن حالة الضعف والفوضى والانهيار التي عاشتها الإمبراطورية العثمانية في سنواتها الأخيرة منذ ثورتهم المدبرة على السلطان عبد الحميد وحتى توقيعهم لمعاهدة سيفر المهينة في نهاية هذه الحرب سنة ١٩٢٠م، حيث تم حل لجنة الاتحاد والترقي ومصادرة أملاكها وحل البرلمان، ولكن كانت كل الولايات قد خضعت للإستعمار الغربي، بل وان قوات الحلفاء قد سيطرت تماما على عاصمة الخلافة ذاتها(٢٥).

مصطفى كمال أتاتورك وإعلان الثورة في تركيا:

في أعقاب توقيع الأتراك لمعاهدة موندروس بدأت قوات الحلفاء تزحف لاحتلال الأراضي التركية في نوفمبر سنة ١٩١٨م دون أن تلقى مقاومة تذكر من جانب الجيش التركي المهزوم. ولم يكن أمام الأتراك سوى انتظار ما يمليه عليهم مؤتمر الصلح في باريس، بل وجدت أصوات في تركيا تنادي بالانتداب الانجليزي وآخرون يفضلون الانتداب الأمريكي وجماعة ثالثة تفضل فرنسا، وكانت هذه النداءات تعكس مدى اليأس النابع من الشعور بالهزيمة(٢٦).

ومما زاد الأمر سوءاً قيام اليونانيين بمهاجمة أزمير بالاتفاق مع الحلفاء وبمعاونتهم أثناء انعقاد مؤتمر الصلح، وحاول الأتراك أن يجدوا صدى لاحتجاجهم على ذلك لكن دون جدوى، كما لم تفلح جهود بعض الجماعات الوطنية في استانبول لإنقاذ أزمير ووقف هذا الهجوم(٢٧). فاتجه كثيرون من هذه العناصر الوطنية في استانبول إلى الأناضول لتنضم

---

(٢٥) د. أحمد عبد الرحيم: المرجع السابق ص٢٩٦.
(٢٦) فتحي رضوان: مصطفى كمال أتاتورك، القاهرة سنة ١٩٨٣م ص ١٨.
(٢٧) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ط ، ص٦٨٧، ٦٨٨.

إلى بعض العناصر الثائرة التي تحتمي فيها والتي لم تكن تعد مجموعات متفرقة من العصابات فأعطاها ذلك ثقلا أكثر، وأسهم في اتحادها بعد أن أوضحت لها العناصر المهاجرة ما أصبحت عليه العاصمة[٢٨]. ورفضت العناصر المهاجرة التي أصبحت أكبر شأنا أن تسلم أسلحتها لقوات الحكومة المأمورة بأمر الحلفاء المحتلين، فبحثا سويا (قوات الاحتلال والحكومة التركية الخاضعة لها) عن كيفية قبر هذه الحركة والقضاء عليها، ووقع الاختيار على أحد ضباط الجيش لتكليفه بهذه المهمة وهو الضابط مصطفى كمال، وعين مفتشا عاما للجيش التاسع الذي شملت اختصاصاته شرقي الأناضول ومقره سامسون على الساحل الجنوبي للبحر الأسود[٢٩].

وكان اختيار «مصطفى كمال» لهذه المهمة راجع إلى قدرته العسكرية التي أبداها خلال الحرب الأولى وإدراك سلطات الاحتلال لرفضه دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا وتنبؤه بهزيمة ألمانيا منذ بداية الحرب[٣٠]، كما أنها كانت تريد التخلص منه بإبعاده بعد تسريح الجيش ذلك لأن استمراره بلا عمل قد يشكل قلقا لهم وبخاصة بعد مجاهرته برفض معاهدة موندروس. وبدلا من أن ينفذ الأوامر الرسمية التي كلف بها وهي إعادة الأمن والنظام وتجريد العصابات المسلحة

---

(٢٨) د. زكريا سليمان بيومي: موقف مصر من المتغيرات في تركيا بين الحربين العالميتين، القاهرة ١٩٨٩م ص ٣٨.

(٢٩) د. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها جـ٣ ص ١١٦٤؛ وحول المزيد من سيرة مصطفى كمال انظر: حلمي مراد: مصطفى كمال أتاتورك - القاهرة ١٩٧٦م؛ عبد الله عبد الرحمن «مترجم»: الرجل الصنم، بيروت سنة ١٩٧٧م.

(٣٠) فتحي رضوان: المرجع السابق ص١٨.

والقوات العثمانية من سلاحها وتسريحها قام بعكس ذلك[٣١].

وقد تمكن «مصطفى كمال» من أن يجمع الثوار حوله بسرعة فائقة، ولكي يعلن رفضه للمهمة التي جاء الأناضول كي ينفذها أعلن في ٨ يوليو سنة ١٩١٨م تنازله عن جميع رتبه وألقابه العسكرية والمدنية، وكان لذلك صدى هائلا لدى جموع الثوار وأغلب فئات الشعب التركي مما أدى إلى اختياره رئيسا لمؤتمر أرضروم الذي انعقد في غضون أسبوعين من إعلانه تنازله، وقرر المؤتمرون برئاسته الدفاع عن استقلال تركيا ورفض جميع الانتدابات وجميع الحمايات. وعبثا حاولت حكومة استانبول - بايحاء من الحلفاء - إثناء «مصطفى كمال» عما اعتزمه، فقد رفض قراراً أصدرته حكومة استانبول بإعادته إلى العاصمة ورد على ذلك بقطع الاتصال بين الأناضول وبين الحكومة في العاصمة[٣٢]. بل إن جهوده وضغوطه قد نجحت في إسقاط الوزارة القائمة التي كان يرأسها «الداماد فريد» (زوج شقيقة السلطان) ولم يكن قد مضى على وجودها ستة أشهر، وتولت وزارة جديدة برئاسة «علي رضا» الذي اعترف بالحركة الوطنية في الأناضول وتفاوض معها، وقبل اقتراحها بإجراء انتخابات جديدة للبرلمان فاز فيها الكماليون بأغلبية المقاعد[٣٣].

ولم يرق ذلك للحلفاء فأبعدوا الحكومة وأعادوا حكومة «الداماد فريد»، ودخلت جيوشهم الآستانة في ١٦ مارس سنة ١٩٢٠م، فما كان من الجمعية الوطنية في الأناضول إلا أن اختارت مصطفى كمال رئيسا

---

(٣١) د. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق ص١٦٦٥.

(٣٢) كارل بروكلمان: المرجع السابق ص ٦٩٠؛ وانظر أيضاً:

Bernard Lewis: The emergence of Modern Turky, Oxford. u. P. 1961, P.P. 245, 246.

(٣٣) د. زكريا سليمان: المرجع السابق ص٤٠.

لها، وقررت اعتبار السلطان «وحيد الدين» أسيرا للأعداء. فكوّن السلطان مجلسا عسكريا في الآستانة لمحاكمة مصطفى كمال وأصدر قرارا بإعدامه وكبار أعوانه، فاستصدر مصطفى كمال فتوى من علماء ومشايخ الأناضول بخيانة رجال حكومة الآستانة الأسيرة نحو الدين والأمة والوطن[٣٤]. ولم يكن أمام حكومة الآستانة إلا أن توقع على معاهدة سيفر في أغسطس سنة ١٩٢٠م حيث أقرت سلخ الولايات العربية ومنح أزمير وأقسامها الداخلية استقلالاً داخلياً ومنح بعض الأراضي لليونان وأخرى لإيطاليا.

واستعدت حكومة اليونان لمواصلة الحرب أملا في كسب مزيد من الأراضي، فتصدت لها الحركة الوطنية في الأناضول وحققت العديد من الانتصارات. وفي نفس الوقت قامت حكومة مصطفى كمال بتوقيع عدة معاهدات مع روسيا التي تعاطفت مع حركته منذ قيامها، وكذلك مع فرنسا[٣٥].

ونوضح بداية أن اتصال حركة أتاتورك بالروس لم يكن يعني تأثرها بالأفكار الاشتراكية لكنه كان يعكس رغبة زعماء الحركة في البحث عن التأثير الدولي من جهة وكذلك لتأمين جبهتهم مع روسيا حتى تتفرغ لمواجهة المحتلين من جهة ثانية، كما أنها لم تكن تريد أن تخسر تأييد التنظيمات اليسارية التركية التي كان يتزعمها حزب العمال والفلاحين الاشتراكي الذي تأسس سنة ١٩١٩م وحزب المشاركة الشعبية الذي تأسس سنة ١٩٢٠م برغم قلة مؤيديهم[٣٦].

---

(٣٤) د. زكريا سليمان: المرجع السابق ص٤٠.

(٣٥) كارل بروكلمان: المرجع السابق ص٦٩٢، ٦٩٣.

(٣٦) د. زكريا سليمان: المرجع ص٤٣.

أما من جهة الروس فقد حاولوا الاتصال بدول العالم الإسلامي ومساندة الحركات الثورية فيه ضد الاستعمار الغربي هادفين إلى دعم ثورتهم في الداخل والخارج، إلى جانب السعي لإضعاف الضغط الاستعماري، والبريطاني بشكل خاص، على الثورة الروسية الوليدة(٣٧).

أما المؤثرات الداخلية على حركة مصطفى كمال في الأناضول فلا شك أن العامل الديني كان له أثر بالغ في نموها وتطورها، ففي أعقاب نزول القوات اليونانية إلى أزمير بمساعدة قوات بحرية من الحلفاء نزل اليونانيون شوارع المدينة يصبون اللعنات على المسلمين ويطلقون النار ويقتلون كل من وقف أمامهم، ووجهوا إهانات بالغة إلى كل المسلمين الأتراك، وأعلن قادة الجيش اليوناني عزمهم على مواصلة احتلال الأناضول لإحياء الإمبراطورية البيزنطية(٣٨). وعلى الرغم من إصدار السلطان وحيد الدين أوامره بعدم التصدي للقوات اليونانية في أزمير إلا أن الكثير من الجمعيات الوطنية التي تأسست في هذه الفترة قد أعلنت رفضها لما يتبعه اليونانيون، واجتمع حوالى خمسين ألفا في الميدان الكبير في استانبول يحملون الأعلام السوداء، وألقت فيهم إمرأة خطبة حماسية قالت فيها: « «أيها الاخوة والأخوات... أيها المواطنون... أيها المسلمون.. حيث يشتد سواد الليل ويبدو أنه لن ينتهي، تكون أضواء الفجر على وشك أن تبزغ »(٣٩).

---

(٣٧) د. جمال محمود محمد حجر: بريطانيا والنشاط السوفييتي في الحجاز ١٩٢٤-١٩٣٨م، قطر ١٩٨٨م ص٣٣، ٣٤ ؛ د. فاضل حسين: محاضرات في مؤتمر لوزان، القاهرة سنة ١٩٠٨م ص ١١.

(٣٨) د. أحمد عبد الرحيم: المرجع السابق ص٢٩٨.

(٣٩) د. أحمد عبد الرحيم: المرجع السابق ص٣٠٩.

وبدا الطابع الإسلامي لهذه الحركة في أول مراحلها حيث كان شعارها تحرير أرض الإسلام وشعوب الإسلام وتحرير الخليفة - السلطان - وطرد الغزاة الكفار، وكان أبرز المؤسسين للحركة هم من زعماء الدين أحدهم كان شيخاً للطريقة النقشبندية. كما ضم المجلس الوطني الكبير، والذي بلغ عدد أعضائه ثلاثمائة وواحد وستين عضوا، ثلاثة وسبعون عضوا من علماء الدين ومن تولوا وظائف الإفتاء ومشايخ الطرق الصوفية[٤٠].

ويتضح لجوء مصطفى كمال إلى الاتجاه الإسلامي في البيان الذي أصدره كفتوى من مشايخ وعلماء الأناضول ضد قرار السلطان بإعدامه ورفاقه بأن رجال حكومة الآستانة قد أقدموا على خيانة الدين والأمة والوطن وكان ذلك بعد أن اتخذ أنقرة عاصمة لحركته وكون فيها حكومة أعلن أنها الحكومة الشرعية وليست حكومة الآستانة، وشكل برلمانها باسم «المجلس الوطني الكبير».

وبعد أن نجحت القوات الوطنية بزعامة مصطفى كمال في هزيمة القوات اليونانية في موقعة سقاريا سنة ١٩٢١م وصلته العديد من رسائل التهاني من قبل الدول الإسلامية، بل وتطلعت إليه بعض هذه الدول ليكون قائداً للشرق في مواجهة الغرب[٤١]. ونقلت عنه بعض الصحف المصرية في مؤتمر الصلح الذي عقد لتخفيف شروط معاهدة سيفر قوله: «أن حكومة الأناضول تحترم وتقدس التقاليد والخليفة، وأن

---

(٤٠) برنارد لويس: الغرب والشرق الأوسط ص١٦٨، ١٦٩. ويلاحظ أن مصطفى كمال قد غدر بهؤلاء الذين شاركوه في تأسيس الحركة الوطنية واصدر قرارا بإلغاء الطرق الصوفية وإغلاق تكاياها بعد أن استقرت له الأوضاع في تركيا، وهو نفس أسلوب محمد علي باشا وجمال عبد الناصر وغيرهم من المنتمين إلى المحافل الماسونية.

(٤١) د. أحمد عبد الرحيم: المرجع السابق ص٣٠٩.

الأمة ومجلسها الوطني يعتمدان على الله ورسوله اعتمادا مطلقا، وأنها ستتحد مع الآستانة على هذه الأسس[٤٢].

ومع ذلك فإن مصطفى كمال قد أقدم على إلغاء السلطنة مع الإبقاء على منصب الخلافة بما يعنيه ذلك من فصل للسلطة الدينية عن السلطة الزمنية، وقد أقدم على ذلك بعد أن استقرت الأوضاع لصالحه في تركيا بلا منازع بعد مؤتمر لوزان ونتيجة لما حققه من انتصارات استعاد بها هيبة تركيا، وكان ذلك بداية لخطوات سريعة في طريق العلمانية وإلغاء الخلافة الإسلامية.

إلغاء الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م:

لم يكن إلغاء الخلافة هو بداية تحديد موقف حكومة وموقف مصطفى كمال من الدين واتجاههم نحو تحديث دولتهم على أسس علمانية بل سبقته العديد من الخطوات التي اتخذتها هذه الحكومة. وقبل أن نتعرض لهذه الخطوات ينبغي أن نشير في البداية إلى أن مصطفى كمال نفسه كان ينتمي إلى يهود الدونمة في سالونيك، كما أن الجمعية التي أسسها قبل الحرب العالمية الأولى (سنة ١٩٠٧م) وهي جمعية الوطن في دمشق كانت جمعية ماسونية، وكانت فروعها في كل من بيروت والقدس والعريش تتخذ من المحافل الماسونية مقراً لها ومن أعضاء هذه المحافل أعضاء ومؤيدين ومولين لها، وبالطبع فإن ذلك الانتماء، الذي شاركه فيه بعد ذلك نائبه عصمت إينونو، ، كان لا بد أن يضع جهوده في إطار قومي بعيدا عن التيار الديني ويسير في تحديث الدولة على أسس علمانية كما هي طبيعة الأفكار الماسونية.

---

(٤٢) الأخبار: ٦ مايو ١٩٢١م.

وبعد ذلك يمكن إدراك الدوافع التي دعته لأن يعتمد على التيار الإسلامي في بداية تأسيس حركته ثم يدير ظهره لهذا التيار بعد أن أصبحت الأمور في يده. فقد قام بفصل السلطة الدينية عن السلطة الزمنية في أول نوفمبر سنة ١٩٢٢م، وتضمن القرار تولي المجلس الوطني الكبير في أنقره اختيار الخليفة وتعيينه من بين أمراء أسرة آل عثمان ولا يكون سلطاناً بل خليفة فقط، وتلا ذلك أول إجراء تطبيقي لهذا القرار حيث عزل السلطان محمد السادس «وحيد الدين» ونفي إلى مالطة في ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٢، واختار المجلس الوطني الكبير «عبد المجيد بن عبد العزيز» خليفة بدلا منه[٤٣].

وعقب ذلك أصدرت الحكومة الكمالية قراراً بالغاء منصب شيخ الإسلام، وهرب الشيخ مصطفى صبري آخر من تولى هذا المنصب إلى مصر، وكتب العديد من المقالات أوضح فيها ما يضمره الكماليون للإسلام وشريعته وأهله وما ينطوون عليه من خبث النية وفساد الدين، وأكد في أحد هذه المقالات «أن الخلافة التي ابتدعوها مجردة من السلطة ليست من الإسلام في شيء، وأن فصل الدين عن الدولة ليس إلا وسيلة للتخلص من سلطانه وشريعته وقيوده وتجاوز حدوده»[٤٤]. وكتب الشيخ مصطفى صبري مقالا يرد فيه على مؤيدي الكماليين دعا فيه كل شعوب العالم الإسلامي إلى التمسك بالخلافة الصحيحة وضرورة السعي لإقامتها وعدم الموافقة على ما فعلته الحكومة الكمالية، وتساءل «لماذا اختارت أنقرة أن تختص نفسها بالسلطة المدنية وتركت الخلافة التي

---

(٤٣) د. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية، جـ ١ ص٥٨ ؛ د.أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق ص ٣١٠.

(٤٤) د. محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، جـ٢ ص٣٣.

تجعلها تتصف بالصفة الدينية؟ أليس هذا دليل رغبتهم في السطلة المادية وإعراضهم عن الخلافة الدينية؟ وما هي الضرورة التي أوجبت على هذه الحكومة الفصل بين السلطتين، ألا يؤكد هذا أن الحكومة الكمالية حكومة غير إسلامية؟ »[٤٥].

ومع ذلك ظلت الحكومة الكمالية تلوح بين الحين والآخر بأنها لا تعادي الدين وأنها على العكس حريصة على التمسك به، فذكر مصطفى كمال في إحدى خطبه أن حكومته مبنية على قواعد الشورى والعدل وإطاعة أولياء الأمور وكلها أحكام شرعية، وأن مسألة الخلافة ليست من اختصاص الدولة التركية وحدها بل من اختصاص العالم الإسلامي جميعه، وأن حكومته ستحافظ على مقام الخلافة كنقطة أمل إلى أن يصل العالم الإسلامي إلى مستوى يؤهله لأن يحل مسألة الخلافة[٤٦]. بل أن مصطفى كمال أتاتورك قد صرح قبيل إلغاء الخلافة بقوله: «إن سياستنا ليست مغايرة للدين أصلا بل نحن لا نشعر بنقص فيها من الناحية الدينية، وينبغي على الحكومة التركية أن تكون أكثر تمسكا بدينها لأنه لا يعتقد أن دينه يمانع الرقي »[٤٧].

وكان هذا التصريح لاحقا لما نشرته إحدى الصحف الكبرى في إستانبول في ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٣ م وهو نص رسالة موجهة إلى رئيس الوزراء عصمت إينونو من شخصيتين إسلاميتين من الهند هما « الآغا خان والسيد أمير علي » طلبا فيها من الحكومة التركية إعادة الخلافة إلى شكلها الذي جعلها تحظى بثقة واحترام الشعوب الإسلامية، ولهذا

---

(٤٥) الأهرام: ٢ ديسمبر سنة ١٩٢٢ م.
(٤٦) الأخبار: ٢٩ يناير سنة ١٩٢٣ م.
(٤٧) الأخبار: ١٨، ١٩ يناير سنة ١٩٢٤ م.

فلا ينبغي جعل هذه الرسالة سببا مباشراً لموقف الحكومة الكمالية من الخلافة، حيث كانت في تصريحها الدينية إنما تريد تهدئة الأوضاع، واستقطاب أو إسكات اتباع الاتجاه الديني في حين كانت النية مبيتة لإلغاء الخلافة، وبخاصة أن نشر رسالة الآغا خان والسيد أمير علي كان في صحيفة حكومية تخضع لرقابة الكماليين، وانهم هم الذين أرادوا أن يكثفوا من حجم الأسباب التي تبرر ما اعتزموه.

وفي أول مارس سنة ١٩٢٤ م اجتمع المجلس الوطني الكبير في جلسة سرية وقرر إلغاء الخلافة بعد إقراره لخلع الخليفة ونفيه من الأراضي التركية، وكانت هذه القرارات تلبية لرغبة شخصية من مصطفى كمال الذي تقدم بهذا الاقتراح، وكان ذلك إعلانا بانتهاء عصر الإمبراطورية الإسلامية العثمانية وإيذاناً بدخول تركيا في أحضان الحضارة المادية الأوروبية الملحدة وأدارت ظهرها للشرق الإسلامي بعد أن ظلت طوال عصر الإمبراطورية مرتبطة به حضارياً ودينياً.

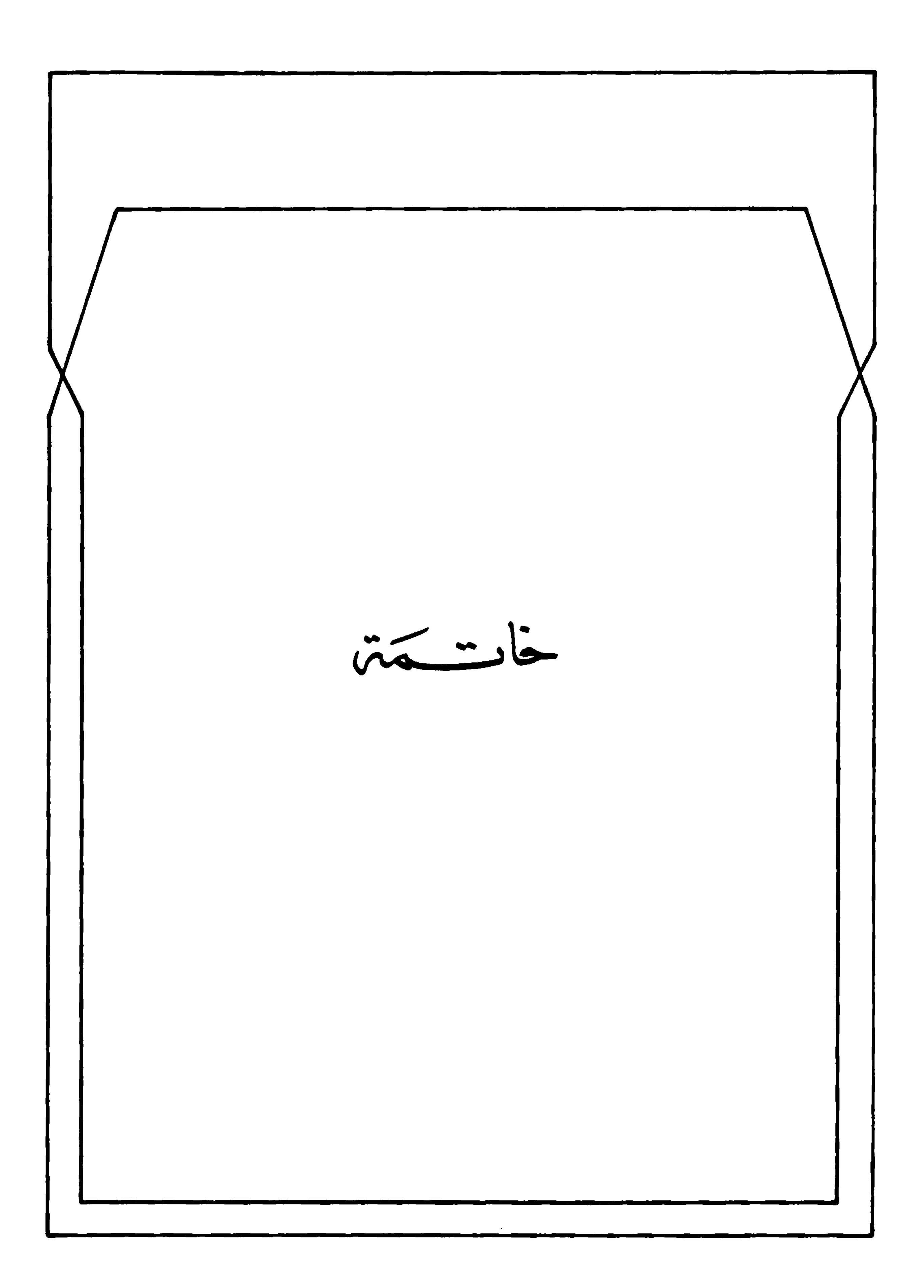
على أننا في النهاية نشير إلى أن المحافل الماسونية قد لعبت دوراً بارزاً في إلغاء الخلافة، كما سعت لإعاقة كافة الجهود في محاولة إحيائها، فقد قدم المحفل الماسوني في مصر تقريراً سرياً إلى الملك فؤاد (الذي كان عضوا فيه ومن المرشحين لمنصب الخلافة) أبدى فيه انزعاجه من نشاط لجنة الدعوة للخلافة التي كان يرأسها الشيخ محمد ماضي أبو العزايم والتي كانت تحظى بمساندة الملك فؤاد، وذلك لأن هذه اللجنة تسعى للدعوة لخلافة ابن سعود بدلا من ملك مصر، وذكر التقرير أن الشيخ ماضي أبو العزايم أخذ يمضي الناس هو وأنصاره على وثيقة ينيبونه بمبايعة عبد العزيز بن سعود أمير نجد وزعيم الوهابيين بالخلافة. وذكر التقرير أنه سيفضح أمر الشيخ أبو العزايم برسالة وردت من أحد المشتغلين معه، لأن المسألة تستحق القضاء عليها «قبل أن يظفر هذا الشيخ

الشاطر بإمضاءات كثيرة على تلك المبايعة»[48]. وبالقطع فإن ذلك يشير، إلى جانب دور المحفل الماسوني في مسألة الخلافة، تأييده لترشيح ملك مصر ورفضه - بل خوفه - من ترشيح شخصية إسلامية مستقلة مثل عبد العزيز بن سعود لهذا المنصب[49].

---

(٤٨) محافظ عابدين: محفظة (٣٦١) الخلافة الإسلامية، تقرير من «المحفل الوطني الأكبر للبنائين الأحرار القدماء المقبولين - الماسون».

(٤٩) د. زكريا سليمان: موقف مصر من ضم ابن سعود للحجاز، القاهرة سنة ١٩٨٩م، ص٢٥ ؛ كما أن تخلي الإنجليز عن الشريف حسين يرجع في جزء منه إلى طمعه في الخلافة.



خاتمة

خاتمة

قد يبدو لقارىء هذا البحث لأول وهلة أنه محاولة للعودة لتجسيد الصراع بين الشرق والغرب في قالب ديني، كما أنه قد يوحي بمدى كره الشرق الإسلامي للغرب المسيحي. ومع أنني لا أبرىء الاتجاه العام فيه من تضمنه لهذا الإحساس إلا أنه لم يكن هدفا لبحث تاريخي حاولت خلاله الالتزام بالموضوعية والحيدة قدر الإمكان، ولا يعدو في مجمله أن يكون محاولة لتصحيح النظرة لفترة تاريخية هي من أهم فترات التاريخ الإسلامي الحديث وتخليصها من الشوائب المغرضة التي خلقتها الاتجاهات والتوجهات المغرضة أيضاً والتي خرجت في مجموعها لذلك عن الموضوعية التامة، وبالتالي فهو تصوير حقيقي لاتجاهات الشعوب وعدم قصر ذلك على التصوير من منظور فئة من الحكام سطا أغلبها على الحكم ومن تبعهم من مؤرخي الصفوة وكتبة التاريخ.

والذي يطلع بإمعان في أركان الشريعة الإسلامية ومدى تطبيقها على مسيرة التاريخ الإسلامي يستطيع أن يدرك إلى أي حد نعمت الأقليات الدينية في العالم الإسلامي بالحرية والطمأنينة بشكل سمح لها بأن تلعب دوراً هاماً برغم قلته على الساحة الإسلامية. فقد استمر التقارب بين المسلمين والنصارى الأرثوذكس في الشرق عامة وفي اليونان بصفة خاصة، في حين نظر الشرقي المسلم نظرة ريبة وعداء للنصارى الكاثوليك في أوروبا، وما كان ذلك إلا للدور العدائي الذي لعبته

الدول المسيحية الغربية تجاه المسلمين منذ الحروب الصليبية وعبر مراحل التاريخ الإسلامي حتى التاريخ الحديث والمعاصر، ولم تتبدل نظرة المودة بين المسلمين والأقليات المسيحية في العالم الإسلامي عبر مراحل التاريخ إلا في أعقاب نجاح الغرب المسيحي في إثارتهم ضد المجتمع الإسلامي الذي يعيشون فيه منذ أواخر القرن الثامن عشر وعبر القرنين التاسع عشر والعشرين سواء من خلال دورهم السياسي الذي بدا في دور بعض نصارى لبنان أو نصارى مصر الذين انصاعوا لذلك وتحالفوا مع أعداء المسلمين من مسيحيي الغرب منذ دور المعلم يعقوب في مصر في مطلع القرن التاسع عشر وما تلاها من أحداث عرفت باسم الصراعات الطائفية ما زالت آثارها ممتدة حتى الآن، وكذلك مسيحيو اليونان الذين قاموا بدور تعصبي ضد العناصر الإسلامية في أعقاب الحرب العالمية الأولى لم يكن يوازي حجم التسامح الذي نعموا به طوال وجودهم تحت الحكم الإسلامي.

كما نعم اليهود في الشرق الإسلامي ولفترة تاريخية طويلة بالهدوء والاستقرار وهو ما لم يجدوه على الساحة الأوروبية منذ العصور الوسطى وحتى التاريخ المعاصر، ولم يغير المسلمون من موقفهم تجاه اليهود إلا في أعقاب ظهور أطماعهم السياسية العدائية تجاه العرب والمسلمين التي عبرت عنها المحافل الماسونية ثم الحركة الصهيونية والتي ما زالت تقوم بدورها العدائي حتى الآن، برغم ادعائها مساندة الحركات الثورية والتحررية، كما لا يخفى دورها في توجيه حركة الكتابة التاريخية التي أسهمت - وما زالت تسهم - في توسيع شقة الخلاف بين الشرق والغرب، وبين الأغلبية والأقلية، بقصد التهيئة لمواصلة تحقيق أهدافها بغض النظر عن نتائجها على علاقات ومصالح الشعوب.

وعلى أبناء الشعوب الغربية أن يعلموا أننا نحن المسلمين دعاة ولسنا

محاربين، وإذا كان تاريخنا قد وصلهم مشوها بفعل قلة من الكتّاب أرادت أو سخرت لخدمة أغراض سياسية واقتصادية، أو دفعت بعصبية العداء الديني، فتاريخنا ليس به ما يحمل على عمق العداء الذي يواصله الغرب تجاهنا. لقد ذهبنا إلى الأندلس دعاة قيم، وحاربت جيوشنا القوط البرابرة الذين أسقطوا الإمبراطورية الرومانية المقدسة واتسم تاريخهم بهدم المضيء من حضارة الإنسان، وانضمت إلى جيوش المسلمين في الأندلس جموع من المسيحيين انتصاراً للقيم وأملا في الخلاص من هؤلاء البرابرة. ونعمت هذه الجموع بسماحة ديننا فارتضوه لزمن طويل لولا نعرة الحقد والعداء التي عادت فأثيرت. وقد خلفنا وراءنا تراثا أسهم في بناء الحضارة الأوروبية الحديثة وبشكل لا تقوى على إنكاره أقلام المشوهين المغرضين، ولا أدل على ذلك من الكسب الذي تحققه أسبانيا في مجال السياحة على حساب هذه الآثار التي تشهد على أننا نحن المسلمين نبني ونعمر ونتسامح ولا نكره أو نقتل أو ندمر.

أما العثمانيون فهم قبائل آسيوية من نفس جذور القبائل الأوروبية، هداها الله إلى ديننا فتغيرت رسالتهم وتميز دورهم فسعوا إلى نشر القيم الإنسانية والدفاع عنها، وارتضيناهم حكاماً وفي هذا دليل سماحتنا وحرصنا على القيم لا على التعصب، وحين تحولوا عن قيمنا أسقطنا من تحول منهم من حسابنا.

وبشكل عام فإنه مما لا شك فيه أن الغرب الأوروبي بغطرسته الحضارية واتجاهاته العدوانية التي سار فيها شوطاً بعيداً في تعامله مع الشرق الإسلامي يعد مسؤولاً مسؤولية مباشرة عن تحول نظرة الشرقي المسلم من الإعجاب بإنجازاته الحضارية والاتجاه إلى الأخذ منها والتي بدت منذ بداية القرن التاسع عشر إلى نظرة حقد وكره مشوبة بعدم الإعجاب أو الاحترام التي ينظر بها الشرقي الآن للعالم الغربي بأسره،

ولعل ذلك يرجع كذلك إلى استهانة الغربي بالرصيد الحضاري الإسلامي وإنكاره الانتفاع به في حضارته، والذي يكشف مدى كرهه وإنكاره للإسلام كدين ويبدو في تعامله مع المسلمين وهو أمر لم يكن له مثيل في الرصيد الإسلامي التشريعي أو التاريخي في موقف المسلمين تجاه الديانات الأخرى مسيحية كانت أم يهودية. وأن على الغرب ضرورة تغيير منهجه وموقفه تجاه الشرق الإسلامي إذا كان يريد تقارباً وقبولاً، ولا ينبغي أن تخدعه حضارته الحالية في أن تصور له عدم الاحتياج، وهو ما يتسم به دوره الحالي، إلى ذلك التقارب حتى لا يضيف رصيداً جديداً إلى الرصيد العدائي التاريخي بين الشرق والغرب.

وكذلك فإن على المفكرين في الشرق الإسلامي، وعلى ضوء ذلك البحث، إدراك حقيقة هامة وهي أن شعوب هذه المنطقة من العالم قد اعتادت أن تعطي ثقتها وولاءها لحكومة وحدة اسلامية حتى ولو بدت بداخلها بعض الكيانات السياسية شبه المستقلة فإن قوة ذلك الولاء كانت وراء تصدي الدولة الإسلامية الواحدة، ممثلة في هذه الكيانات، لغارات التتار المدمرة من الشرق، وكذلك غارات الصليبيين المتوالية من الغرب. كما أن نجاح الخلافة العثمانية في حماية شعوب المنطقة من الهجمات الصليبية الاستعمارية الحديثة وبشكل أسهم في استمرار مقومات وجودها في إطار موحد قد ضمن لها استمرار ولاء شعوب المنطقة وهو أمر أسهم في استمرارها لفترة زمنية بلغت أربعمائة سنة.

إن أهم العوامل التي أسهمت وما زالت تسهم في استمرار مقومات ذلك الولاء تكمن فيما منيت به النظريات المنقولة التي حاول بعض الحكام فرضها بالفشل سواء في التجارب الديمقراطية بشتى أشكالها واتجاهاتها أم في أشكال الاشتراكية في حل أزمة الظلم الاجتماعي لشعوب المنطقة. ولا يعنينا هنا مناقشة ماهية هذه الأنظمة وما يتصل بها من

أفكار وأطر سياسية بقدر ما يعنينا عدم نجاحها في التفاعل مع الظروف الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية وغيرها في الشرق العربي الإسلامي الأمر الذي أدى إلى انحصارها في صفحات الكتب، وربما في أذهان قلة من مفكريها أو مروجيها، وألا يجني الحكام الذين فرضوها سوى تصفيق شعوبهم لا تأييدها، وأدى في نفس الوقت إلى استمرار ثقة هذه الشعوب، التي حاولت هذه القلة من المفكرين زعزعتها، في قدرة أي نظام يستند إلى الإسلام على حل أزمة الظلم الاجتماعي، وتأييدها لأي اتجاه يرى ضرورة البحث عن إطار إسلامي للوحدة بين شعوب المنطقة لوقايتهم من الأخطار المحيطة بهم على الصعيد السياسي.

لقد أدركت هذه الشعوب مدى الخسارة التي حلت بضياع هويتهم الواحدة وكما يقول برنارد لويس أنه: «بعد أن كان كل مواطن عضواً من أعضاء إمبراطورية إسلامية كبيرة لها ألف سنة أو يزيد من التراث والتاريخ وجد الناس أنفسهم مواطنين لسلسلة من الدول التابعة والوحدات السياسية الجديدة المفتعلة والتي تحاول إيجاد جذور لها في ضمير الشعب وولائه. وصاحب نسف وانهيار النظام السياسي القديم انحلال اجتماعي وثقافي مواز له. ربما كان النظام القديم في حالة تفسخ لكنه كان يقوم بوظيفته حيث كانت الولاءات والمسؤوليات واضحة الحدود والمعالم تجمع الشعب في إطار واحد فاستبدل بما أتي من الغرب فكانت غريبة على أحاسيس المسلمين وتافهة بالنسبة لحاجاتهم الفعلية المادية والروحية».

ومن هنا فإنه يكون لهذا البحث في طرحه الموضوعي دور في تحديد الجذور القريبة - تاريخيا ونفسياً - لنموذج الوحدة القائمة على الإسلام والتي امتدت منذ العصر الإسلامي الأول والتي رسخت شعور الولاء لدى شعوب المنطقة من أغلبية إسلامية وكذلك الأقليات غير الإسلامية

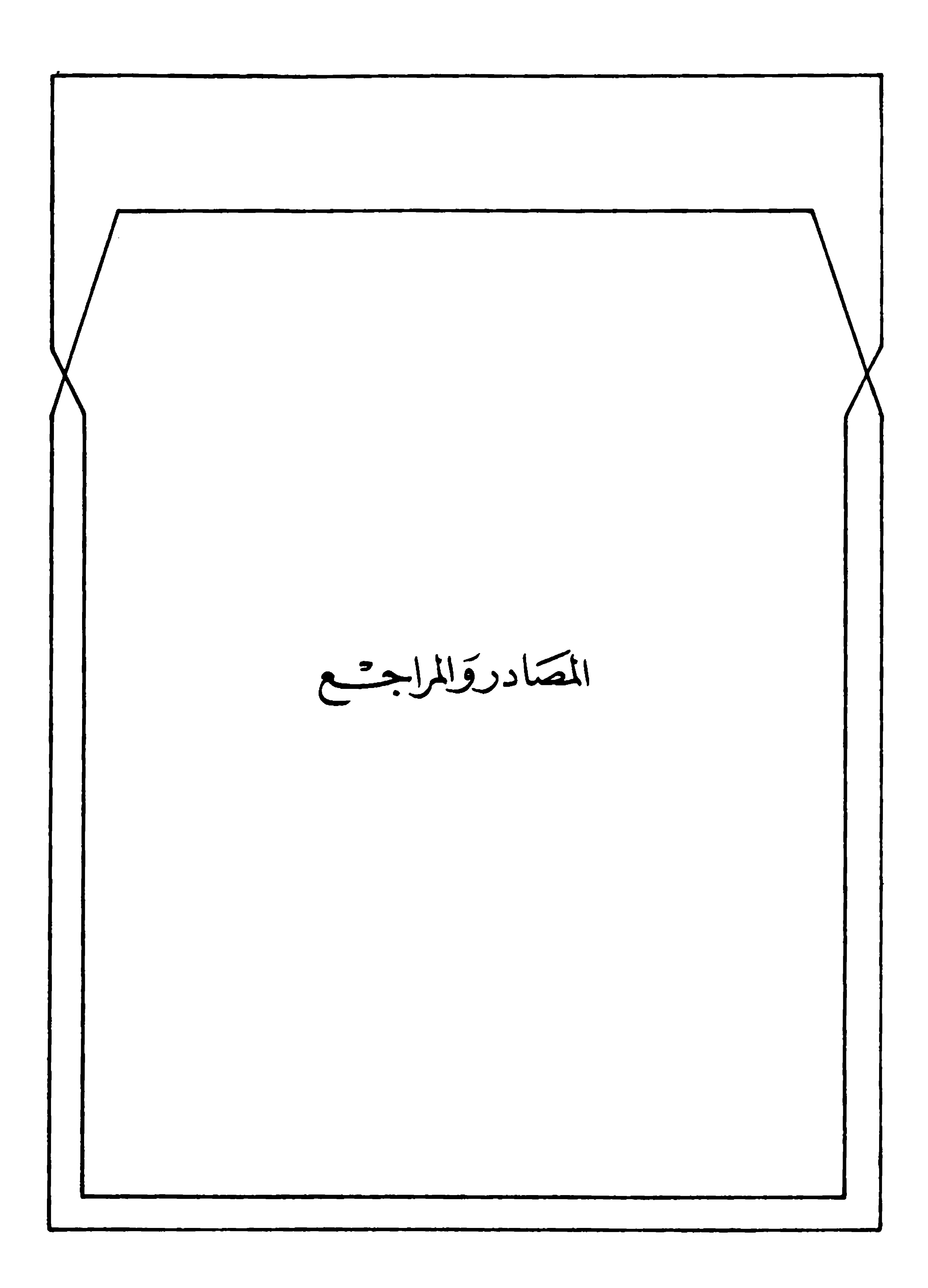
إذا ما بعدت عن عوامل الفتنة والإثارة من القوى المعادية للمنطقة، وذلك بعد أن جهدت القوى المعادية من خلال أقلام مفكريها ومؤرخيها لتشويهها بغية إضعاف هذا الولاء أو إنهائه لإقامة أنظمة سياسية مفتتة على أنقاضها.

لقد أرسى الحكم العثماني، برغم فترات ضعفه أو محاولات إضعافه، العديد من القيم الإسلامية التي ورثها من الحكومات الإسلامية السابقة لعل من أبرزها استمرار ظاهرة الولاء وترسيخها لدى كافة الشعوب الإسلامية للحكومة الإسلامية، واستمرار الثقة في قدرتها على تحقيق القسط الأكبر من الاحترام والحرية لهم، وهو أمر يجسده رغبتهم الجامحة في استعادة هذه الحكومة.

ولقد سعت العديد من المنظمات والجماعات والدعوات الإسلامية السرية والعلنية لترجمة هذا الشعور، وفي نفس الوقت لقيت تأييداً شعبياً واسعاً يزيد بكثير عن مثيلتها التي نهجت نهجاً ليبرالياً أو وطنياً أو قومياً، وكذلك المنظمات الشيوعية والاشتراكية التي أبدت في برامجها السعي لمساندة الطبقات الكادحة في الشعوب الإسلامية.

ولم تنجح محاولات الحكومات السياسية في اجتثاث جذور المنظمات والجماعات الإسلامية بقدر عدم نجاحها في فرض الأنماط السياسية والاجتماعية الوافدة على القطاعات الواعية المثقفة من شعوب المشرق الإسلامي برغم تملكها للسلطة ولكل الوسائل الإعلامية، ولا تعد الشرائح المحدودة التي نجحت في تجنيدها في هذا الجانب بشرائح ذات قيمة في التأثير على الأغلبية التي ما زالت تلتف حول كل ما هو إسلامي برغم كل مظاهر تطويعها وتغييبها. كما أن الهزائم التي منيت بها المنظمات الإسلامية والتي تزيد من إصرارها على تحقيق أهدافها وليس

فقط على مجرد التواجد على الساحة تؤكد مقولة أحد المؤرخين الليبراليين اليهود قبل ربع قرن وهو برنارد لويس أنها ما زالت لم تقل كلمتها الأخيرة.



المصادر والمراجع

الوثائق غير المنشورة

- وثائق عابدين - دار الوثائق القومية - القاهرة محفظة رقم (٣٦١) خلافة إسلامية.

المراجع العربية

- د. إبراهيم أحمد العدوي

الصراع الفكري بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث كما صوره الجبرتي - بحث ضمن مجموعة أبحاث ندوة الجبرتي- القاهرة سنة ١٩٧٦ م.

- إبراهيم محمد الصبحي

الحجاز في القرن السابع عشر - رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الآداب جامعة طنطا، ١٩٨٩ .

- إبن إياس - محمد بن أحمد

بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ ٤ ، تحقيق د. محمد مصطفى القاهرة سنة ١٩٦٠ م.

- ابن بطوطة

تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبناني ب - ت.

- ابن العجمي - محمد بن حسن

خبايا الزوايا، مخطوط رقم (٧) - مكتبة الحرم المكي - نسخ عبد الستار الدهلوي سنة ١٣٢١ هـ.

- أبو إسلام أحمد عبد الله

الروتاري - شرخ في جدار - دار الاعتصام - القاهرة سنة ١٩٨٨ م.

- أبو الفدا - محمد عزت عارف

نهاية اليهود - جدة - سنة ١٤١٠ هـ.

- أحمد أمين

الفتوة في الإسلام - القاهرة سنة ١٩٥٢ م.

- أحمد توفيق مدني

حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا - الجزائر - ط ٢ سنة ١٩٧٦ م.

- د. أحمد صبحي منصور

السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة - القاهرة سنة ١٩٨٢ م.

- أحمد خاكي

الجبرتي ومحمد علي - بحث ضمن ندوة الجبرتي - القاهرة سنة ١٩٧٦ م.

- د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

في أصول التاريخ العثماني - دار الشروق - بيروت - سنة ١٩٨٢ م.

- د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

الجبرتي مؤرخا - ضمن مجموعة ندوة الجبرتي - القاهرة سنة ١٩٧٦ م.

- د. أحمد عزت عبد الكريم

دراسات في تاريخ العرب الحديث - بيروت - سنة ١٩٧٠م.

- د. أحمد عزت عبد الكريم

الجبرتي مؤرخ على مفترق الطرق - ضمن مجموعة ندوة الجبرتي - القاهرة سنة ١٩٧٦م.

- أحمد فهد بركات الشوابكة

فكرة الجامعة الإسلامية - مكتبة المنار - الأردن سنة ١٩٨٤م.

- د. أحمد فؤاد متولي

الفتح العثماني للشام ومصر - القاهرة سنة ١٩٧١م.

- أرمينيوس فامبري

تاريخ بخارى - ت د. أحمد محمود الساداتي - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٩٦٥.

- أرنولد توينبي

عبد الرحمن الجبرتي وعصره - بحث ضمن مجموعة ندوة الجبرتي - القاهرة سنة ١٩٧٦م.

- العبد سعيد مسعود

المجتمع الجزائري في العهد العثماني - الجزائر - ب. ت.

- أنور الجندي

اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى - دار الاعتصام - القاهرة سنة ١٩٧٨م.

- بارتولد. و

تاريخ الترك في آسيا الوسطى - ترجمة د. أحمد السعيد سليمان - ب-ت.

- د. بدر الدين عباس الخصوصي

دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر - ط٢ الكويت سنة ١٩٨٤م.

- برنارد لويس

الغرب والشرق الأوسط - ت. د. نبيل صبحي - بيروت سنة ١٩٦٥م.

- بيير نوفان

تاريخ العلاقات الدولية، ترجمة د. جلال يحيى - القاهرة سنة ١٩٧٩م.

- توماس. و. أرنولد

الدعوة إلى الإسلام - ت. د.حسن إبراهيم حسن وآخرين - النهضة العربية - القاهرة سنة ١٩٧٠.

- د. جمال محمد محمود حجر

بريطانيا والنشاط السوفييتي في الحجاز، ١٩٢٤-١٩٣٨م - الدوحة - ب. ت.

- د. جلال يحيى

المغرب الكبير - العصور الحديثة وهجوم الاستعمار - القاهرة سنة ١٩٦٦م.

- د. جمال زكريا قاسم

الصراعات المحلية والدولية في البحر الأحمر في النصف الأول من القرن السادس عشر، ندوة البحر الأحمر، القاهرة سنة ١٩٨٠ م.

- د. جمال زكريا قاسم

عبد الرحمن الجبرتي - سيرة وتقييم - مجموعة أبحاث ندوة الجبرتي - القاهرة سنة ١٩٧٦ م.

- جورج أنطونيوس

يقظة العرب - ت د. ناصر الدين الأسد ود. احسان عباس ط ٦.

- د. حسين أحمد محمود

الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي - النهضة العربية - القاهرة سنة ١٩٦٨ م.

- حسين عمر حمادة

الماسونية والماسونيون في الوطن العربي - دمشق - ب. ت.

- حسين لبيب

تاريخ الأتراك العثمانيين - القاهرة سنة ١٩١٧ م.

- د. حسين مجيب المصري

صلات بين العرب والفرس والترك - الانجلو المصرية سنة ١٩٧١ م.

- د. رأفت غنيمي الشيخ

دراسات في تاريخ العرب الحديث - القاهرة سنة ١٩٨٦ م.

- د. رأفت غنيمي الشيخ

أمريكا والعلاقات الدولية - القاهرة سنة ١٩٧٩م.

- د. زكريا سليمان موسى

التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين - دراسة في فكر الشيخ محمد عبده - القاهرة سنة ١٩٨٣م.

- د. زكريا سليمان بيومي

موقف مصر من ضم ابن سعود للحجاز - القاهرة سنة ١٩٨٩م.

- د. زكريا سليمان بيومي

موقف مصر من المتغيرات في تركيا بين الحربين العالميتين - القاهرة سنة ١٩٨٩م.

- د. سعد زغلول عبد ربه

البرتغاليون والبحر الأحمر - مجموعة بحوث ندوة البحر الأحمر - القاهرة سنة ١٩٨٠م.

- د. سليمان محمد الغنام

قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية - دار تهامة - سنة ١٩٨٠م.

- د. سيد نوفل

الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة - الكتاب الثاني - ط٢ - القاهرة سنة ١٩٧٢م.

- د. شوقي ضيف

فصول من الشعر ونقده - القاهرة سنة ١٩٧١م.

- د. شوقي الجمل

تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها - ط٢ - القاهرة سنة ١٩٨٠م.

- د. صلاح العقاد

المغرب في بداية العصور الحديثة - القاهرة سنة ١٩٨٠م.

- د. صلاح العقاد

التيارات السياسية في الخليج العربي - القاهرة سنة ١٩٧٤م.

- د. صلاح العقاد

الجبرتي والفرنسيس - بحث ضمن ندوة الجبرتي - القاهرة سنة ١٩٧٦م.

- صلاح عيسى

منهج عبد الرحمن الجبرتي في رؤية الظواهر التاريخية - ندوة الجبرتي - القاهرة سنة ١٩٧٦م.

- د. عبد الحميد البطريق وآخرون

التاريخ الأوروبي الحديث - دار الفكر العربي - القاهرة سنة ١٩٧٦م.

- عبد الجبار الزيدي

الماسونية تحت الأضواء - بيروت سنة ١٩٨٨م.

- عبد الرحمن الجبرتي

عجائب الآثار في التراجم والأخبار - دار فارس - بيروت ب. ت.

- د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر - القاهرة سنة ١٩٨٦م.
- عبد الصبور مرزوق
الغزو الفكري - أهدافه ووسائله - ط٣ - مكة المكرمة - ب. ت.
- د. عبد العزيز محمد الشناوي
الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها - ٣ أجزاء - الانجلو المصرية سنة ١٩٧٨م.
- د. عبد الكريم غرايبة
تاريخ العرب الحديث - بيروت سنة ١٩٨٤م.
- د. علي حسون
الدولة العثمانية - المكتب الإسلامي - بيروت سنة ١٩٨٠م.
- د. عمر عبد العزيز عمر
تاريخ المشرق العربي ١٥١٧-١٩٢٢م - دار المعرفة - الاسكندرية سنة ١٩٨٤م.
- د. فاروق عثمان أباظة
عدن - السياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١٨م- القاهرة ١٩٧٦م.
- فتحي رضوان
مصطفى كمال أتاتورك - القاهرة سنة ١٩٨٣م.

- فيشر

في أصول التاريخ الأوروبي الحديث - ت. د. زينب راشد، د.أحمد عبد الرحيم مصطفى - ط٣.

- قطب الدين النهروالي

أخبار مكة المشرفة - مكة - ب. ت.

- كارل بروكلمان

تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة منير البعلبكي ونبيه أمين فارس ط٨ - دار العلم للملايين - بيروت سنة ١٩٧٩م.

- كلود كاهن

تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى ظهور الإمبراطورية العثمانية - دار الحقيقة - بيروت ط٣، سنة ١٩٨٣م.

- كوبلبرينج - ت

الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته - ت: د. عبد الرحمن أيوب - سلسلة الألف كتاب - العدد (١١٦) القاهرة سنة ١٩٥٢م.

- د. لويس عوض

تاريخ الفكر المصري الحديث - الخلفية التاريخية - ط١- القاهرة سنة ١٩٧٩م.

- د. ليلى عبد اللطيف أحمد

تاريخ ومؤرخي مصر والشام في العصر العثماني - القاهرة سنة ١٩٨٠م.

- م. أبير

التجديد والرجعية وامبراطورية محمد علي - ت مكي حبيب المؤمن - مجلة المؤرخ العربي - العدد ١٨ سنة ١٩٨١م.

- محمد أديب غالب

من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي - دار اليمامة السعودية ط١ سنة ١٩٧٥م.

- د. محمد أنيس

الدولة العثمانية والمشرق العربي - القاهرة سنة ١٩٦٣م.

- د. محمد أنيس

مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني - القاهرة سنة ١٩٨٦م.

- محمد علاء الدين منصور

جماعات الفتوة في الأناضول في العصرين السلجوقي والعثماني - رسالة دكتوراه غير منشورة - آداب القاهرة سنة ١٩٨٣م.

- محمد علي الزغبي

الماسونية في العراء - مؤسسة الرسالة - بيروت - سنة ١٩٨٨م.

- د. محمد فؤاد شكري

مصر في مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١-١٨١١م) - القاهرة سنة ١٩٥٨م.

- محمد فؤاد كوبريلي

قيام الدولة العثمانية - ت: د. أحمد السعيد سليمان - دار الكاتب العربي ب. ت.

- محمد فريد بك

تاريخ الدولة العلية.

- محمد كامل إبراهيم

النشاط الماسوني في مصر - مجلة المجتمع الكويتية - العدد (٦٤٥) سنة ١٩٨٣م.

- د. محمد عبد الرحمن برج

دراسات في التاريخ العربي الحديث - القاهرة سنة ١٩٧٩م.

- د. محمد محمد حسين

الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر - جزءان - ط٣ - بيروت سنة ١٩٧٢م.

- د. محمد موفاكو

البكتاشية - مجلة العربي - العدد (٢٢٠) سنة ١٩٧٧م.

- د. محمود حلمي مصطفى

الجبرتي ومعاصروه من أمراء المماليك - مجموعة ندوة الجبرتي - القاهرة سنة ١٩٧٦م.

- د. مصطفى محمد رمضان

مخطوطة من تأليف الجبرتي - مجموعة ندوة الجبرتي - القاهرة سنة ١٩٧٦م.

- د. نور الدين حاطوم

عصر النهضة الأوروبية - دار الفكر العربي - بيروت سنة ١٩٦٨م.

- نورمان بينز

الامبراطورية البيزنطية - ت: د. حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد - القاهرة سنة ١٩٦٤م.

- د. يونان لبيب رزق

الجبرتي والشخصية المصرية - مجموعة ندوة الجبرتي - القاهرة سنة ١٩٧٦م.

الدوريات

- المنار

١٩٠٩- ١٩١٣ - ١٩٢٤م.

- الوطن

١٩٠٨ - ١٩٠٩ م.

- اللواء

١٩٠٩ - ١٩١٠م.

- الأخبار

١٩٢٢ م.

- الأهرام

١٩٢٤ م.

- المجتمع الكويتية

١٩٨٣ م.

- العربي

١٩٧٧ م.

المراجع الأجنبية

- Bernard Lewis: The emergence of Modern Turky, Oxford. u. p. 1961.
- Kamal Karpat: Turkey's Political: The Transition to Multi- Party, N.j. 1969.
- Kushmer, David: The Rise of the Turkish Nationalism 1876-1908, London 1977.
- Marco, E: Yemen and Western World Since 1571, London 1968.
- Marston, T.E: Britain, S Imperial Role in the Red sea area.
- Nadav Safran: Egypt in Search of political Community (Cambridge Harvard University Press 1961.
- Smith, W. C. Islam in Modern history, U. S. A. 1955.
- Wittek, P. The Rise of Ottoman Empire, London 1938.

كتب للمؤلف

- الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية المصرية ٢٨-١٩٤٨م مكتبة وهبة - القاهرة سنة ١٩٧٩م.
- الحزب الوطني ودوره في السياسة المصرية ١٩٠٧-١٩٥٣م - القاهرة سنة ١٩٨٠م.
- التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين - دراسة تاريخية في فكر الشيخ محمد عبده - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٨٣م.
- مصر الحديثة بين الانتماء العقائدي والقومي - مكتبة وهبه - القاهرة سنة ١٩٨٣م.
- الاتجاه الإسلامي في ثورة مصر سنة ١٩١٩م - دار الكتاب الجامعي - القاهرة سنة ١٩٨٣م.
- الاخوان المسلمون بين عبد الناصر والسادات من المنشية إلى المنصة - مكتبة وهبة - القاهرة سنة ١٩٨٧م.
- قضايا الفلاح في البرلمان المصري ١٩٢٤-١٩٣٦م - هيئة الكتاب - القاهرة سنة ١٩٨٧م.
- موقف مصر من ضم ابن سعود للحجاز ١٩٢٤-١٩٢٦م- دار الكتاب الجامعي - القاهرة سنة ١٩٨٨م.

- موقف مصر من المتغيرات في تركيا بين الحربين العالميتين ١٩١٨-١٩٣٨م دار الكتاب الجامعي - القاهرة سنة ١٩٨٩م.
- الحزب الوطني الجديد - فتحي رضوان ومجموعته - دار الكتاب الجامعي - القاهرة سنة ١٩٨٩م.
- الطرق الصوفية في مصر المعاصرة - ١٩٠٣-١٩٨٠م- دراسة تاريخية وثائقية (تحت النشر).

بحوث للمؤلف

- خير الدين بربروسا وأخوه عروج بين تهمة القرصنة وطبيعة الجهاد - مجلة كلية التربية، جامعة المنصورة - ١٩٨٣م.
- إسلام الأتراك العثمانيين وأثره على تأسيس دولتهم وعلى دورهم في نشر الإسلام في شرقي أوروبا - مجلة المؤرخ العربي - بغداد - العدد (٣٧) سنة ١٩٧٩م.

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر